جفت الدموع

يوسف السباعي

١

مكتبة مصر

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

للمؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية ...... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(رواية ...... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إنى راحلة	(رواية ...... ١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥٠)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية ..... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية ...... ١٩٥٢)
السقامات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زعرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية ..... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(رواية ‎..... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية ‎.... ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(رواية ‎..... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليالى ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية ‎..... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات ‎.... ١٩٥٧)
من حياتى	(» ‎...... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ‎...... ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات ‎.... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ‎...... ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ‎...... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية ‎.... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية ‎..... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات ‎.... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ‎..... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية ‎..... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات ‎.... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة ‎...... ١٩٧٣)

الإهداء

إلى القلوب النابضة التى تدفق منها الحب فى سوريا ومصر فجرف السدود وحطم الحوائل وجعل من البلدين وطناً واحداً .

راجياً أن يقتلع تيارها الدافق كل ما ينبت فى طريق الوحدة من حنظل الشك وشوك القلق وأن ينمى غرس المحبة والتضامن ويوطد جذوره ويمد ظله .

يوسف السباعى

مقدمة

نحن نعيش أياما حافلة .. يسجل فيها التاريخ أحداثا كباراً لا يستطيع الكاتب أن يقف بمعزل عنها ، وهى تشكل جزءاً من حياته وحياة بلاده .. وحياة عالمه .

والأحداث الكبار التى تتوافد على جيلنا قد حملت كتّابه مسئولية كبرى ، لا أظنهم مستطيعين الخلاص من تحمل أعبائها ، ومن تأدية واجبهم نحوها ، فالذين عاصروا هذه الأحداث مطالبون أمام التاريخ بأن يقولوا فيها كلمتهم ، وأن يعبروا عن أحاسيسهم تجاهها ، فهم يمثلون المرآة التى تنعكس منها صور الأحداث على الأجيال القادمة ... ومن خلالهم .. من خلال إنتاجهم .. الباق على الزمن .. فى سطور قصة .. أو كلمات قصيدة سيورثون الأجيال القادمة حقيقة الأحداث الكبار التى عاشها هذا الجيل .

وأذكر أنى أكدت فى مقدمة كتابى « رد قلبى » مسئولية الكاتب تجاه الأحداث الخطيرة التى حدثت فى تاريخنا المعاصر .. وأنى حاولت بقصة « رد قلبى » أن أؤدى بعض هذه المسئولية تجاه الثورة التى غيرت وجه التاريخ ف مصر .

ولقد توالت الأحداث منذ ذلك التاريخ وأمسكت بتلابيبنا وانطلقت تعدو بنا ونحن نكاد لا نلتقط أنفاسنا .

وفى قصة « نادية » .. حاولت أن أعكس أحداث تأميم القناة من خلال مرآة القصة .. التى عاصر أبطالها تلك الأحداث .

ومن خلال هذه القصة « جفت الدموع » ، تنعكس أحداث كبار أخرى .. هى أحداث الوحدة الكبرى بين مصر وسوريا .. التى جعلت من أحلام التاريخ حقيقة واقعة .. والتى جمع الشعبين فيها ، انفعال من شعور كان أغلب من كل عقبة ، وأقوى من كل حائل .

ومفهوم بداهة .. أن القصة لا تؤرخ .. ولا تسجل وقائع ، وإنما هى تعكس أحداثا كباراً من خلال حياة أبطال القصة ، وأنها تعرض قطاعا من حياة ناس .. يشعرون ويحبون .. ويعيشون فى تلك الفترة .. كما يعيش البشر .

وبعد ..

فإنها جزء من مسئولية كاتب بين عشرات كتّاب هذا الجيل .. أرجو أن أكون قد نجحت فى حمل عبئه .. وفى تأدية واجبى نحوه ؟

يوسف السباعى

١

انتصار ومرارة

١٨ نوفمبر ١٩٥٧

مطار المزة .. يهدر كأنه البحر المتلاطم ..

ودمشق كلها قد خرجت لاستقبال الأشقاء المصريين من أعضاء مجلس الأمة المصرى .

والأرض لا تكاد تبين .. فالحشود المتراصة قد سدّت الطرق المؤدية إلى المطار .. وجماهير المستقبلين قد تكدّست فوق أسطح المبانى المحيطة به .. حتى لم تدع هناك موطئاً لقدم .

والرءوس مرفوعة .. والعيون متطلعة إلى السماء .. والنظرات ملؤها اللهفة والفرحة .. والأمل .

والمطر ينهمر .. والريح الباردة تشتد .

والجماهير المتزاحمة لا تعبأ بمطر ، ولا بريح ، ولا ببرد .. فالمشاعر التى تجيش فى النفوس أقوى من كل ما حولها من عصف ريح أو لسعة برد .

والقلوب تستقبل كل مظاهر الطبيعة بترحيب الواثق المؤمن .. وقطرات المطر أفعل فى إيناع الأمل فى القلوب .. منها فى قرع الوجوه ، أو إغراق الثياب .

الحشود البشرية المتراصة لم ينظمها منظم .. أو يصفّها صافّ .. وإنما دفعتها إلى التدفق .. لهفة فى القلب على وحدة تشد الأزر ، وتصلب العود ، وتدفع الشر وتصد العدوان .

وعلى طول الطريق من المطار إلى المزة .. اصطف الطلاب والطالبات

يحملون باقات الزهور فى أيديهم .. وبسمات الأمل على شفاههم .

وأفراد المقاومة الشعبية ومنظمات الفتوة يلوّحون ببنادقهم .. وعلى مدى البصر قد انتشرت اللافتات تحمل شعارات الوحدة :

« عاشت وحدة مصر وسوريا » .

« الشعب السورى جزء من الأمة العربية » .

ودمشق تبدو فى حماسها الملتهب .. وفرحتها العجيبة .. كأنها ترفع ذراعيها إلى السماء لتضم مبعوثى مصر الشقيقة .. قبل أن تطأ أقدامهم الأرض .

وتحرّك الوفد الرسمى .. يتقدمه رئيس مجلس النواب السورى .

وتوقفت الطائرة .. واتجه السلم المتحرك إلى بابها .

وبدا على الباب رئيس الوفد المصرى بوجهه الأسمر ورفع ذراعه ملوّحاً بالتحية لمستقبليه .

وضج المطار بالهتاف .. وأخذ الوفد المصرى بروعة الاستقبال وفرط الحماس .. واندفعوا يلوّحون بأيديهم فى فرحة غامرة .

وقبل أن تصل أقدامهم إلى الأرض .. كانت الأعناق قد تلقفتهم ، وتحركت بهم ، فى هتاف رج الأرض وطاول السماء .

وسار الأستاذ « سامى كرم » .. عضو مجلس الأمة السورى .. وأحد أعضاء وفد المستقبلين .. تدفعه الحشود المتدفقة ، وبنفسه إحساس عجيب بالراحة والطمأنينة .. ونظر إليه الأستاذ « سليم جبرى » وهو يجده قد استسلم أمام تيار الجماهير وقال ضاحكا :

— أيعجبك هذا ؟

— جداً .

— التيار قوى ..

— أقوى من أن يقاومه أحد !

— ولا صاحبك فؤاد ؟

وأطلق « سامى » ضحكة ساخرة وأجاب :

— فؤاد من يا صاحبى ؟! إنه هو وأنصاره لا يتحملون نفخة من تيار الوحدة !

— أتظنه سيحضر الجلسة غداً ؟.

— يحضر أو لا يحضر .. الوحدة آتية .. آتية .. من ذا الذى يستطيع أن يقاوم هذه الرغبة الجامحة .

ووصل الركب إلى باب المطار ..

وبدأت العربات تتحرك بين جموع الشعب الذى سد منافذ الطريق ، وأصبح على السائقين أن يشقوا طريقهم ببطء وحذر .

وقبل أن يتخذ « سامى » مكانه وسط زملائه فى العربة تلفت حوله فى قلق وتساءل :

— أين فايزة ؟.. لقد حضرت معنا فى العربة .

وأجابه سليم :

— لا أظن العثور عليها الآن بالأمر السهل .. ادخل .. فالعربات وراءنا تريد أن تسير .

وعاد « سامى » ينظر حوله :

— ولكن كيف ستعود ؟

— يا أخى ، ستعود كبقية خلق الله . إن لها رأساً وقدمين !

واتخذ « سامى » مكانه فى العربة وما زال يبحث بعينيه .. وعاد صاحبه يقول :

— لا بد أن تكون الجماهير قد جرفتها .

— إن معها حقيبة أوراقى ..

— وما حاجتك إلى الحقيبة الآن ؟!

— ربما احتجت إلى بعض أوراق بها .

وتحركت العربة وسط موج العربات .

وتزاحمت الجماهير تحاول مصافحة الوفد المصرى ، وتعالت هتافاتها تبلغ التحية إلى حبيبهم « جمال عبد الناصر » .. رمز الوحدة .. والنصر .. والمستقبل الزاهر .. والغد المشرق .

وتساءل « سليم » وهو يهز رأسه فى عجب :

— ما تصورت قط أن مشاعر الشعب يمكن أن تصل إلى هذه الدرجة من الحماس للوحدة والرغبة فيها .

— ولِمَ لا ؟!.. وهى أملنا فى المستقبل .. وسندنا فى كل معركة .. لن يستطيع واحد منا أن يقف وحده فى وجه هذه التيارات المتلاطمة حولنا .. ولن ...

وقاطعه سليم ضاحكا :

— أعرف هذا .. ولكن هذه الآلاف الصاخبة التى تتأجج حماسة للوحدة ؟

— تعرفه أيضاً ..

— الفضل لك ..

— ليس لى فضل سوى الإيمان .

— لقد استطعت أن تغرسه فى نفوس الكثيرين من الشباب الذين يؤمنون بك .

وأطرق سامى ..

وقال سليم :

— هل أخجلت تواضعك ؟!

— لا تواضع فى هذه المسائل .. وددت لو استطعت أن أجعل الناس جميعاً يؤمنون بما نؤمن به .

— مثل ؟

— أشياء كثيرة .

— أولها ؟

— قوميتنا العربية . لقد كنت دائماً أومن بها فى قرارة نفسى .. ولكنى كنت أحس دائماً بحاجة إلى الإيمان بأنفسنا أولا .. الإيمان بالملايين العاديين الذين يمكن أن يبنوا مستقبل وطننا العربى على دعائمها ، حتى بعث فينا الزعيم « عبد الناصر » ، ليجعلنا نؤمن بأنفسنا .. وبمقدراتنا .

وكانت العربات قد وصلت إلى الطريق المتسع .. وخف الزحام من حولها .. فزادت سرعتها .

ونظر سامى إلى ساعته وسأل سليم :

— إلى أين ؟

— إلى رياسة الجمهورية ، ثم مجلس النواب .

— مجلس النواب ؟!. ولكن الجلسة غداً !

— ستكون الزيارة للنصب التذكارى .

— وبعد ؟

— أظن سراى الحكومة ، ثم وزارة الخارجية .

وبدأت العربات تتجه إلى المهاجرين ، والجموع محتشدة على طول الطريق ، تهتف فرحة مستبشرة :

« لا حياة للعرب إلا بوحدتهم » .

« عاش ممثلو الشعب العربى المصرى » .

« سبيل مصر وسوريا سبيلنا » .

وتوقفت العربات أمام قصر الرياسة ، وهبط الأشقاء السمر يشقون طريقهم إلى الباب .

واتجهوا إلى الحجرة المتسعة على اليمين ، حيث وقعوا فى سجل التشريفات ، ثم صعدوا إلى الرئيس « شكرى القوتلى » ، فصافحهم فى حرارة ، وأكد لهم أنهم

فى بلدهم ، وأن المجلس النيابى السورى هو مجلسهم . وأن نوابه إخوانهم ، لا خلاف فى مشاعر ، ولا خلاف فى أهداف .

وختم الرئيس « القوتلى » حديثه قائلا :

— إننى أرحب بكم .. بصفتكم نواب مجلس أمة شقيقتنا مصر ، وبصفتكم رسل الأخ العزيز « جمال عبد الناصر » ، وأنا واثق أن الوحدة العربية التى تسعون إليها ستتحقق بإذن الله .

وأحس سامى أن الوحدة لم تعد مسعى ، بل باتت حقيقة ، وانتقل بصره من الرئيس « القوتلى » إلى « أنور السادات » .. وقد بدا عليه التأثر وغلبه الانفعال .

ورد أنور قائلا :

— أرفع إليكم تحيات شعب مصر وتحيات أخيكم الرئيس « جمال عبد الناصر » .. بوصفكم رجلا من رجالات العروبة الذين وهبوا حياتهم من أجل تحقيق فكرة القومية العربية .. وأقرر هنا أمامكم باسم شعب مصر .. وباسم زعيم مصر .. أننا جميعاً نقف من ورائكم .. ونحارب تحت رايتكم لكى نحقق آمال الأمة العربية .. إنى أضع بين يدى فخامتكم كل مشاعر شعب مصر .. ورئيس مصر .. فى هذا السبيل .. وسننتصر بإذن الله .

وتناول النواب طعام الغداء على مائدة الرئيس « القوتلى » ، ثم اتجهوا بعد الظهر إلى زيارة النصب التذكارى للعدوان الفرنسى على مجلس النواب السورى .

ووقف سامى يتحدث مع أحد النواب المصريين ، وقال النائب المصرى :

— استفتاء اليوم يعتبر استفتاء للوحدة .

— الوحدة يا أخى .. قائمة بغير استفتاء ، بيننا وبينكم وحدة الدم الذى سال على أرض بور سعيد ، والذى يمكن أن يسيل فى هذا العدوان الذى يهدد اليوم أراضينا .

— سمعت اليوم من الرئيس « القوتلى » أن موجته قد بدأت تنحسر .. بفضل صمود الشعب السورى .. وصلابته .

— وبفضل وقفتكم إلى جوارنا .. لقد نفذتم الوحدة بطريقة إيجابية .. عندما أرسل الرئيس « جمال عبد الناصر » وحدات الجيش المصرى لتقف بجوار وحدات الجيش السورى أمام تهديدات المستعمر .

— هذا واجبنا . إن أرضكم أرضنا ، وما يهددكم يهددنا .

— إن ما يهدد كل شبر من أى بلد عربى .. يهدد الوطن العربى كله .

وانتهت الزيارة .

وعاد سامى إلى مقر الحزب .

ولم يكد يستقر على مكتبه .. حتى طرق الباب .. ودخلت « فايزة » .

ونظر إليها « سامى » نظرة شاردة .

وابتسمت « فايزة » .. فقد تعودت نظرته الشاردة .. تعوّدت ألا يحقق فيها .. بل أن يأخذها على أنها شيء موجود .

رغم أنها أحست ذات يوم بأنه يراها بتفاصيلها .

وأكثر من ذلك .. يعجب بها .. كجنس لطيف !

كان ذلك منذ زمن طويل .

أو يبدو لها كأنه طويل .

منذ عام ونصف .

وربما عامين .. إنها لا تذكر الموعد بالتحديد .

ولكنها تذكر .. تفاصيل اللقاء الأول .. فى أحد اجتماعات الحزب .

لقد بدأت هى نظرات الإعجاب .

لا تستطيع أن تنكر ذلك .

كانت تجلس وعيناها مسلطتان عليه .. لم ترفعهما عنه طول الجلسة .

كان شكله لطيفاً .. ومازال .

ولكن شكله لم يعد عندها ذا موضوع .. بل بات هو نفسه .. كله .. بشخصيته المتزنة .. وذهنه الصافى .. وذكائه غير المدّعى .. وخلقه القويم .. ونفسه الخيرة .. و .. و .. وأشياء كثيرة جداً .. لا تستطيع حصرها .

لقد بات هو بمجموع هذه المركبات الخيرة .. يعنى لديها كل شىء .

ولكن شكله وقتذاك .. كان عنصر الجذب فيه .

ملامحه النبيلة .. ومنكباه العريضان .. وابتسامته اللطيفة .. التى لا تغرب عن شفتيه .

وسلطت عليه نظراتها .

وعندما تسلط نظراتك على إنسان .. لا بد أن يحس بك .. ولو كنت بين مئات الناس .

ولقد أحس هو بها .. فرمقها بنظرة سريعة .. ثم بنظرة أطول .. ولم يكرر النظرة .. ربما لأنها لم تعجبه .

وربما لأنه أحس بحرج موقفه كشخص مرموق .. لا ينبغى له أن يبيح لنفسه .. الحملقة بإعجاب فى عيون الغير !

والأخير هو الأرجح .

فهى تعرف كيف تميز بين النظرة المعجبة .. وغير المعجبة .

وفى نهاية الجلسة .. اندفعت لتدس نفسها بين جمهرة الشباب الذى أحاط به يسأله .

ورأته .. ينظر إليها .. نظرة .. أوضح .. وأفحص .. وأشمل .

لقد فحصها بسرعة من أخمص قدمها إلى قمة رأسها .. فحص جسدها المستقيم المتناسق ، وشعرها الذهبى الملقى على كتفيها .. واستقر ببصره فى عينيها الخضراوين الصافيتين .

وابتسم .

وابتسمت .. وكان عليها أن تبذل جهداً لكى تتغلب على حمرة الخجل التى

توشك أن تغمر وجهها .

كانت الفرصة أضيق من أن تضيعها فى الخجل .

واقتربت منه وحيته .

ولم يشق عليها أن تجد موضوع الحديث الذى تصل إليه به .

قالت :

— لقد أعجبت جداً بافتتاحية اليوم التى كتبتها فى الجريدة .

ونظر إليها متشككاً وتساءل :

— حقاً ؟

ثم واصل حديثه بعد وقفة قصيرة وكأنه يختبر حقيقة إعجابها :

— ماذا أعجبك منها ؟

وكانت قد قرأتها وأعجبت بها فعلا .

بل لقد قرأت له .. معظم ما يكتب فى جريدة حزبه .

فلم يصعب عليها أن تحلل له المقال .. وتبدى له مواطن القوة فيه .

ونظر إليها فى دهشة ، وقال بلا وعى :

— عجباً !!

وتساءلت فى دهشة :

— ما هو هذا العجب ؟

— أن تدركى كل ما قلت .

وكأنما أحس بما فى قوله من إهانة .. فعاد يصحح قوله :

— أعنى .. أن يكون لك كل هذا الاهتمام بمثل هذه المسائل السياسية .

— كيف يا أستاذ ؟ إنى أتتبع كل النشاط السياسى .. الداخلى .. والخارجى .

— ألك صلة بحزب من الأحزاب ؟

— ليس بعد . لأنى ما زلت طالبة .. وإن كنت أحس بأنى على صلة روحية

تامة بحزب الحرية .

— نحن نرحب بالعناصر المؤمنة .. الجادة .. ويبدو أنك أحد هذه العناصر .. ويمكنك أن تتقدمي للانضمام إلى الحزب فى أى وقت تشائين .

و لم تمض بضعة أيام حتى كانت قد انضمت إلى الحزب .. وكان أكثر ما يسعدها .. هو أن يكلفها بعمل ما .. وكانت تحاول جهدها أن تتقنه .. لتحصل منه على مزيد من الإعجاب .

ولقد نجحت فعلا فى الحصول على إعجابه .. الكامل .. المطلق .. بشخصها .. وبعملها .

لقد أصبحت عنده .. شيئاً ما .

شكلا .. وموضوعاً .

واتخذها شبه سكرتيرة له .

وباتت موضع ثقته ، وعطفه .. ومشاعر أخرى طيبة ، يمكن أن تكون فى مجموعها .. مبادىء حب !.

أما عنها .. هى .. فقد أحبته .

اعترفت بذلك لنفسها .. بل أخذت تبنى قصور أحلامها .. على أساس وجوده فيها ومشاركته لها .

وباتت تطمع فى أن يضعها من نفسه .. الوضع الذى وضعته من نفسها .

و لم تجد الأمر مستحيلا .

بل وجدت من مقدماته وتباشيره .. ما ينبىء به .. حتى تبدل حاله .. وتغيرت أطواره .

و لم يكن التغير تجاهها فقط .

بل كانت هى أحد مظاهر هذا التغير .

وربما أبسطه .. وأقله خطرا .

لقد هانت عليها نفسها .. وهان عليها حبها .. وقصور أحلامها المنهارة .

إلى جانب .. التغير الذى أوشك أن يهدد حياته العامة .. وسمعته .. ومركزه .. وكيانه .. كمشروع ناجح .. وأمل مشرق .

لم تعد منذ ذلك الوقت .. شيئاً له تفاصيل .. تعجبه أو لا تعجبه !

بات ينظر إليها .. كشىء موجود لا داعى للتحقيق فيه .

ومرّت الأزمة .

نجا منها .. بكيانه .. وشخصيته .. ومركزه .. ونجاحه . ومستقبله .

ولقد كانت واثقة من أنه سينجو .

فهو قوى .. صبور .. متزن .

وفى وقت ما كادت الأحداث تفقده توازنه .

ولقد همت بأن تسنده .

لأنها تحبه .. وتؤمن به .

ولا تدرى إن كانت اليد التى قدمتها .. قد استطاعت أن تفعل من أجله شيئاً .. أم أنه هو الذى استطاع أن يصلب نفسه .

أم هو الحظ الحسن .. الذى يلازم عظماء الناس .. وهو لا شك واحد منهم !

على أية حال .

لقد مر بالأزمة .. أو مرت به .

ولكن بجروح فى نفسه .. ورضوض فى باطنه .. لا يحسها .. إلا هو .

وبالطبع هى ..

ولا أحد سواهما .. أبداً .. فهى تعرف قدرته على إخفاء آلامه .. قدرة مريعة .. تبلغ حد التعذيب .

ليتها تستطيع أن تشفى جروحه .. وترم رضوضه .. فإن لم تستطع .. فالزمن .. يستطيع ، والنفوس كالأجساد .. لا يبرىء جروحها .. إلا مر الزمن .

وعاد ينظر إليها نظرته الشاردة .. غير الفاحصة .

وابتسمت متسائلة :

— بشائر انتصار ؟!

— أعتقد هذا .

— لعله يريحك !؟.

— إنه أراحنى فعلا .

— لقد بذلت من أجله جهداً كبيراً .

— المفروض أن تكون جهودنا وقوداً يبلغنا أهدافنا .

وضحكت قائلة :

— لقد استهلكت كثيراً من الوقود .

وخرجت من صدره زفرة لم يستطع أن يكتمها .

وكانت أدرى الناس بما يصحب هذه الزفرة من انفعال فى باطنه .

وهمست قائلة :

— ظننت فرحة الانتصار قد برأتك .

وتساءل :

— مم ؟

وهزت رأسها وأجابت :

— لا شىء !!.

ثم حاولت أن تغير الموضوع فسألته :

— أتريد أن أحضر لك الحقيبة ؟..

— أجل .. ضعى فيها أوراق مجلس النواب .. ستعقد جلسة فى مساء الغد ، وسيقتصر الاجتماع على لجنة الشئون الخارجية مع لجنة الشئون العربية بالمجلس المصرى لإعداد قرار الوحدة الذى سيتلى فى الجلسة .. أظن الملف موجوداً فى درج المكتب .

وأجابت فايزة :

— سأضعه فى الحقيبة .

وفى مساء اليوم التالى .. شهد مجلس النواب السورى الجلسة التاريخية المشتركة .. التى حضرها أعضاء وفد الأمة المصرى .. وافتتح الجلسة رئيس المجلس السورى ، ثم ترأس الجلسة رئيس الوفد المصرى وسط عاصفة من الحماس هزت جوانب القاعة العربية .

وبدأ إلقاء البيان التاريخى :

« استجابة لرغبة الشعب العربى .. فى دنيا العرب .. وتحقيقاً لمبادىء الدستورين المصرى والسورى .. بأن شعبيهما إنما هما جزء من الأمة العربية .

« ولما كانت وحدة الأقطار العربية أمنية الأمة الغالية ، كان العمل لتحقيق هذا الهدف السامى المقدس ، واجباً قومياً على كل عربى .. وأمانة فى عنق نواب الشعب العربى .

« وكان الاستعمار يقف عقبة كأداء فى سبيل تحقيق هذه الوحدة ، ويعمل جاهداً على إبقاء الأمة العربية مجزأة مشتتة الشمل .

« وكانت مصر وسورية الشقيقتان قد كافحتا الاستعمار ووطدتا سيادتهما .. وانتهجتا فى سياستهما الخارجية نهجاً حيادياً مستقلا ، بين القوى المتصارعة ، مستوحى من مصالحهما القومية وأهدافهما المشتركة » .

وشرد ذهن سامى .

إن السيادة أساس الوحدة .. والحياد .. طريقها .. والمصلحة القومية هدفها .

هذا هو ما كان يؤمن به دائماً .. وهذا هو ما كافح من أجله .

ولقد نجح .

لقد خاض معركة مريرة .. مع الغير .

ومعركة أمر .. مع نفسه .

لقد كاد ينكص مرة ...

ولكنه استمر .

على حساب مشاعره .

وشرد به ذهنه شروداً أبعد .

أبعد من مجلس النواب .. ومن الوحدة .. ومن كل ماله علاقة بالسياسة .

شرد فيها .. النائية الهاجرة !!

وأحس بألم فى معدته .

أكلما شرد الذهن به إليها .. أحس بقرصة فى باطنه ؟! لقد بات التفكير فيها مريراً .. معذباً .

لماذا جرحته هذا الجرح ؟.

لماذا سببت له كل هذه المرارة ؟

ألأن تلك هى طبيعتها ؟

أم تراه هو .. الأنانى المقصر ؟

أم كانت المسألة كلها .. خطأً لا بد له من أن يجنى ثماره ؟

أياً كانت المسألة .

إنها ما زالت ترسب فى نفسه .. فى أعماقه .. وتسرى فى كل كيانه .

ودوى التصفيق فى القاعة وعلا الهتاف .

وكان عليه أن يصفق ويبتسم .

لقد كان هو أحد عناصر الانتصار .

ومع ذلك لا يشعر كثيراً بحلاوته .

وانتهت الجلسة .

وعاد وحده .. إلى مكتبه .

لم يكد يستقر على مكتبه حتى دخلت عليه « فايزة » وفى يدها ظرف منتفخ .

واقتربت منه فى تؤدة .. وكأنما تحس بما يحويه الظرف .

ومدت يدها إليه به قائلة :

ـــ وصل هذا الصباح .

وقبل أن يمسه .. نظر إليه فى دهشة ، وحملق فى خطه ثم مد يده ، وأطبق عليه !

ونظر إلى « فايزة » نظرته الشاردة ثم قال :

ـــ تستطيعين أن تنصرفى .

وأجابت « فايزة » بنظرة ملؤها الحنان وقالت :

ـــ بل سأنتظر .. لأن لدىّ ما أعمله .

ثم استدارت متجهة إلى الباب .

وأمسك بالظرف برهة .. وقد شرد به الذهن .. ثم فتحه .. وأخرج الأوراق التى به .. وأخذ فى القراءة .

٢

أول لقـاء

« يا أعز الناس ..

أكتب إليك .. لأنبئك قبل كل شيء بأنك مازلت ، وستظل دائماً ، أعز الناس .. أعز من أمى .. ومن إخوتى ، ومن كل مخلوق ربطتنى به صلة على هذه الأرض .

أكتب إليك لأهمس لك كما همست دائماً . أنى أحبك . أعبدك .. وأنك تستطيع أن تشك فى كل شيء فى هذه الدنيا ، عدا شيء واحد هو حبى لك .. ويبدو لى أن هذا يريحك ، ويخفف من آلامك التى قد أكون سببتها لك .. فما زلت أذكر تأكيدك الدائم لى أن كل شيء يهون فى حياتك ما دمت واثقاً من حبى .

ولا أظن حبى لك قد بلغ حداً يستحق معه ثقتك أكثر مما بلغه الآن .

أحبك .. أحبك .. أحبك .

أهمس بها فى همسات ممتعة لذيذة .. ممتعة فى خروجها من شفتى .. لذيذة فى وقعها الخافت على أذنى .

أهمس بها وأنا أعلم أنها ضائعة مع الريح الصافرة .

والمركب يتباعد عن الشاطئ .. ودور بيروت تتضاءل فى الأفق .. والقمم الثلجية تختلط بالسحب البيض .

وأنا أتسلل هاربة من عالمك .. بلا أمل فى عودة .. ولا رجاء فى لقاء .

متكئة على حافة المركب .. شاردة الذهن .. زائغة البصر .. لا أكاد أميز من معالم المدينة والجبال .. سوى رسم واحد .. هو صورتك .. بملامحها

الحزينة .. ونظراتها العاتبة .

ليتك تبتسم .

ليتك تغفر .

لو علمت كم أحبك .. لابتسمت .. وغفرت .

لو علمت .. لما ودعنى طيفك بمثل هذه الملامح الحزينة ، والنظرة العاتبة .. ولما حرمتنى من ابتسامتك الصافية .. ونظراتك اللهفى .

لو علمت .. لغفرت لى .. كما كنت تغفر دائماً .. ولأخذتنى فى صدرك .. وضممتنى إليك ، ومسحت دمعى بشفتيك .

أحلام .. يا حبيبى .. أحلام .

وماذا أملك .. فى رحيلى اليائس .. سوى الأحلام .. والدموع ؟!

الدموع .

الدموع التى لا تجف .

عجيبة .. هذه الدموع !

كل ذكرى .. كل همسة .. أحس بها كأنها يد تعتصر عينى ، وتسكب دمعى .

حتى همستى .. أحبك .. أحبك .

لا أكاد أهمس بها ، حتى أحس بدمعى يسيل على خدى .

أتذكر منديل الدموع .. الذى جففت به دمعى ودمعك ؟

أما زلت تحتفظ به ؟!

كنت تجد فى دموعى عزاءك ، وكنت أجد فى تجفيفك دموعى خير عزاء .

فى وقفتى اليائسة .. أرقب طيفك .. يفلت من يدى ، ليتركنى وحيدة عزلاء ، وتهمى من عينى الدموع . فأفتقد يدك المترفقة ، ومنديلك الحانى ، ولا أملك إلا أن أتركها تنساب ، وتنساب .. حتى أحس بملحها على جانبى شفتىّ .

دعنى أناجيك يا حبيبى .

لا تمل من مناجاتى . فما عدت أملك سوى المناجاة والدموع ، وهمساتك العذبة التى سجلتها فى جهاز التسجيل ، والتى كانت أول دقة فى ناقوس فراقنا .

أشباح المدينة قد أخذت تتلاشى ، والقمم الشاهقة قد طواها الأفق .

والظلمة .. تتسلل من حولى ، والوحشة تزداد .

كل شىء .. من حولى قد تبدد ، حتى طيفك الحزين ونظراتك العاتبة .

وعدت إلى حجرتى فى المركب .

• وجلست على حرف الفراش .. أنصت إلى الدقات المتواترة لمحرك الباخرة ، وأزحت الستار عن النافذة المستديرة ووضعت وجهى على الزجاج السميك ، محملقة فى الفراغ الأزرق القاتم .

وكست أنفاسى الزجاج بطبقة من الضباب .. حجبت عنى أمواج البحر .

وبلا إرادة .. مددت يدى ، وكتبت على ضباب الزجاج بسبابتى « أحبك » .

ومن حيث لا أدرى أيضاً .. انسابت الدموع .. غزيرة دافئة .

أتذكر يا حبيبى !

وقفتك وراء زجاج النافذة .. تطل على النهر والجبال والأشجار ، وأنفاسك تكسو الزجاج بالضباب ؟

وإصبعك تمتد كما امتدت إصبعى .. لتكتب لى فى كل ليلة ، « أحبك .. حتى الموت » .

أنا أحبك الآن حتى « ما بعد الموت » .

إلى هذه الدرجة .. أحس بقوة حبى .. أحس به أقوى من حياتى .

هل يريحك هذا يا حبيبى ؟ لماذا لا تبتسم ؟!

إنى فى حاجة .. إلى تصوّر بسمتك .. وإلى تخيل غفرانك .

لماذا لا أحاول سماعك ؟!

إنى أخشى من همساتك على نفسى .

أخشى الانهيار .. والعودة إلى الارتماء فى أحضانك .

ولكن كيف ؟! والمدينة تتباعد والسفينة تمخر بى عباب اليم ، وأنت تنفلت من حياتى .. ومن أمانىّ ، وأحلامى .. وأنا قد طردت من قلبك .. وحرمت من مشاعرك .

أجل .. يا حبيبى .

لم يعد هناك من خوف عليك من انهيارى .. ولا خشية عليك من رجعتى .. لقد بت بمنجاة منى ، ومن كل ما يمكن أنْ يحيق بك من حبى لك ، وحبك لى .

حبك لى !!

أحب هذه الكلمة .. أحب ترديدها .. وتكرارها .

أحب أن أحس .. أنها ما تزال حقيقة كائنة .. لا وهماً ولا أمنية .

لقد كان حبك لى دائماً .. عزائى عن كل خذلان .. ويأس وحرمان .

ويعزّ علىّ أن أفقده وأنا فى أشد الحاجة إلى العزاء .

كل شىء يمكن أن أحتمله .. إلا أن أفقد حبك .

يمكننى أن أحتمل البعد .. والتشرد .. والحاجة .. والحزن .. وكل أنواع الشقاء ما دمت أحس بأنك مازلت تحبنى .

أما أن أفقدك .. وأفقد حبك .

فذلك هو هلاكى .. وضياعى .

كم أحسست بالخوف من وجهك الحزين .. ونظراتك العاتبة التى رمقتنى بها فى صمت أليم .. فى آخر لقاء لنا .

كم خشيت أن تكون نظرتك الأخيرة خاتمة حبك لى .

حتى لقد كدت أتردد وأتراجع وأنكص على عقبى .

ولكنى تمسكت ببقية من تجلد وبقية من حزم وإيمان .

وتعزّيت بأنى .. إذا كنت قد ظلمت نفسى .. فلا بد أن ينصفنى الزمن .

الزمن .. الطويل .. الطويل .

الذى لا ينصفنا .. إلا بعد أن يكون العظم منا قد وهن.. وبتنا على شفا حفرة النهاية .. و لم تعد بنا من حاجة إلى إنصافه .

وعندما أجلس الآن فى يأسى .. لا أملك إلا أن أسائل نفسى : لماذا أصبر حتى ينصفنى الزمن ؟!

لماذا لا أنصف نفسى .. بنفسى ؟

لماذا لا أجلس لأكتب إليك كل شىء ؟

ولكن هل سأفلح بكتابتى فى إنصاف نفسى ؟

ما هذا « الكل شىء » الذى أستطيع أن أكتبه لكىّ أنصف به نفسى ؟!

ماذا يمكن أن أكتب إليك من جديد ، وأنت تعرف كل سكنة فى حياتى معك و كل حركة ؟!

ربما استطعت أن أفسر لك شيئاً ، أو أعتذر لك عن شىء .

وربما عجزت عن التفسير والاعتذار .

وربما .. بعد كل ما أكتب .. أجدنى فى النهاية ضائعة .. محزونة .. بائسة .

ومع كل ذلك .

أحب أن أكتب إليك ..

أن أحكى لك .. حتى ما تعرف .

ألا تذكر كيف كنا نجلس دائماً .. ليسرد كل منا للآخر كيف التقى بصاحبه .. وكيف رآه لأول مرة ؟ وكيف أحس بحبه ؟

كنا نجد لذة عجيبة .. فى تبادل الذكرى .

و لم أقل لك شيئاً جديداً .. وما قصصت علىّ شيئاً لا أعرفه .

بل كنا نردد أحاديث معادة مكررة .

ومع ذلك كنا نستمتع بها .. بترديدها ، والاستماع إليها .

وبى الآن نفس الرغبة فى مناجاتك ، وفى أن أحدثك عن قصتى معك ..

كيف رأيتك أول مرة .. وكيف أحببتك .

وكيف .. وكيف .. مما تعرف ومالا تعرف .

مناجاة من طرف واحد .

والطرف الآخر ميؤوس من ردّه .

نوع من الهذيان .. أو الجنون .

ليكن .. منذ متى كنت ألزم العقل فى حبى لك ؟!

إن كانت كتابتى لك هذياناً .. أفلا يحتمل هذيانى .. إذا عرفت أن فى ترديده .. تنفيساً عن كربتى ؟ وتفريجاً لهمى ؟

إنى أتلهف على إنصافك .. وعلى حبك .

فإن عزّ علىّ .. أفلا أقل .. من أن أرفه عن نفسى المكروبة بنوع من الهذيان ؟!

المحموم يهذى .. فلا يؤخذ بهذيانه مهما عاب ومهما أساء .

ولست أظننى فى هذيانى سأضر أحداً .. أو أسىء إلى أحد .. فلماذا أحرم نعمة الهذيان .. وأنا فى حال أقسى من حال أى محموم ؟!

وإذا لم تنصف حبى .

فلا أقل من أن تغفر هذيانى .

كيف رأيتك أول مرة ؟

الساعة التاسعة مساء ، ونادى الشرق ، يغص بالمدعوين والاستعداد للسهرة على قدم وساق .. وأنا قد وقفت فى ثلة من أهل الفن والصحافة .

ولمحتك من بعد .. ترمقنى بنظرة فاحصة .. فتتحول عنى برهة .. ثم لا تلبث حتى تعود إلىّ .

وأحسست لك من أول لمحة .. بشىء خاص .

لم أدركنه . ولكنى تمنيت لو اقتربت منى وحدثتنى .

ربما أعجبتنى وسامتك .. بحلتك البيضاء الأنيقة .. ووجهك ذى القسمات النبيلة والملامح الطيبة .

ولم يخيب الله رجائى .. فسرعان ما وجدتك تقترب من ثلتنا .. ووجدتهم يرحبون بك ويهشون لك .. ثم صافحتنى مصافحة صداقة ومعرفة .. وقلت لى فى رقة :

— أنا معجب قديم .. أهنئك على آخر أغنية .. سمعتها لك .

— أحقاً أعجبتك ؟!

— أجل .. ولا سيما مطلعها .. « لا تلم قلبى » .

ولم تكن آخر أغنية .. ولكنى لم أراجعك .. بل حمدت الله .. أنك ذكرت أغنية لى .. ولم تخطئنى فى غيرى .

ولم تطل وقفتك معى .. وسرعان ما افترقنا بعد حديث خاطف .. والتفت إلى جارى وسألته وأنا أشير إليك وأنت تتباعد مختفياً بين حشود المدعوين :

— من يكون ؟

وضحك صاحبى قائلا :

— ألا تعرفينه حقاً ؟!

— أبداً .. وإن كانت ملامحه غير غريبة علىّ .

— إنه الأستاذ سامى كرم .. أحد أقطاب حزب الحرية ، ورئيس تحرير جريدته .. إنه نائب ممتاز .. وهو يعتبر مشروع وزير أو رئيس وزارة .. ألم تسمعى عنه من قبل ؟!

وهززت رأسى متسائلة :

— أهذا هو سامى كرم ؟

— أجل .

— سمعت به طبعاً .. ولكنى كنت أتخيله أكبر من هذا بكثير .

وضحك صاحبى قائلا :

— صلعة .. وبطن .. أليس كذلك ؟!

وأجبته ضاحكة :

— تقريباً .

وعاد صاحبى يضحك قائلا :

— لعله أعجبك ؟!

— إلى حد ما .

— وهو أيضاً .. فيما يبدو لى قد أعجب بك .

— كيف عرفت ؟

— رأيته يرقبك ملياً .. ثم اقتحم الثلة .. ليصل إليك .. لا بد أن هذا احتاج منه جهداً .. فهو إنسان خجول !

وأحسست بارتياح خفى .

سرّنى .. أن تتقدم إلىّ .. وتتكلف فى ذلك جهداً .. فهذا يعنى أنك أحسست لى بشىء .. قد يكون نفس الشىء الذى أحسست لك به .

وطاب لى أن أسترسل مع محدثى فى مزيد من الحديث عنك .

فعدت أتساءل .. وكأن حديثى مجرد إضاعة للوقت :

— هذه أول مرة أراه فى احتفال .

— أجل .. ليس هذا مجاله .. ولو لم يكن حفلا وطنياً لما حضر .

— ولكنه أنبأنى أنه معجب بأغانىّ .

وقبل أن يجيب علىّ .. ما لبثت حتى استدركت قائلة :

— لا تقل إنه يجاملنى .

وضحك صاحبى وأجاب :

— ليست مجاملة صرفة .. إنه مخلوق حساس .. وأشك أنه يستمع أحياناً للغناء والموسيقى .. ولكن فى مجال محدود .. وفى أوقات خاطفة .. إن وقته كله

مشغول بالحزب والسياسة .

وسألته ساخرة :

— وماذا يفعل فى الحزب ؟ بل ماذا يفعل الحزب بأكمله ؟ لا تحاول أن تقنعنى أن الأحزاب والسياسيين يفعلون شيئاً .. إنى أعتقد أن السياسة عمل من ليس له عمل .

وضحك الرجل وأجاب :

— اعتقدى كما تشائين .. ولكن ذلك لا يمنع أنه إنسان له قيمة .. وأنه يحاول أن يحقق لبلدنا انتصارات كبيرة .

— مثل ؟

— قلت إنك لا تفهمين فى السياسة .

— سأحاول الفهم !

— إنه من أشد المؤمنين بالقومية العربية .. والوحدة العربية .

— وماذا يفعل بإيمانه هذا ؟

— إنه شعلة نشاط .. والكثير من الشبان يؤمنون به ، وبكل ما يؤمن به سيلقى غداً محاضرة عن الوحدة . أترغبين فى حضورها ؟

وضحكت وأجبته :

— لم أحضر محاضرة فى حياتى .. وسيضحك الناس علىّ لو عرفوا أن « هدى نور الدين » حضرت محاضرة سياسية !!

ومع ذلك .. حضرت المحاضرة .

كيف ؟!

لقد بحثت عنك فى تلك الليلة حتى عثرت عليك بين الحشود المزدحمة .

وأبديت بعض الدهشة عندما وجدت نفسى فى مواجهتك وكأنى لم أقصد إليك .

وهششت لى .. وعدت تجاملنى معجباً ، وأحسست أنى أحب أن أراك ثانية

وثالثا .. وكنت أعرف من حديث صاحبى أن احتمال وجودك فى مجال أمر متعذر .. إن لم يكن مستحيلا .

ووجدت أن لقاءك وأنت تلقى محاضرتك ، سيكون أمراً مضموناً .. وقد يتيح لنا لقاء آخر .

وسألتك قائلة :

— سمعت أنك ستلقى محاضرة غداً .

وبدا عليك نوع من الزهو فقلت :

— حقاً .. كيف عرفت ؟!

— إنى مهتمة بالوحدة .. والقومية العربية .

وبدت عليك الدهشة وتساءلت :

— حقاً ؟!

— أجل .. وددت لو أتيحت لى الفرصة لسماع محاضرتك غداً .. هل أستطيع أن أحصل على تذكرة دعوة ؟

وبدا عليك كأنك غير مصدق .. وكنت على حق .. أظننى أنا نفسى .. كنت لا أصدق أنى أتوق مرة إلى سماع محاضرة .. أياً كانت وأياً كان ملقيها .

ومع ذلك فقد مددت يدك إلى جيبك وأخرجت بطاقتين وقلت ، وكأن دعوتك مجرد مجاملة :

— لا شك أنه يسعدنى أن تجيئى .. هاتان بطاقتان قد بقيتا معى .

— ولكنى لا أريد أن أحرم صاحبيهما منهما .

وضحكت .

— لا تهتمى بصاحبيهما .. المهم أنك تأتين .

وفى اليوم التالى حضرت فى موعد المحاضرة .. كان الزحام على أشده بطريقة لم تخطر ببالى .. زحام آلفه أنا فى أنجح حفلاتى .

وجلست أرقبك .

ولا أنكر القول .. لم أفهم كلمة مما قلت .. لأنى لم أحاول أن أتتبع ما تقول .

وانتهت المحاضرة .. دون أن تلمحنى أو تلتفت إلىّ .. واختفيت فى حشد من الناس قد التف حولك .

وخرجت من النادى يملؤنى إحساس بالضيق .. فقد تمنيت أن ألقاك ، وأتحدث إليك .. ولكنك لم تلتفت إلىّ . ومنعتنى كرامتى من أن أتجه إليك وألفت نظرك ، وأن أفعل كما تفعل صبية المدارس .

ومرت بضعة أشهر .. وأنت غائب عن بصرى ، وكدت أنساك أو أتناساك .

حتى كان اللقاء الثانى .

٣

بلا أهداف

ألقى سامى الأوراق من يده .. ومال بكتفيه إلى مسند المقعد ، ومد ساقيه فى استرخاء وشرد بذهنه إلى اللقاء الثانى .

كان اللقاء فى فندق بلودان ، عندما ذهب لحضور أحد المؤتمرات العربية .

وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة عندما خرج من قاعة الاجتماعات.. متجهاً إلى البهو ، وفى طريقه التقى بالصحفى « محمود عبيد » .. وقد أقبل من باب الفندق الخارجى تتبعه امرأة جميلة تلف شعرها الأسود « بإيشارب » ، وتحجب عينيها بمنظار أسود .

وتوقف مام الصحفى محييا .. وبدا له أن السيدة الجميلة تسير فى صحبة الصحفى فقد توقفت بجواره ومدّت يدها تصافحه .

وتوقف أمام الصحفى محييا .. وبدا له أن السيدة الجميلة تسير فى صحبة الصحفى فقد توقفت بجواره ومدّت يدها تصافحه .

ومدّ يده مصافحاً دون أن يبدو عليه أنه قد ميزها .. وكأنما ينتظر أن يقوم الصحفى بواجب التعريف بينهما .

وخلعت المنظار الأسود فميز وراءه العينين السوداوين ذواتى الهدب الطويلة .. والخال أسفل الرمش الأيسر .

وبدا عليه الخجل وهو يهتف قائلا :

ـــ مخجل أن أنساك .. فأنا أعيك فى ذاكرتى من صورك حتى قبل أن أراك .

وصمت برهة وهو يحدق فى عينيها ثم استطرد قائلا :

— ولكن الذنب .. ذنب المنظار الأسود الذى حجب أقوى عناصر تمييزك .. وذنب الشمس التى لوّحت وجهك .. فصبغته بهذه السمرة الخوخية .

وضحك « عبيد » وقاطعه قائلا :

— هذه تصريحات خطيرة .. هل أستطيع تسجيلها على لسان سكرتير حزب الحرية ؟!

ورد سامى ضاحكا :

— لا أظن فيها سبقاً صحفياً .. فهذا رأيى منذ زمن طويل .. بل رأى الناس كلهم .

وبدت « هدى » خلال النقاش .. كالتلميذة المرتبكة .. وكست وجهها حمرة خجل .. بدت مستغربة من مطربة تعودت مواقف الغزل وعبارات المديح .

وكانت « هدى » تحس أمامه فعلا كأنها فتاة مراهقة .. كانت كل خبرتها فى معاملة الرجال تتبدد .. وأضحت كأن السنين قد عادت بها القهقرى .. وكأنها التلميذة التى لا تعرف إلا طريق المدرسة .. حيث يدفع غزل الطريق إلى وجهها بحمرة الخجل .

وأحست « هدى » بالنشوة تملأ جوانحها وهى تقف أمامه وتسمع إعجابه ، وبدا لها أن القدر يأبى إلا أن يلقى بكل منهما فى طريق الآخر .. وعزمت على ألا تدع الفرصة تفلت . وكانت تدرك من خبرتها معه ، فى المرتين السابقتين ، أنه مخلوق غير مهاجم .. ولم تكن هى بخير منه .. ولكنها كانت تحس بلهفة عليه .. وكانت تكره أن تضيع منها الفرصة .. ولم تجد بداً من أن تخالف طبيعتها وتقوم هى بالدور الإيجابى .

وقبل أن يمد يده بالتحية قالت متسائلة :

— أتعلم أنى أعجبت جداً بالمحاضرة التى دعوتنى إليها ؟!

— غير معقول .

— ولماذا ؟!

— لأنك لم تسمعيها .

— من قال لك ؟!

— لأنك لم تحضرى .

— بل حضرت .. ولكنك لم تلق إلىّ بالا .

— غير معقول ألا ألقى إليك أنت بالا .. وحولك كل هذا النور .

وضحكت وأجابت :

— عدنا إلى الغزل .. أهو أسلوب الساسة فى معاملة السيدات ؟

وتدخل عبيد قائلا :

— بل هو تأثيرك الشخصى .

— شكراً .. على أية حال لقد أعجبتنى المحاضرة .. بصرف النظر عن مديحك لى .

وابتسم سامى ورد عبيد نيابة عنه :

— إذا كانت المحاضرة قد أعجبتك حقاً .. فقد طبعها مع مجموعة من المحاضرات والأحاديث فى كتابه « آراء فى الحكم والسياسة » ولا أظنه يبخل عليك بنسخة منه .

وأجابت هدى :

— وإن بخل فسأشتريها .

وضحك سامى :

— لم أصل بعد لهذه الدرجة من البخل .. سأحضر لك نسخة .. ولعبيد نسخة أخرى .. اعترافاً بفضله .. فى إتاحة هذا اللقاء لى .

ومد يده للمصافحة .. فمدت يدها ...

واستبقى الاثنان يديهما لحظة وهى تقول :

— كيف سترسلها إلى ؟!

— لو عرفت عنوانك ...

— سأعطيك العنوان ورقم التليفون .

ثم سردتهما . فهز رأسه وقال مؤكداً :

— بمجرد أن تعودى إلى دمشق ستجدين الكتاب عندك .

وضحكت قائلة :

— أخشى أن تكون قد نسيت الرقم .. وأن تنسانى بمجرد أن أفارقك .

وأجابها معاتباً :

— لا تظلمينى .

— لك سابقة !!

— ولكن لن تكون لها لاحقة .. الرقم ١٩٩٧٠ .

وابتسمت فى سعادة .. وردّت فى شبه همس :

— شكراً .

وودع كل منهما صاحبه .. وبنفسه إحساس المقبل على مغامرة ممتعة .. لا يكاد يفكر فى نتائجها .. وإنما هو من مجرد التفكير فيها والإقبال عليها .. فى نشوة ممتعة .

كان كل منهما يحس بأنه يقف على شفا تجربة .. تجربة حب صبيانى ممتع لذيذ .

وانتهى الأمر .. وعاد إلى دمشق .

وطوته موجة أعماله التى لا تنتهى .

اجتماعات مع شباب الحزب .. مناقشات .. وجدل .. ثم التحضير لاجتماعات اللجنة العليا للحزب .. والتوفيق بين التيارات المستترة التى تتقاذفه .. والميول الخفية المتنافرة التى تتجاذبه .. من أقصى الرجعية إلى

أقصى الشيوعية .. وحضور جلسات مجلس النواب .. واجتماعات لجانه .. والإشراف على تحرير جريدة الحزب .. والساعات تمر متعاقبة من الصباح المبكر حتى منتصف الليل .

ومرّ يومان .. ورقم التليفون ما زال منقوشاً فى ذهنه .

و لم يتعجل فى طلبها .. رغم لهفته عليها .. فقد أحس أنه يريد أن يجعل من إهدائها الكتاب فرصة للقائها .. وكان ينتظر فرصة .. يخف فيها الازدحام من حوله .. وكان بطبعه غير عجول .

وفى صباح اليوم الثالث .. أحس بمكتبه قد خلا .

ودق الجرس فأقبلت عليه « فايزة » وقد كست وجهها سيماء الجد الذى تعوّدت أن تكسوه إياه عندما تنهمك فى عملها .

ورمقها سامى بنظرة فاحصة .. ووجد نفسه بلا وعى يعقد مقارنة بينها وبين « هدى » .

وأحس بكفة « هدى » ترجح بشدة .

إن لها إشراقة عجيبة .. و لم يكن مبالغاً أو مغازلا حين قال لها .. إن ثمة ضوءاً يحيط بها .

ومع ذلك .. ما الداعى للمقارنة ؟!

إن « فايزة » لها مكانتها .. ولها كفاءتها .

وليس هناك أبدا ما يبرر إدخالها فى مقاييس من نوع جديد .

ولكن حقاً .. أهو يعتبرها مجرد كفاءة ..؟

ألم يطبق عليها أبداً مقاييس قلبه ومشاعره ...؟

لكى يكون عادلا .. يجب ألا ينكر ذلك .

لقد أعجب بها .. ومنحها من نفسه مكانة خاصة قد يكون لم يعلن عن هذه المكانة .. ولكن لا جدال فى أنها قد أحست بها .. ولا جدال فى أنها قد أنزلته من نفسها مكانة خاصة .

ومن أجل هذا عقد المقارنة .

ومن أجل هذا أيضاً أحس بنوع من الندم .. وهو يجد كفتها تخف .. أمام « هدى » .

ومع ذلك .. لم يملك إلا التسليم بالنتيجة .

وإن كان قد حاول أن يخفف من وقعها .. بإقناع نفسه .. أن هذه شيء وتلك شيء آخر .. وأنه لا وجه أبداً للمقارنة بينهما .

وأن هذه معاونته وسكرتيرته وزميله وصديقته الدائمة .

وتلك .. مغامرة .. لا يظن مداها سيطول .. فلا وقته .. ولا عمله .. ولا مركزه .. ولا طبيعة خلقه .. وحياته .. تسمح بالاندفاع فيها .. إلا لمدى محدود .

وأحس بشيء من الارتياح إلى النتيجة .. بعد هذه المقارنة الخاطفة .. الخادعة .

لقد كان يحس .. أن الطارقة الجديدة قد مست فى باطنه شيئاً أعمق كثيراً .. مما تستطيعه الطارقة العابرة .. التى لا يتوقع معها .. أكثر من مغامرة سريعة .. قصيرة المدى .

ومع ذلك .. لماذا يرهق نفسه فى التحليل والتفكير ؟!

لتكن ما تكون .. وليفعل الله بهما ما يشاء .

المهم أنه يحس بلهفة على رؤيتها .

ونظرت إليه « فايزة » وهى تجده قد شرد بذهنه وتساءلت :

ــ أتريد شيئاً ؟!

ــ أجل .. هل عندك شيء عاجل ؟!

ــ مذكرة لجنة الشئون الخارجية .

ــ سأفحصها بعد الظهر .

ــ والاجتماع مع المحررين ؟!

ــ أجليه للغد .. سأخرج الآن فى موعد .. وربما ذهبت إلى البيت رأساً .. فلا تنتظرينى .

وهزت « فايزة » رأسها وتساءلت :

ــ أستعود فى موعدك بعد الظهر ؟!

ــ أجل ..

وخرجت « فايزة » .. وتناول هو سماعة التليفون وأدار القرص .

ولم تمض لحظة حتى رد عليه صوت .. استطاع بسهولة أن يميزه .. ومع ذلك فلم يشأ أن يتورط .. وتساءل بأدب :

ــ هدى هانم موجودة ؟!

وميزت « هدى » صوته .. وأصابتها رجفة .. لم تدع لها مجالا للحذر .. فهتفت به .. مرحبة :

ــ أهلا .. وسهلا ..

ثم صمتت برهة تمالكت فيها نفسها ، وعادت تقول :

ــ تكلمت أخيراً !!

ــ أكان عندك شك ؟!

ــ تجربتى معك .. لا تبعث على اليقين .

ــ وإحساسك ؟

ــ يملؤنى ثقة .

ــ الإحساس أصدق من التجربة .. ولولا الإحساس ما اندفعت إليك .

ــ أتسمى هذا اندفاعاً ؟!

ــ بالنسبة لى .. أجل ..

ــ متى ستهدينى الكتاب ؟!

ــ الآن .. إذا شئت .

ــ الآن ؟!

ونظرت « هدى » إلى المرآة أمامها .. ومرت بأصابعها تخلل شعرها .. ثم تحسست وجهها .

كانت قد استيقظت منذ لحظات عقب سهرة طويلة .. وأحست بثقل جفنيها وشحوب وجهها .. وتذكرت غزله وإعجابه .. ولم تحس بنفسها الثقة التى تمكنها من لقائه فى هذه اللحظة .. لم يكن بوجهها السمرة الخوخية .. أو الإشراقة والضياء .

ووجدت نفسها — برغم لهفتها على لقائه — تحس بالخوف منه .

وأجابت فى تردد :

ـ ألا يمكن أن نؤجلها .. إلى بعد الظهر .. إنى أنتظر ضيوفاً الآن .

وبمنتهى البساطة أجاب :

— لا أظننى سأجد وقتاً بعد الظهر .. سأرسل لك الكتاب الآن مع السائق .

يرسل الكتاب .

الأحمق الكبير !

أيظنها حقاً .. فى لهفة على كتابه .

وخشيت أن يطول ترددها .. فينهى المحادثة .. ويرسل الكتاب .. وتنتهى المسألة عند هذا الحد .

لا .. لا .. يجب أن تلقاه بأى ثمن .

فإنها ليست على استعداد لفرقة أخرى يعلم الله متى تنتهى .

وهتفت به فى لهفة :

— لا .. لا .. إنى فى انتظارك .. إنى أستطيع تأجيل الزيارة .. إلى ما بعد الظهر .

وأحس بفرحة الطفل يحصل على دميته بمجرد أن يطلبها .. ورد عليها فى نشوة :

— سآتى حالا .. مسافة الطريق .

وكأنما قد بدأ بينهما سباق .. فاختطف الكتاب واندفع من المكتب إلى عربته .

واندفعت هى إلى خادمتها العجوز « أم حبيب » تنبئها أن زائراً سيقدم بعد لحظة ، ثم وقفت أمام الحوض تغسل وجهها فى عجلة ، وانتقت ثوبها الحريرى ذا الورود البنفسجية القاتمة ، والصدر المكشوف والأكتاف العارية .

كان الجو حاراً .. خانقاً .. والنسمة قد جمدت فى الجو .

ووقفت أمام المرآة ترسم شفتيها بالفرشاة الصغيرة ، وتخط بالقلم الأسود شرطتى جفنيها .

وأحست بأنها فى حاجة إلى مزيد من الزينة تعيد إليها ثقتها بنفسها .

وبدت لنفسها كأنها لا تلقى ضيفاً فى الصباح بل تستعد لمواجهة تجربة خطيرة ، وامتحان قاس .

وأحست بألم فى زورها ، كأنه مبادئ برد ، أو أنفلونزا .

وأخذت تجفف العرق المتصبب منها .

لماذا لم تؤجل زيارته إلى ما بعد الظهر .. فلعلها تكون فى حالة أنسب وأفضل ؟!

ولكنه عنيد .. لا يترك لها فرصة للاختيار .

ولقاؤه على أى وجه .. خير من ضياعه .

وألقت على نفسها نظرة أخيرة أعادت الثقة إلى نفسها .. لقد كانت بوجه عام .. جميلة .

ودق الجرس .. وقبل أن تصل « أم حبيب » إلى الباب كانت قد اندفعت هى إلى فتحه .

وهزت أم « حبيب » رأسها .. ومصمصت بشفتيها قائلة :

— ما الحكاية .. علامَ كل هذه اللهفة ؟!

وفتحت « هدى » الباب لتجد « سامى » يقف أمامها .

وواجه كل منهما الآخر .

لا يملأ نفسه .. سوى إحساس ممتع باللقاء .

لا خوف .. ولا حرج .. ولا خشية .

لم يشعر هو أنه يزور مطربة ، معروفة .. ليس هناك أبداً ما يبرر زيارته لها .. حتى ولا إهداؤها كتابه .

ولم تشعر هي أنها تستقبل رجلا غريباً .. ليس هناك ما يمكن أن يربطه بها .. حتى ولا إعجابها بمبادئه ومحاضراته .

ومع ذلك .. فقد أحس كل منهما أنه قد فعل ما يتحتم عليه فعله .. وأن لقاءهما .. كان أمراً مفروضاً عليهما .

وشد كل منهما على يد الآخر في فرحة ولهفة .

ودخلا إلى البهو .

واتخذت مكانها في وسط الأريكة .

وجلس هو على مقعد « فوتيل » بجوارها .

ومضت فترة قبل أن يتخلص كل منهما من الارتباك الذى أصابه .

وتطلع هو إلى لوحة بها « صياد زنجي » ووحوش .. وأشجار .. وتشاغلت هي بتجفيف عرقها .

وتحدثا عن الجو .. وعن أشياء تافهة .

ولم يستمتعا بالحديث قدر استمتاعهما باللقاء ذاته .

كانت جلستهما الأولى ، أشبه بجلسة الصبية العشاق .. بكل ما فيها من ارتباك .. واضطراب .. وحياء . وسخافة حديث .

وأنبأته بأنها تشعر بألم في زورها .

وكما يفعل الصبية .. سألها قائلا :

— هذا يحتم علىّ زيارة ثانية ؟!

وضحكت قائلة :

— لن يشفى من زيارة واحدة .

— وثالثة ورابعة ؟!

— هذا خير ما سيمنحه لى وجع الزور .. ليته يدوم .

— سأزورك دائماً ، ما دمت لا تجدين هناك حاجة لعذر .

وافترقا .. هذه المرة .

وبينهما اتفاق صبيانى .. على مداومة اللقاء .

لم ؟! وكيف ؟! وعلى أى أساس ؟

لم يحاول أحدهما أن يفكر لحظة واحدة .

كل ما يريدانه .. هو أن يرى كل منهما الآخر .

بلا مشروعات .. ولا خطط .. ولا أهداف .

٤

ماذا تريدين ؟

عاود « سامى » زيارة « هدى » .. بحجة الاطمئنان على زورها .

وكان اللقاء مسترقاً .. خاطفا .. وفى كل مرة كان إحساسهما بالحرج يزداد ، وبدأ تفكيرهما فى طريقة أخرى للقاء .. يلح عليهما .

« وأنبأته ذات مرة ، فى سياق الحديث .. أنها تعوّدت أن تذهب إلى بلودان كل يوم جمعة مع بعض صديقاتها خلال الصيف .. وأنها تستحم فى حمام السباحة .. وأنه غالبا يكون خاليا .

ولم يستطع أحد أن يأخذ حديثها على أنه دعوة للقاء .. إنه حقيقة يحب السباحة .. وقد سبق له أن سبح فى هذا الحمام بالذات .. ولكنه لم يخطر بباله أبدا .. أن يذهب للقاء مطربة معروفة مثلها علنا فى حمام سباحة .

والحمام .. مهما كان خاليا .. فلن يعدم بعض نزلاء الفندق ممن يجلسون حوله .. ولن يخلو هؤلاء من واحد واثنين يمكن أن يميزوا أحدَهما أو كليهما معا .. وهما اثنان مشهوران .. لا يستعصى تمييزهما على أحد .

وتصوّر كيف يمكن أن تستغل الخصومة الحزبية .. خبرا كهذا .. وتصوّر ما يمكن أن تحدثه الأقاويل والإشاعات فى نفوس أولئك الشبان الذين يؤمنون به .. كمثل أعلى .. ونموذج طيب .. لا تشوبه شائبة .. ولا تعلق به ذرة غبار .

ومما أكد له أنها دعوة عابرة .. أو كما يقولون « عزومة مراكبية » .. أنه لم يكن من المعقول أن تغامر بلقائه وسط سرب من الصديقات .

وترك حديثها يمر مرورا عابرا .. دون أن يعلّق عليه .

وانتهى اللقاء .

وفى اليوم التالى .. وكان يوم خميس .. كان يجلس فى مكتبه .. ولم يستطع أن يمنع نفسه .. من التفكير فى مصير هذه العلاقة .

ماذا يبغى منها .. وماذا تبغى منه !

إنه آخر من يصلح لكى يكون عشيقا لمطربة .

إنه لا يستطيع أن يمنحها شيئا .. لا نقودا .. ولا جلسات صاخبة .. ولا سهرات حمراً .. ولا نزهات علنية .

إنه يعرف هذا النوع من النساء .. وهى بالذات .. قد سمع عنها كثيرا .

إنها تحتاج لرجل ذى تجارب .. تحتاج لرجل اعتاد السهر ، والسكر .. والعربدة .. لا رجل يضيع ثلاثة أرباع عمره فى كفاح سياسى .. بين قاعات مجلس النواب .. وأروقة الحزب .. ومطبعة الجريدة .

إنها لا شك مخدوعة فيه .

ومن الخير أن يشرح لها حقيقته .

وهى أيضا .. ماذا تستطيع أن تمنحه .. أكثر من الغيرة .. والقلق ، والفضيحة التى لا حد لها !؟

ماذا يريد منها .. وماذا يدفعه إليها !

أهو الغرور الذى يملؤه كرجل .. فضلته امرأة جميلة .. على غيره من الرجال !

جائز .

أهو رغبته العارضة .. فى الاستمتاع بها كامرأة جميلة تقبل عليه !

جائز أيضا .

ولكن أحقا .. هذا هو كل شىء ! ؟

ألم يسبق أن أقبلت عليه امرأة جميلة .. وفضلته على غيره من الرجال ! ؟

قطعا .. حدث .

ومع ذلك فلم يحس لها مثل هذا الشعور .. الجارف .. الطاغى .

إنه بلا شك .. شىء أكثر مما انتهى إليه تحليله .

شيء أقوى من إرادته التى سبق أن صدت عنه الكثير من النزوات ، وردّته عن الكثير من المغامرات ، وحفظته جرا قويا .. مسيطرا .

ودق جرس التليفون .. ورفع السماعة .. وسمع أعذب صوت رددته السماعة فى أذنيه :

— صباح الخير .

— صباح النور .

— مشغول ؟

— أبدا .

وكان حديثها .. أو موعدها .. ينحى أمامه .. أى نوع من أنواع العمل .

وعاد صوتها العذب يردد :

— لقد غنيت أمس بالإذاعة .

— الساعة كم ؟

— العاشرة ، ووددت لو سمعتنى .. فقد أحسست لأول مرة أننى أغَنى لإنسان ما .. وأن صوتى لا يتبدد فى الهواء .

— صوتك لا يتبدد أبدا .. إن آلاف الآذان تلتقطه وتحفظه .

— وددت لو أن أذنا واحدة التقطته وحفظته .

وضحك قائلا :

— سيحفظه من الآن .. قلب .. لا أذن .

— أحب غزلك .

— إنه حقيقة لا غزل .

— أين ستذهب غدا ؟

— لا أعرف بعد .

— سأذهب أنا إلى بلودان .

وتردد برهة .. فلم يعرف بم يجيب .. أترى قولها خبرا .. أم دعوة ؟

وأخيرا قال :

— أغلب ظنى أنى سأتناول الغداء مع « سليم جبرى » فى نادى الشرق .

وأحست بضيق .

لماذا يأبى أن يفهم ؟! لماذا لا يتحرك تجاهها مرة واحدة ؟! لماذا يصر على أن تجره دائما ؟!

وكانت تحس بلهفة عليه .. بلهفة تدفعها إلى الاستمرار فى تصرفاتها الإيجابية .. فقالت له :

— ألا تستطيع أن تأتى إلى بلودان ؟

هذه المرة .. لم يكن فى الدعوة شك .

لم يعد هناك مجال لتردد .. أيًا كانت النتائج فلا يمكن أن يرد دعوتها .

وأجاب ضاحكا :

— سآتى .. وأمرى إلى الله .

وصدمتها لهجة الرد .. وأحست أن كبرياءها قد خدشت ، فردت عليه فى ضيق :

— لا داعى لأن تترك أمرك لله .. ليس هناك ما يكرهك على المجىء .

وأحس بالندم على قوله وأجاب مؤكدا :

— لم أقصد أبدا .. أنى سآتى مكرها .. كل ما هنالك أنى اعتقدت أنه لن تكون هناك فرصة طيبة للقائك مع وجود صديقاتك ، وزحمة نزلاء الفندق .

— لن يكون معى أحد ، وإذا كنت تخشى أن يراك ...

وقاطعها قائلا :

— لن أخشى شيئا ، سآتى لك .

— سأكون هناك فى الحادية عشرة .

— سأكون هناك قبل هذا الموعد .

وفى تلك الليلة ، لم يكد ينتهى من مراجعة آخر صفحة فى الجريدة ، حتى استقل عربته .. وبدل أن يتجه إلى بيته أمر السائق بالاتجاه إلى بلودان .

وبات ليلته فى الفندق .

واستيقظ فى الصباح ، يملأ نفسه إحساس عجيب بالحياة .

إحساس الطفل ينتظر متعة .

شىء ما بدأ فى حياته ، جعله يترقب وينتظر ، ويتلهف .

شىء ما ، منحه إحساسا بالراحة فى طريقه الملىء بالعمل والجهد والمشقة والعدْو ، والسباق مع الزمن .

شىء ما ، منحه ، أملا أحلى قليلا ، من آمال الكفاح ، والصراع ، والانتصارات السياسية .

شىء ما ، جعل لوجوده ، وتفكيره ، حلاوة جميلة ، وطعما مخصوصا .

شىء ما ، جعله يفتح النافذة ، ليستقبل نسيم الصبح ، ويلقى ببصره عبر المنحدرات الخضر ، والوديان العريضة ، ليصل إلى القمم البيض التى تبدو فى أقصى الأفق ، مختلطة بالسحب ، متشابكة مع زرقة السماء .

شىء ما جعله يحس .. أن إنسانا آخر .. يعيش داخل الإنسان المكافح المناضل .. إنسانا آخر ، بباطنه شىء يذوب من فرط الرقة والحساسية ، إنسانا آخر ، أقل اتزانا ورويّة ، وأكثر نزقا .. وطيشا .

إنسانا آخر ، يريد أن يعدو ، ويغنى ، ويلعب ، ويفعل الأشياء التى كان يفعلها بسهولة منذ سنوات خلت ، قبل أن يشعر بمسئوليته أمام الناس .

ومد يده ، يفتح الراديو .

لقد تمنى أن يسمع صوتها .

ولكن الراديو خذله ، وأذاع نشرة أخبار .

وفيما مضى كان يعتبر نشرة الأخبار ، أهم ما يمكن سماعه . ولكن الإنسان الطائش النزق ، الذى صحا فى باطنه ، سرعان ما أسكت صوت المذيع .. وهبط يعدو .. بالقميص وبالبنطلون ، إلى قاعة الفندق .

وتناول الإفطار ، ولم يطق الجلوس ، فاندفع بين الرُّبا الخضر المحيطة بالفندق .

ودار دورة واسعة حول حمام السباحة ، ثم عاد إلى طريق الحمام ، وأخذ يرقب المياه الزرقاء الصافية .. وكان الحمام خاليا .. لا أثر فيه لمخلوق .. وكانت الساعة لم تبلغ بعد العاشرة .

وأحس « سامى » ببطء الوقت ، وهو الذى كان يتمنى لو أوقف الساعة ، حتى يجد لنفسه فسحة ، فى زحمة أعماله .

وعاد إلى حجرته .

واستلقى على فراشه برهة .. ثم قفز .. مرة أخرى .. ووقف يرقب الحمام من النافذة .

ولم تطل وقفته ، إذ بدا له شبحها يقترب من الحمام ، فاندفع يغادر الحجرة فى حماقة الصبية .

وبعد لحظات ، كان يسبح وإياها فى مياه الحمام .

وأحس كلاهما بطمأنينة ، وهما يجدان الحمام ، كأنه بركة خاصة بهما .

وجلس كلاهما على حافة الحوض .

يملؤهما إحساس بنشوة عجيبة .. جعلتهما يغفلان كل تفكير فى خشية أو حذر .

وصمت لحظة ، وهو يرقبها ، وقد شرد به الذهن .

وقالت متسائلة ، كأنما تحاول أن تستدعيَه من شروده :

— فيمَ شردت ؟

— فيك .

— كيف ؟

— لست أدرى .. لماذا أحسُّ بك كصبية مراهقة تمارس أول تجربة حب !؟

— وماذا تنكر من إحساسك ؟

— إنك لست كذلك ، أو هذا على الأقل ما كنت أتوهمه .

— كيف ؟

— كنت أتوهم دائما ، أنك امرأة قديرة .. تعرفين كيف تعاملين الرجال ، بلا حياء ولا ارتباك .

— قد أكون هكذا مع غيرك .

— وكنت أتوهمك لا تنامين قبل الفجر .. لا تغادر الكأس يدك .

واستغرقت فى الضحك ، وقالت :

— وماذا أيضا ؟

— وكنت أحس أنى سأجد حولك زحمة .

وعادت تستغرق فى الضحك أكثر .. وقالت فى صوتها الحلو :

— أنا لست عربيدة ، كما تظن .. إن حياتى ، بسيطة جدا .. لا أشرب إلا إذا اضطرتنى المناسبة ، وكأسا واحدة ، من باب المجاملة ، ولا أتأخر عن البيت بعد أن تنتهى أغنيتى على المسرح .. وبقية حياتى ، جلوس فى البيت أو ذهاب إلى السينما .. أو زيارة لبعض الأصدقاء .. هذه هى حقيقتى . ما رأيك ؟ .. أتصرّ على أنى عربيدة ؟

وهز « سامى » رأسه وأجاب فى شىء من الشرود :

— عجيبة !!

وهبت نسمة باردة .. وأحس بها ترتجف ، فقال وهو ينهض :

— هيا نرتدى ملابسنا ونقوم بجولة حول الحمام .

وارتدى كل منهما ملابسه .. وسارا فى المنحدرات الخضر المحيطة بالحمام .
ثم استقر بهما المقام على قطعة حجر مستوية كالمقعد .. وبدا كل منهما شارد الذهن .. صامتا .

وفجأة .. أطلق هو السؤال الذى كان يحير ذهنه .

قال متسائلا :

— ماذا تريدين منى ؟

وفاجأها السؤال .. وكاد معناه المباشر يثيرها .. وكادت تجيب عليه غاضبة :

— وأى شىء تملك أنت ؟!

ولكنها أحست .. بما يقصده من سؤاله .

إنه حائر .. لا يعرف ما يستطيع أن يمنحها .. إنه يتخيل أن مثلها .. لا بد أن تريد شيئا .

مالا .. جاها .. شهرة .

شىء ما .. لا بد أن يؤخذ كثمن لعلاقة .

وهو لا يملك من كل هذا شيئا .

فهى تعرف أن دخله محدود .. ووقته محدود .. ومركزه وسمعته .. لن تجعلاها تتمتع بجاه .. ولا مركز .. أو بأى ثمن يمكن أن تمنحه إياها .. علانية العلاقة بينهما .

إنه لا يملك إذن .. المقابل .. السرى .. ولا يستطيع أن يمنح المقابل العلنى .. ومع ذلك لم تشعر لحظة واحدة .. فى إحساسها له .. ولهفتها عليه .. أنها تريد شيئا من هذا كله ، أو أنها تخشى أن تفتقده فيه .. وتحرم منه .

إنها تريد منه شيئا واحدا .. وفى صوت خافت وجدت نفسها تهمس بذلك الشىء :

— أريد حبك .

وأحس بأنها قد نطقت الكلمة الوحيدة التى يتلهف عليها ، وأنها طلبت الشىء الوحيد .. الذى يستطيع أن يمنحها إياه بإخلاص .. وإغداق .

ولم تعرف هى كيف نطقت الكلمة .

لم تكن تقصد أبدا .. أن تعترف بحبه .. أو تدخل معه فى مناجاة .

ولكنها أحست ببساطة أن هذا هو ما تريده فعلا .

ولم يكن يعرف عن نفسه قدرة على المناجاة ، وكان أكثر ما يعجزه دائما .. هو نطق ألفاظ الحب .

ومع ذلك فقد وجد نفسه يجيب ببساطة :

— سأحبك .. دائما .. دائما .

وأحست من قوله .. إخلاصا عجيبا .. ملأها بالسكينة والراحة .. وقبل أن تجيبه أحست بوقع أقدام تدوس الأعشاب .

والتفتت وراءها .. وبدا عليها الارتباك .. وسرعان ما حولت وجهها إليه .

وسألها سامى :

— ما بالك ؟!

— أبدا .. يبدو لى أنه شخص أعرفه .. ولست أريد أن يرانا أحد .. لأنى أكره أن يمسك أحد .

وصمتت برهة ثم سألته :

— هل يقترب منا .. أم يتجه إلى الفندق ؟

ورفع « سامى » رأسه فرأى رجلا كهلا يتباعد فى الممر إلى باب الفندق الخلفى .

— بل يتجه إلى الفندق .

— صِفْه لى .

وحقق « سامى » النظر منه واحتار كيف يصفه :

— طويل القامة .. أبيض الشعر .. أحمر الوجه .. يرتدى بدلة كحلية .

وصمت برهة ثم قال :

— لست أعرف كيف أصفه أكثر من هذا .. لماذا لا تنظرين إليه وتتحققين منه ؟

— لا أريد أن يرانى .

وأخذ « سامى » يتتبع الرجل فى شىء من الضيق والدهشة .. ورآه يستدير فجأة ويغير اتجاهه .. ويقبل عليهما . فهتف بها :

— إنه قادم .

وزاد ارتباك « هدى » .. ثم رفعت كتفها فى هزة استهتار وقالت :

— ليأت .

واقترب الرجل .. وحياها .. وقامت هى بواجب التعريف .. فى غير اضطراب .

وجلس الرجل بجوارهما على حجر آخر .. ولم يبد لسامى .. كثير ترحيب .. وجرت بينهما مناقشة .. عادية .. سألها :

— ألم تأت هناء معك ؟

— لا .

— ظننتكما على موعد هنا .

— كان المفروض أن نحضر سويا .. ولكن حدث ما اضطرنى إلى التخلف فاعتذرت .. ثم زال العذر .. وحاولت أن أتصل بها فلم أفلح .. فاضطررت إلى المجىء وحدى .. وقد لقيت الأستاذ سامى صدفة .

وأحس « سامى » من حديثها أنها تعتذر للرجل .. وأحس أن له عليها حق الاعتذار .

وضايقه الأمر .

ولكنه لم يملك سوى الصمت .

ولم تطل جلسة الرجل .

وكما حيا .. بغير صداقة .. ودع بغير صداقة .

ولم تبد « هدى » .. أى نوع من أنواع الانفعال .

وكان عليها أن تقول عن الرجل كلمة توضيحية .. فقالتها .. بأشد الطرق اختصارا :

— إنه رياض بك عبد الدايم ، كان صديق أبى دائما .. إنه يملك مزارع واسعة فى غوطة دمشق .. وعندما مات أبى عشت فى بيتهم برهة .. قبل أن أحترف الغناء .. وابنته « هناء » من أعز صديقاتى .. إنى أشعر دائما بجميلهم علىّ .. وهم أناس طيبون كرماء .. وقد كان مفروضا أن آتى هنا مع ابنته « هناء » .. ولكنى اعتذرت لها من أجلك .. ولم يخطر ببالى أنه سيكون هنا .

— على أية حال .. لقد عرفت كيف تعتذرين له .. وإن كنت أشك فى أنه اقتنع .

وقلبت « هدى » شفتها السفلى وقالت باستهتار :

— يقتنع أو لا يقتنع .. أنا حرّة فى أن آتى مع من أشاء .

وصمتت برهة ثم رفعت إليه نظرة فاحصة وتساءلت فى شيء من الخشية :

— هل ضايقك شيء ؟!

وهز رأسه ثانية :

— أبدا .

ولم يكن فى قوله صادقا .

لم تكن أول مرة يسمع فيها عن الرجل .. لقد سبق أن سمع باسمه مقترنا باسمها .

ولم يعرف بالضبط مدى العلاقة بينهما .

وإن كان أراحه إلى حد ما .. إحساسه بأن الرجل لا يمكن أن يكون خصما له .

٥

يد فى جمر

جلس « سامى » فى مكتبه وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء .. و « فايزة » تقف أمامه حاملة التجربة المطبعية لمقاله الافتتاحى ، وبجواره جلس صديقه سليم والنائب فؤاد عبد الجبار ذو الميول الشيوعية .

ووضع سامى التجربة أمامه وقال لفايزة :

— أتريدين الانصراف .. أم ستنتظرين حتى أوصلك ؟

— أنتظرك .. إن لم تكن تنوى التأخير !

— لا .. لن أمكث طويلا .

وعادت « فايزة » إلى مكتبها .. وأمسك سامى بالمقال يتصفحه .

وقال سليم :

— فيمَ كتبت ؟

— كتبت عن اضطراب مفاهيم الأمريكان للقوى الدافعة فى البلاد العربية ، وخلطهم بين القوى العربية والقوى الشيوعية .

ورفع فؤاد حاجبيه .. وتساءل فى شبه استنكار :

— وأى فارق عندنا بين القوتين ؟

— فارق .. فى الجذور والفروع .. فارق فى الوسائل والنوايا .. فارق فى الطرق والأهداف .

— أبَعْد كل هذه النوايا الطيبة والمعاونات التى قدمتها الدول الشيوعية للعرب تأييدا لهم ضد المستعمر .. ما زلنا نسيء النية بالشيوعيين ؟

— ليس هناك سوء نية .. وإنما حسن فهم .

— حسن فهم لماذا ؟! أنت تعرف أن الدول الشيوعية قد عززت القوى القومية .. دائما .. وأنهما قد اندمجتا فى الاتجاهات والأهداف .

— إلى متى ؟!

— إلى ما لا نهاية آ

— تقصد إلى أن يرتمى العرب فى أحضان الشيوعية .. وتصبح البلا العربية .. إحدى مناطق النفوذ الشيوعى !

— الشيوعية تقف إلى جانب كل مكافح من أجل حريته حتى يستخلصها .. من براثن الاستعمار .

— ويسلمها لها ؟

— أقوالك مسممة .. أنت تسمم أفكار الوطنيين .

— إنما أعبر عن أفكارى أنا .

— يجب ألا نكفر بتأييد أصدقائنا .. الذين يعملون معنا من أجل الحري والسلام .

— أنا لم أكفر بهم أبدا .. وأكون غبيا .. إن رفضت اليد الممدودة إلىّ .. لتعاوننى فى فك وثاق .. ولكنى أكون أكثر غباء إن استسلمت لها حتى تشدن بوثاق جديد .

— ولكنها لا تهددك بوثاق جديد .. إنما تمنحك العون بلا ثمن .

— لا تكن غبيا .. ليس هناك شيء بلا ثمن .

— ما هو الثمن إذن الذى قبضته منا الشيوعية ؟!

— الموقف الحيادى .. مجرد ابتعادنا عن الغرب .. وتحررنا من تبعيته .. وامتلاكنا حرية التصرف فى سياستنا .

— هذا ربح لنا .

— ولهم أيضا .

— كيف ؟

— وضعهم فى المعاملة على قدم المساواة مع الغرب بعد أن كنا نتبع الغرب فى خصومته لهم .. ألا تعتبر هذا ربحا لهم ؟

— ولكننا لم نغرم فيها شيئا .. بل حققنا به حريتنا وحيادنا .

— ومن أجل هذا سلمنا به .. لقد اعتبرناه ربحا مشتركا .

— لماذا إذن تحاول التفرقة بين القومية والشيوعية ؟

— لأن القومية .. تعرف أن مصلحتنا .. أن نقف عند الحياد الفعلى .. والشيوعية تعرف أن مصلحتها ألا نقف حتى نرتمى فى أحضانها .. وستظل القوّتان تعملان فى اتجاه واحد ، حتى يتحقق لنا الحياد .. فتكشف عن أوراقها .. وتطلب منا المزيد من الثمن .

— أوهام .. وتشكيك فى نوايا أصدقائنا .. هذا كلام لا يصح قوله .

— لا يصح قوله منك لأنك تؤمن بالشيوعية أكثر مما تؤمن بالقومية .

— ولِمَ لا .. وأنا أرى فيها وسيلة لإنقاذ مجتمعنا ؟

— بل وسيلة لاستعبادنا ، وإدخالنا وراء قضبان جديدة . نحن نعرف طريقنا جيدا ، ولن يكون هو الشيوعية أبدا .. إننا يجب أن نفرق بين تعاوننا مع الاتحاد السوفيتى وصداقته وبين التبعية الشيوعية التى لا يمكن أن نسلم بها أبدا .

وتدخل سليم قائلا :

— لا داعى لكل هذا الجدل الآن .. ما دام كل منا متفقا على أن الشيوعية الآن تعمل مع القومية فى اتجاه واحد .. فلماذا لا نؤجل الخلاف ، حتى تختلف القوتان .

وأجاب سامى :

— إنى أحب دائما أن أوضح الحقائق .

ورد سليم :

— الحقائق .. ستوضح نفسها فى الوقت الملائم .

— لا أحب أن نؤخذ على غِرّة .

— لا تخف .. نحن دائما نقف على أقدامنا .. ونعرف طريقنا .

وضحك فؤاد ساخرا وقال وهو يمد يده مودعا :

— أحمقان .. إن طريقنا واحد .. إن الشيوعية طريق الحرية والسلام .

وأجابه سامى :

— سل دول الستار الحديدى .. سل المجر ، وتشيكوسلوفاكيا .

ورد فؤاد :

— لا تتحدث بلسان المستعمر الأمريكى .. هذه كلها دعايات غربية .

— وآلاف القتلى فى المجر ؟

— إشاعة .

وخرج فؤاد .. وقال سليم لسامى :

— مناقشتك معه عبث .. لماذا تضيع وقتك ؟

— إنى أعرف أنه يؤيدنا الآن .. لأن اتجاهنا يتفق مع الشيوعية .. ويوم أن نختلف .. سيكون أول من يتنكب طريقنا .. ويحمل علينا .

وأمسك سامى بتجربة المقال لمراجعته .

وبعد برهة دق الجرس مناديا « فايزة » .

وأقبلت « فايزة » .. فمدّ يده إليها بالمقال ، وقبل أن ينطق بكلمة دق جرس التليفون .

ورفع السماعة قائلا :

— هالو .

وفوجئ .. بأعذب الأصوات .. يهتف به فى صوت خفيض :

— سامى ؟

وأجاب بتحفظ :

— مساء الخير .

— مساء النور .. يبدو أن عندك أحدا ؟

— أجل .

— إنى أحدثك من المسرح .. سأنتهى بعد نصف ساعة . هل أستطيع أن أراك ؟

ونظر سامى إلى سليم وفايزة .. محاولا أن يستطلع مدى إدراكهما لحقيقة المتحدث .

ووجد « فايزة » قد أرخت بصرها .. وتشاغلت بتطبيق المقال ، وأخذ سليم يقلب إحدى الصحف .. وكأن كلا منهما لا يعنيه شىء من الحديث .

وحاول سامى أن تكون ردوده مقتضبة لا يفهم منها شىء فتساءل :

— أين ؟!

— نخرج بالعربة إلى جبل « قاسيون » أو إلى طريق دمر .

وصمت سامى برهة يفكر .

أمن الصواب أن يخرج وإياها فى عربة .. حقيقة أن الوقت منتصف الليل .. والطرقات خالية .

ولكن أيخلو الأمر من إنسان يراهما سويا .. فى العربة .

وبعدها .. تنتشر الإشاعة .

ولكن .. مَن هذا الذى يمكنه أن يراهما فى هذا الوقت .. ومَن يستطيع أن يميزهما .. فى ظلمة العربة وسرعتها الخاطفة .

وكان يحس بلهفة على رؤيتها .. لهفة تجعل الحرص .. والتفكير المتزن ضعيف الحجة .. قليل الصمود .. ولم يستغرق قراره أكثر من لحظة أجاب بعدها :

— أجل .

— سأنتظرك فى أول الساحة .. عند نهاية شارع برمانة .

— سأحضر .

ووضع السماعة .

ورغم أنه لم يقل فى حديثه أكثر من أجل وأين وحاضر .

إلا أنه أحس كأن مراقبيه .: قد اكتشفا أمره . وكان عليه أن يقول شيئا ، يف
به الحديث ويحاول إقناع مراقبيه ببراءة نواياه .. وبدا الأمر مستعصيا ع
والتفسير مضحكا فصمت .. وعدل عن الشرح والتفسير .

ونظر إلى الساعة .. قائلا لفايزة :

ــ سأضطر إلى التأخر .. يمكنك أن تأخذي العربة لتوصيلك .
ترسلينها لى .

ــ لا أريد تعطيلك .. إنى أستطيع أن أعود إلى البيت بأى وسيلة .

ــ لن يكون هناك تعطيل .. ما زال أمامى نصف ساعة على الموعد .

وفى سكون .. ألقت فايزة تحية المساء وانصرفت .

ورفع سليم عينيه عن الصحيفة ونظر إلى سامى .. وحاول سامى التهرب
نظرته .. والعودة إلى الحديث عن الشيوعية .

ولكن سليم تساءل فى إصرار :

ــ من الذى حدثك فى التليفون ؟!

ــ لماذا تسأل ؟!

ــ هدى ؟

وأحس سامى من سؤال سليم بما يشبه اللسعة .

لم يتخيل أبدا .. أن سليم قد عرف الحقيقة إلى هذا الحد .

وقال سامى وهو يحدق فى سليم :

ــ لماذا قلت هذا الاسم بالذات ؟!

وقذف سليم بالصحيفة من يده وقال فى لهجة حادة حازمة :

ــ ألم تكونا معا يوم الجمعة فى بلودان ؟

ــ لقاء عابر .

وهز سليم رأسه فى أسف وقال :

ــ اسمع يا سامى .. أنت تعرف مدى حبى لك .. وإيمانى بك .. أنت عند

شيء أكثر من صديق أعتز بصداقته .. إنك شيء أكثر من الإنسان القويم الخلق ..
اللطيف المعشر .. إنك فى نظرى مشروع ناجح .. إنك أمل كبير .. إنك تباشير
انتصار .. أكره أن يوأد فى مهده ويذبل فى منبته .

ــ لماذا تقول كل هذا ؟!

ــ لأنى أخشى عليك .. من علاقة .. كعلاقتك بهدى ، أنا أعرف أنها مخلوقة
لطيفة .. جميلة جذابة ، وتصلح عشيقة مثالية .. ولكن ليس لك أنت .. إن أمركا
لا يمكن أن يخفى على أحد .. أنت معروف وهى معروفة ، ثم إنها إنسانة متقلبة لا
قلب لها .. إنها لا تقبل على إنسان إلا لمنفعة .. إنها على علاقة برجل فى مثل سن
أبيها ، هو « رياض عبد الدايم » .. وغير معقول أن تكون قد أحبته .. ولكنها
أحبت نقوده ، وعندما تقبل عليك لابد أن يكون لها عندك شيء .

ــ عندى أنا ؟! ماذا يمكن أن تجد عندى ؟

ــ مصلحة .. أو فائدة .. لا تتخيل أبدا أنها تحبك من أجل نفسك .. أنا لا
أحذرك منها هى بالذات .. إنما أحذرك أن تكون على علاقة بامرأة عامة ، أنا لا
أنكر عليك الحب ، ولا أنكر أن تكون لك علاقة ما .. ولكن ليس بمثل هذا النوع
من النساء ، أنت لا تقدر عليها ، ومصيرك معها لا يمكن أن ينتهى إلى خير ، وليس
من حقك أن تحطم نفسك .. لأنك لا تملك نفسك .. إنك رمز رائع لآلاف
الشباب الذين يؤمنون بمبادئك .. إنهم ينظرون إليك كمثل أعلى .. ويؤمنون
بكل ما تؤمن به .. ويقتنعون بكل ما تقتنع به .. وأنت إنسان مخلص مثابر
مستقيم .. سليم المبادئ .. صافى الذهن ، شديد الجَلَد ، وهذه الأشياء الطيبة لا
نجدها بسهولة ، فلماذا تزعزع ثقتهم فيك وإيمانهم بك ؟!

وهز سامى رأسه فى دهشة وقال مستنكرا :

ــ لِمَ تقول كل هذا ؟! إنى لم أفعل شيئا يستحق هذا اللوم .. أنا لم أرها إلا مرة
أو مرتين .. ثم إنى لست أبله .. حتى أسلم نفسى لأى إنسان كى يستغلنى
ويخدعنى .

— إنى فقط أردت تحذيرك .. فأنا أكره أن تحطم هذا المشروع الناجح
حماقة .. أو نزوة .

— لا تخشَ علىّ .. أنا لم أرتكب أبدا .. حماقات ولا نزوات .. أنا أعرف
بالضبط ما أفعل ، وأفعله عن عقل ، وتفكير .

ونهض سليم واقترب من سامى وضمه بذراعيه وقال له :

— لا تتضايق منى .. كان لا بد لى أن أقول ما قلت .. لأنى أحبك .. وآمل
منك أشياء كثيرة .

وانصرف سليم .

ووقف سامى وحيدا فى غرفته ، وقد اضطربت مشاعره ، واختلطت أفكاره

لقد هزّ تحذير سليم .. صورة « هدى » فى نفسه .

هزّها إلى حد ما .. أو بالتحديد إلى حد الحذر والقلق .

ولكن ليس إلى حد الانصراف والزهد .

لقد كان سامى .. يترك لنفسه دائما ولاقتناعه الشخصى سلطة التقدير
والبت .

لم يحاول أبدا .. أن يتخذ قرارا فى حياته .. نتيجة لإيحاء الغير .. أو نصحه .. أو
تحذيره .

كان لا ينصرف عن الجحر .. حتى يلدغ مرة .

وأحيانا مرتين .

ولكنه كان دائما .. يعرف أنه جحر .. وأنه قد يلدغ منه .. إنه لا يترك لنفسه
فرصة الخديعة ، ولكنه يعرضها لقسوة التجربة .

ونظر إلى الساعة ثم مد يده قلقا فأطفأ نور المكتب ، واتجه إلى الطريق .

ووجد السائق ينتظر داخل العربة .. فسأله :

— هل أوصلت الست فايزة ؟!

وهزّ السائق رأسه بالنفى قائلا :

— لقد رأيتها تخرج ولم تطلب منى أن أوصلها .

وأحس سامى .. أن شيئا ما قد رسب فى نفس « فايزة » ، وضايقه الأمر .

ولكنه لم يملك إلا أن يضيفه إلى الضيق الذى أصابه من حديث سليم .

كان عازما على السير فى التجربة .

مصرّا على أن يكون هو الذى يقرر موعد انتهائها .

وسارت به العربة فى شارع برمانة .

كان الشارع خاليا .. ونسمة الليل الباردة تهب من نافذة العربة .. وأضواء
بيوت المهاجرين تتلألأ على سفح الجبل .

وطلب سامى من السائق أن يتوقف ، وهبط من العربة قائلا :

— انصرف أنت .. وسأعود وحدى .

ولم يفهم السائق بسهولة ما يريد سامى .. لم يعرف أين سيذهب .. ولماذا
ينصرف هو ! ولماذا يعود وحده ! وكيف ؟

ولم يكن توقفه أمام بيت معين معروف .

ووقف السائق برهة . وعاد سامى يؤكد له :

— قلت لك عُد .. ضع العربة فى الجراج .. واذهب إلى بيتك .. وسأعود أنا .

وتساءل السائق :

— وغدا ؟

— تأتى إلىّ كعادتك .

وأدار السائق العربة .. وعاد أدراجه .. ولمح سامى يسير وحده فى الطريق ..
متجها إلى الساحة .

وتوقف سامى قرب الساحة . ونظر حوله فلم يلمح عربتها .

وسار الهوينى على الرصيف .

وملأه إحساس بالدهشة من نفسه ، ومما هو مقدم عليه .

أكان يخطر بباله أن يقف على رصيف الطريق فى منتصف الليل لينتظر امرأة فى
عربة ؟!

لو قال له أحد ذلك .. لاعتبرها سخرية .

ومع ذلك يفعلها ببساطة .

يجب علينا ألا نستبعد على أنفسنا .. شيئا مهما كان استنكارنا له .. فليس أقدر على الظروف من تهيئته لنا وتهيئتنا له .. ثم دفعنا إليه .. ببساطة وسهولة تجعلنا نعجب كيف كنا نستنكره ونستبعد الإقدام عليه .

ولم يطل به القلق .. حتى لمح عربتها الزرقاء تتواتر عليها مصابيح الطريق . ولم تكد العربة تبلغ مكانه حتى توقفت .

ومد يده ففتح الباب .. واتخذ مكانه بجوارها فى صمت .

ودون أن تنبس بكلمة .. اندفعت تطوى الطريق المظلم .

ونظر إلى جانب وجهها .. وأحس بأنفاسها تتلاحق .. كأنها تعدو على قدميها .

ولم يدرك أن أنفاسه هو الآخر تتلاحق حتى همس بها :

— إلى أين ؟

وبين أنفاسها اللاهثة .. وعينيها المتلألئتين .. هتفت فى صوتها العذب ولهجتها الدافئة :

— لا أدرى .. أردت فقط .. أن أراك .

٦

إشراقة حب

توقفت العربة بالعاشقين على سفح جبل قاسيون ، وبدت دمشق أسفل الجبل ، بأضوائها الخافتة المتناثرة .. وشجر الصبار يتناثر على السفح .. ومن ورائه بدت أشباح المآذن .. تتعالى شاحبة فى ظلمة الأفق .. وعلى الطريق السفلى امتدت أشجار الحور كأنها أشباح الحراس على الطريق .

وسكون الليل قد سرى بين حنايا الجبل .. فكادت هبّة الأنفاس تسمع .

وبين آونة وأخرى يقطع السكون صوت عربة صاعدة ، تغمر الطريق بأنوارها .. ولا تلبث أن تستدير .. وتهدأ .. وتغرق فى الظلمة .

واستقر كل منهما على مقعده محملقا من وراء زجاج العربة فى ظلمات الوادى الصامت المنبسط .

ومد يده فتحسس يدها .

وتركت يدها مستسلمة فى يده .

وتواترت على ذهنه .. تحذيرات صاحبه .

ونظر إليها .. فى سكونها المسترخى المستسلم .

وعينيها السوداوين المسبلتين .. وأرنبة أنفها الدقيقة المرتفعة .. وشعرها الأسود المتناثرة خصلاته حول وجهها .

ولم يشعر لحظة واحدة .. أن هذه المخلوقة يمكن أن تنطبق عليها تحذيرات سليم .

إنه دائما يتصرف بإحساسه .

وإحساسه .. فى جانبها .. مائة فى المائة .

إنه يشعر بجوارها بطمأنينة تامة .. وثقة كاملة .
خيط واحد من الشك .. لم يتسلل إلى نفسه .
الاستغلال .. والخديعة .. والمنفعة ، وهذا النوع من النساء .. و .. و .
وكل هذه التعبيرات التي استعملها سليم .. لا يجد لها موضعا .. في إحساسه .
لهذه المخلوقة العجيبة .. الكامنة بجواره .
أهو الحب ؟!
وإذا كان !!
فما حيلته .. وقد فرضت عليه نظرة المحب ، وتفكيره ، وإحساسه ؟!
وتذكر ردّها عندما سألها : « ماذا تريدين مني ؟ » .
وهمس بها :
— أما زلت تريدينني أن أحبك ؟
وأجابت وهي تلتفت إليه وتحدق في وجهه في الظلمة :
— أكثر مما أريد أي شيء في هذه الحياة .
— لماذا يقولون إنك بلا قلب ؟
وازدردت ريقها وهمست متسائلة :
— من قالها لك ؟
— صديق .
— وماذا قال لك أيضا ؟
— حذرني منك .
— كيف ؟
— لا ضرورة للتفاصيل .. لم أتعوّد نقل كلام الغير .
— أقولها لك أنا .. يجب أن نبدأ حبنا على قاعدة من الصداقة والثقة .. أنا أعرف ظنون الناس بي ، ولكني أعرف نفسي أكثر مما يعرفني الناس ، والزمن وحده سينصفني منك .

وأحس كأنه جرحها .. وجذب يدها .. فرفعها إلى فمه ومسها بشفتيه :
— أنا آسف .. لم أقصد أبدا أن أضايقك .
— لم تضايقني أبدا .. كنت أتوقع أن تسمع عني الكثير .. كنت أتوقع أن يقولوا لك .. إني بلا قلب .. وإني لا أعرف إلا المصلحة ، وإني مستغلة ، وإني .. وإني .. ألم يقولوا لك هذا ؟
— تقريبا .
— وأزيد على ما قالوا .. أن هناك علاقة بيني وبين « رياض عبد الدايم » .
— حتى هذا أيضا قالوه .
— حسن .. حقيقة .. أنه أحبني .. وحقيقة أنه عرض عليّ الزواج ، ولكني أنبأته أني لا أستطيع أن أرد فضل زوجته وابنته بانتزاعه منهم .. وأكثر من هذا ، أن سنه ومرضه لا يسمحان له بالزواج ، وأن إحساسي له لم يزد أبدا عن إحساس الابنة لأبيها ، وأصابه قولي بصدمة قاسية . كادت تقضي عليه .. وأحسست أن من واجبي ألا أتخلّى عنه في أزمته .. لقد وقف دائما بجواري .. في أيام حاجتي ، ومحنتي .. وأنا لا أشعر أبدا أن في علاقتي معه ما يشينني .. وأشعر أيضا أني أستطيع أن أعينه على الشفاء . ومع ذلك ، فإذا كان وجوده في حياتي يضايقك .. فأنا على استعداد .. لأن أقطع كل صلة لي به ، وأن أفعل كل ما يرضيك .
وصمتت .
وصمت هو .
واستغرق في تفكير عميق .
لقد شعر أن من الحمق .. أن يسألها أن تقطع علاقتها بهذا الشخص أو ذاك .
وعلاقتهما معا .. لم تتحدد بعد .
إنه لا يحس في نفسه .. القدرة .. على أن يفرض عليها رغباته .
بل هو لم يتبين بعد حقيقة هذه الرغبات .
وأكثر من هذا .

لا يستطيع أن يضمن تنفيذها .

ثم إنه .. إذا حكم إحساسه .. لا يجد أنه قد تملكته غيرة ولا خشية ، بل ولا حتى مجرد بغضاء لهذا المخلوق الذى دارت حوله المناقشة .

بل لقد أحس بعد حديثها بنوع من العطف عليه والشفقة به .. وكره أن يكون بدخوله فى حياتها قد سبب لها شيئا من الخيبة أو الخذلان .

وأحس بها تضغط على يده كأنما تستحث ردّه .

ونظر إليها فإذا بها تتطلع إليه فى لهفة .

وقالت له متسائلة :

ــ لماذا صمتّ ؟

وهزّ رأسه مجيبا :

ــ لأنى فى حيرة !

ــ ممّ ؟

ــ من موْقفى معك .. أنا أكره قبل كل شىء أن أنتزعَك من أحد .

ــ قلت لك ، ليس لأحد حق علىّ ، ولم يكن هناك ما يربطنى بأحد قبل أن ألقاك .

ــ وأنا أكره أن أنتزعَك من حياتك .. لأقيدك بحياة .. لا أعرف ماذا أستطيع أن أحقق لك فيها ، ولا ماذا أستطيع أن أمنحك خلالها .

ــ قلت لك إنى لا أريد منك سوى أن تحبنى .

وصمت برهة .. ثم نظر فى عينيها وقال فى تؤدة .. كأنه يشرح نظرية .. أو يقنع بمبدأ :

ــ لقد أحببتك فعلا .. هذه حقيقة واقعة .. لا جدال حولها .. ولا شك فيها .. دون أن أتصور فى يوم ما أنى أقع فى حب مطربة .. أو ممثلة .. أو أى إنسانة عامة .. ذات تجارب .. لقد كان أقصى إحساس لى يمكن أن أتصوره مع مثلك .. هو الاشتهاء .. أو الإعجاب .. أو مجرد الرغبة فى جلسة ممتعة مسلية .. أما أن

أشعر بحب حقيقى ، جارف عميق .. فهذا ما لم أتصوّره قط ، ولا أظن أحدا كان يتوقعه منى ، ومع ذلك .. فقد وقع .. دون أن أجد فيه غرابة .. بل وجدتنى .. أحبك .. كما أحب صبية فى السادسة عشرة .. حبا نظيفا .. لا يشوبه اشتهاء ، ولا تحيط به مآرب ، ولا يرسمه تدبير ولا توجهه خطط .. بل حب سليقى ، بدائى ، وأحسست فى قرارة نفسى أنك أهل له ، ووجدتك مخلوقة بسيطة .. طيبة ، واضحة ، ولم أجد فيك تلك المخلوقة المعقدة .. الـ ...

وتردد برهة فأكملت هى ضاحكة :

ــ العربيدة .

ورد مترددا :

ــ لم أكن أنا صاحب هذا الوصف .

ــ ولكنك كنت الموحى به .

ــ لا أظننى كنت أستطيع أن أظن بك خيرا منه .

ــ على أية حال لا أملك إلا أن أعيد قولى .. سيريك الزمن حقيقتى .

ــ لقد اكتشفتها قبل أن يهيئها لى الزمن ، ومن أجل هذا أحببتك .

ــ لم يعد يسعدنى شىء فى حياتى قدر أن أسمع منك هذه الكلمة .

ــ ألا تحسينها .. دون أن أقولها ؟

ــ أحسها .. ولكنى أحب دائما .. أن أسمعها منك ، لم أتصوّر قط .. أنه يمكن لى أن أندفع فى حب إنسان كما اندفعت إليك .. إنى لم أفكر لحظة فيما أريد منك .. ولا ما يمكن أن ينتهى إليه حبنا .. ولا حاولت أن أفكر .. فى هدف .. أو غرض .. أو نهاية .. لقد أحسست بدافع خفى يدفعنى إليك منذ اللحظة الأولى التى أبصرتك فيها ، ومضت ثلاثة أشهر قبل أن أراك فى المرة التالية ، وعندما رأيتك أصررت على ألا أدعك تفلت منى ، وتصرفت بطريقة مندفعة حمقاء .. لم أتعوّدها أبدا من نفسى ، ولا تعوّدها منى أحد ، ووجدت نفسى فى النهاية ، وقد بثّ شيئا حيويا فى حياتى .. بثّ جزءاً منها ومنى .. لا أستطيع أن أحيا بدونه ، بل إنى

لأشعر أن كل تصرفاتى قد باتت معلقة بك وأنى على استعداد لأن أفعل كل ما تطلب .

وأسندت رأسها إلى كتفه ، وأطلقت من صدرها تنهيدة راحة .. ثم استطردت قائلة :

— لم تقل أنت .. ماذا تريد منى ؟

— لا أظننى أريد أكثر مما أردت أنت .. أريد حبك المخلص .

— وماذا أيضا ؟

— لا أريد أن تكذبى علىّ أبدا . إنى أستطيع أن أفهم ، وأقدر وأعذر ، ولست أحب أن أكون سببا فى إيلام أحد ، ولكنى أحب دائما أن أعرف الحقيقة .. وأحب دائما .. أن أمنحك ثقتى .. إنك أدرى بما يجب أن تفعلى ، وما لا ينبغى أن تفعلى ، وليس لأحد منا القدرة على مراقبة الآخر ، ولا أظن هناك أبعث على طمأنينتنا .. من أن يشعر كل منا بمسئوليته فى حبه ، وبثقته المطلقة فى الآخر .

وأحست به يتحدث بمنطقه ، أكثر مما يتحدث بمشاعره ، ولم تملك إلا أن تجيب عليه قائلة :

— لن أفعل أبدا .. ما يضايقك .

ومدت يدها .. فأدارت مفتاح الراديو .

وسمع أغنية لإحدى المطربات .. فأسرع بإغلاقه قائلا :

— أتعرفين أنك لم تغنِّ لى وحدى حتى الآن !

— أتعرف أن كل ما أغنيه منذ عرفتك .. لك وحدك ؟

ونظرت إلى الساعة ثم قالت :

— أتدرى كم بلغت الساعة ؟

— كم ؟

— الثانية .

— عجيبة ! . بهذه السرعة ؟

— لقد أخرتك عن موعد نومك .

— إنى معتاد السهر فى الجريدة .

— إلامَ ؟

— إلى منتصف الليل .

— إذن نعود الآن ؟

— والأغنية ؟

— فى الطريق .

— أتغنين .. أثناء القيادة ؟

— أغنى وأنا أقوم بأى عمل .. حتى وأنا نائمة .

وأدارت العربة وهو يتحسس شعرها وجانب وجهها .. قائلا :

— كنت دائما أتمنى أن أعرفك .. كنت أحب وجهك دائما .

— لماذا لم تأتِ إلىّ ؟

— لو تخيلت أنه يمكن أن تحبينى .. لما غادرت عتبة بيتك .

وانطلقت العربة منحدرة فى الطريق على سفح الجبل .

وتساءلت هدى :

— أين تريد أن أذهب بك ؟

— إلى أى مكان فى طريقك .

— وأين عربتك ؟

— صرفتها مع السائق .

— وكيف ستعود ؟

— بأية وسيلة .. سآخذ تاكسى أو أتمشى .

— ولماذا لا أوصلك ؟!

— ونسير معا فى الطرقات ؟!

— الساعة الثانية ، هل تظن أحدا يمكن أن يصادفنا الآن ؟

— لا أظن .

— سأذهب بك حتى البيت .

وانطلقت تغنى .

ومرة أخرى وجد سامى نفسه فى موقف لم يتصوّره .

امرأة جميلة .. تحمله فى عربتها .. وتغنى له .. فى شوارع دمشق الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

ومرة أخرى شرد بذهنه ..

وبعد ؟!

مغ آخرة .. كل هذا ؟!

ولكنه سرعان ما نفض الأوهام عن رأسه .

إن من حقه .. أن يستريح .

من حقه .. أن ينعم فى حياته الشاقة .. الجافة .. المرهقة .. بفترة راحة ، تعينه على مواصلة السير .

وهو لم يؤذ أحدا .

ولم يسرق من أحد متعة .

وأعاده من شروده صوتُها العذب يتساءل :

— أتسمعنى .. أم تسمع وساوسك ؟

وضحك قائلا :

— لا أحب أن أكذب عليك أبدا .. لقد تغلبَت الوساوس .

— أحب صدقك .. ولو آلمنى .. لو قلت تسمعنى لضايقتنى .

— اعذرينى .. إنى أفعل أشياء .. لم يخطر ببالى أنى أفعلها من قبل .

ومدت يدها فضغطت على يده وهمست به :

— أعرف هذا .. أعرفه جيدا .

وانحدرت العربة .. من طريق برمانة .. مارة بقصر الضيافة ، ثم اتجهت يمينا ،

إلى الطريق المتسع بجوار بردى .

وتساءلت قائلة :

— إنى أسير على غير هدى .. أرشدنى .. وإلا قضيتُ الليل سائرة بك .

— لم نخطئ كثيرا .. سنسير حتى الجسر ، ثم نتجه يسارا إلى شارع بغداد .

وقبل أن تصل العربة إلى ميدان السبع بحرات قال سامى :

— أظن هنا يكفى .. سأسير المسافة الباقية .

ومد يده .. فأمسك بكفها .. ثم رفعها إلى شفتيه .

وسألته قائلة :

— ستحدثنى غدا ؟!

— غدا .. وبعد غد .. وفى كل وقت .

وهبط من العربة . وسار فى طريقه .. وأخذت « هدى » ترقب شبحه يتباعد فى الظلمة حتى اختفى .

وتصاعدت من صدرها زفرة .. ثم انطلقت بالعربة .

لم تعد إلى البيت .

كانت تحس أنها سعيدة .

أسعد مما تستطيع أن تحتمل .

لأول مرة .. تحس بأنها مخلوقة .. تحيا .

لأول مرة تحس أنها تريد أن تعانق الأشجار .. وتقبّل الأرض الخضراء .. وتمسح وجهها فى مياه النهر .

إنسان جديد .. استيقظ فى داخلها .

إنسان طال انطواؤه ، حتى كادت أنفاسه تخمد .

الإنسان .. الحنون .. الطيب .. الرقيق .. الودود .. المحب لكل الناس .

كيف استطاع هذا المخلوق إيقاظه ؟

وأخيرا توقفت بها العربة أمام باب البيت .. المطل على بردى ، المواجه لسفح

الجبل ذى الأنوار المتلألئة .

ودفعت مفتاحها فى الباب .

وأضاءت نور القاعة .

ووجدت « أم حبيب » قابعة فوق أحد المقاعد .

وهتفت بها هدى :

— أما زلت يقْظَى ؟

— قلقت عليك .. لم تخبرينى أنك ستتأخرين .

— دُعِيت دعوة مفاجئة .

ورفعت « أم حبيب » وجهها المغضن وحدقت فيها .. بقدر ما استطاعت أن تحدق عيناها وقالت فى شىء من الدهشة :

— أية دعوة هذه ، التى جعلت وجهك يشرق كل هذا الإشراق ؟!

— حقيقة .. أترين بى شيئا جديدا ؟

— إن لم يخدعنى بصرى .

— لم يخدعك أبدا .. إنها إشراقة حب .

— حب !!

— أجل يا « أم حبيب » .. إنى أحب .

— تحبين ؟

— لا تصدقين ؟ معك حق ، أنا نفسى لم أكن أصدق ، ولكنى أحب حقيقة .. أحب وأحب .. هل هناك أجمل من هذا ؟!

ونظرت إليه « أم حبيب » نظرة حذر . وهزت رأسها قائلة :

— لم أرَك أبدا فى هذه الحال .

وتوقفت « هدى » أمامها وتنهدت قائلة :

— أتخشين علىّ ؟!

— ربما .

— ولكنى لا أحس بالخشية على نفسى !!

ومدت « أم حبيب » ذراعيها فضمتها إليها هامسة :

— استمتعى يا حبيبتى .. استمتعى بأيامك .. وحياتك .. فلست أنت التى يمكنها أن تنعم بالأيام الرتيبة .. والحياة الخالية .

وصمتت الخادم العجوز برهة ثم استطردت :

— أترينه يستحق حبك ؟

— بل يستحق حياتى كلها .. إن به كل ما تمنيته فى رجل .

— بعين الحب ؟

— وعين العقل أيضا .

— ونهايتك معه ؟

— لم أفكر فيها ، ولا أريد أن أفكر فيها .

وسارت « هدى » إلى حجرتها .. ووقفت فى الشرفة ، ترقب نهر بردى ، وقد حجبته فروع الشجر القائمة أمام البيت .. ثم تطلعت إلى سفح الجبل المتلألئ ، وشردت ببصرها .. إلى حيث كانت تجلس بجواره منذ لحظات فى جبل قاسيون .

ووضعت أنفها على الزجاج فكسته أنفاسها بطبقة من الضباب .

ووجدت نفسها بلا وعى ترسم بأصابعها كالأطفال كلمة « أحبك » .

٧

إلى أين ؟!

وقفت « هدى » أمام الميكروفون لتنشد أغنيتها .. وقد ازدحمت القاعة ، وتعالت صيحات الإعجاب .. وانهمك « شكرى » رئيس الأوركسترا فى العزف على القانون ، وأخذت أصابعه تتنقل بخفة ومهارة وسرعة .. وجعل جسده يتمايل ورأسه يهتز .. وتعلقت عيناه بهدى .. يرقبها فى إعجاب ولهفة .

وأوشكت الأغنية على الانتهاء .. وتعالت أصوات المستمعين .. تطلب الإعادة .. وهمّ « شكرى » فى حماسته بإعادة عزف المقطع الأخير من أوله .. ولكن « هدى » التفتت إليه وهمست فى قلق :

— دعنا ننتهى .. أكمل .

واستمر « شكرى » فى العزف متمما الأغنية .. وضجّ الجمهور بالاحتجاج .. ونظرت إليهم « هدى » ، وأشارت إلى حنجرتها مبتسمة .. ولكن الجمهور عاد يضج .. ولم يجد « شكرى » بدًّا من إعادة عزف المقطع من أوله .

وعادت « هدى » تهمس به :

— بسرعة .

وانتهت الأغنية .. ودوى التصفيق .. وتعالى الهتاف .

وحيت « هدى » الجمهور .. وأسدلت الستار .

وأسرعت « هدى » .. إلى حجرتها لتبدل ملابسها .. وقبل أن تغلق الباب .. كان « شكرى » قد لحق بها مناديا :

— هدى .

وتوقفت « هدى » أمام الباب والتفتت إليه وقد بدا عليها القلق :

— نعم .

— ماذا بك الليلة ؟

وهزت رأسها قائلة :

— لا شىء .

— لماذا كل هذه العجلة ؟

— أبدا .. متعَبة .

— فقط ؟

— أجل .. أشعر بصداع .. وتعب فى الزور .. الظاهر أنها مبادئ إنفلونزا .

ولم تبد على « شكرى » علامات الاقتناع وعاد يقول لها :

— ما رأيك فى أن نتعشى سويا . أدعوك ، أو تدعينني ؟

ونظرت إليه « هدى » فى حنق :

— قلت لك إنى متعَبة .

وهز « شكرى » رأسه قائلا فى تشكك :

— لا أظنها مسألة تعب ، منذ بضعة أيام .. وبك شىء .

— لا تكن أبلَه .

— لست أبله .. أنا أعرفك جيدا .

وازداد الضيق بهدى . وهمت بالدخول إلى الحجرة وهى تقول محاولة إنهاء الحديث :

— تصبح على خير .

ولكن « شكرى » أمسك بذراعها وتساءل فى صبر نافد :

— لماذا لا تكفين عن هذا العناد ؟

— العناد ؟! .. فى أى شىء ؟

— فى عدم الزواج ؟!

وبدت الدهشة والضيق على وجه « هدى » وأجابت :

ـــ أهذا وقته ؟!

ـــ لماذا تصرّين على المراوغة والهروب .. وأنت تعرفين جيدا أنى أحبك .. وتؤمنين أنى أقْدَر الناس على فهمك .. وأكثرهم ملاءمة لك .

وأحست « هدى » بأن صبرها يوشك أن ينفد ، ولكنها كبحت جماح نفسها .. فقد كانت تريد أن تنتهى منه .. ولم يكن هناك وقت تضيعه معه فى مناقشة مدى صلاحيته لزواجها .. وكانت تعرف أنه مخلوق طيب القلب ، وأن كلمة لينة أفعل فى التخلص منه .. من الانفعال والاحتداد .

ورسمت « هدى » ابتسامة على شفتيها ثم ربتت خده فى تدليل .. وقالت كأنها تحدث طفلا :

ـــ إنى واثقة أنك تحبنى .. وأقدّر عبقريتك .. وأعرف مدى ما تستطيع أن تفعله من أجلى .. ولكن المسألة لا يمكن أن تؤخذ بهذه الطريقة .. إنها تحتاج إلى تفكير .. وصبر .. أنت تعرف أن لكل منا مشاكله .. دعنا نؤجل المناقشة إلى غد .. تصبح على خير .

ولم تدع له فرصة للرد .

ومرقت من الباب وأغلقته وراءها ، قبل أن تسمع تحيته .

وبدأت « هدى » تغير ملابسها بسرعة ، والأفكار تتزاحم فى ذهنها .

فى يوم ما .. فكرت فعلا فى أن تتزوج شكرى .

لقد خُيّل إليه .. أنه أكثر الناس ملاءمة لها .. ولم تجد ما يمنع من أن تغامر معه بتجربتها الثانية فى الزواج .

لقد كان أكثر الناس صلة بها فى عملها .. وأقدرَهم ـــ كما قال ـــ على نفعها .. بل لقد كان لألحانه التى وضعها لأغانيها ، فضل كبير فى نجاحها ، وكان مخلوقا طيبا .. ناجحا .

ولكنها مع ذلك كانت تشعر بالتردد .. وكانت لا تفتأ تراوغ وتهرب .. من الإجابة القاطعة والرد الحاسم .

لم تكن تحس بالقدرة على تحمل مسئولية تجربتها الثانية .

عندما فشلت التجربة الأولى .. استطاعت أن تلقى اللوم على أبيها ـــ رحمه الله ـــ لأنها لم تكن المسئولة عن التجربة .

أما الآن .. وهى المسيطرة على أمر نفسها .. المتحكمة فى مصيرها . فعلى من تلقى لوم الفشل .. وهو أمر محتمل .. بل أكثر من محتمل !

إن « شكرى » يحبها .

ولكنها لم تحس بأن لحبه هذا صدى فى نفسها .. ولا أحست بأنه شىء نادر .. يعتز الإنسان به .

فقد أحب « شكرى » ثلاثة أرباع راقصات المسرح .

حقيقة أنه ميزها عنهن بطلب الزواج .

ولكنها تعتقد أن تميزه مرجعه إلى أنها استعصت عليه بغير ورقة الزواج .. على حين لم تحوجه الباقيات إلى هذه الورقة .

أو .. ربما .. قد أحبها .

ولكن ما قيمة حبه عندها ، إذا كانت هى نفسها لم تحبه ؟!

ومع ذلك .. كانت .. لا تستبعد فكرة الزواج منه .

كانت كفة حسناته .. تتأرجح مع كفة سيئاته .. وكانت فى بعض أوقات وحشتها .. ووحدتها .. تهم بأن توافق على الارتباط به .

لقد كان وحده .. أبرز من يقف على مسرح حياتها .. لا يشاركه إلا « رياض » .. فى وقفته المصرّة .. الملحّة .. التى لا طائل تحتها .. ولا غرض منها .

إن استحالة وضع « رياض » كزوج لها أمر مفروغ منه ، ومع ذلك لا يستطيع أن ينزع قدمه من مسرح حياتها ، ولا هو بقادر على أن يتنحى من طريقها .. وهو قد يمنحها بعض الأشياء النافعة .. ولكن هذه الأشياء لا يمكن أن تغنى عن الأشياء الحيوية التى لا يمنحها إياها .

وكان الاثنان ، مع عشرات المعجبين والمحبين ، والمشتهين الذين يلتفون من

حولها ، ويتسابقون إلى التقرّب منها .. يجعلونها .. تقف من الكل موقف المشاهد .. المحايد .. الذى لا يجد هناك ما يدعوه إلى العجلة .. أو القلق .. أو الحزم وسرعة البتّ .

كانت المسألة على حد قولها .. « ماشية » .

وكان يمكن أن تدوم وقفتها .. المحايدة .

أو أن تختار « شكرى » .. بلا انفعال ، ولا حماس .. أكثر من انفعالها .. بوجبة طعام .. أو حماسها لتدخين سيجارة !

حتى ومض البرق فى حياتها .

وبدا على ضوئه .. هزال الأشباح .. التى كانت تحيط بها .. وتملأ حياتها .

وشعرت بأنها مُنِحت قدرة جديدة على التمييز .. والحس ، والتذوق .

ولم يعد هناك .. وجه .. لوقفة التردد والحياد ، والحيرة .

فقد اندفعت فى عنف .. إلى مصدر الإشراق .

اندفعت بلا وعى ، ولا إرادة .. لتضعه بين ذراعيها ، وتستمتع بإشراقه وبهجته .

اندفعت.. بلا تفكير فى عاقبة ، وبلا تحديد لهدف .. أو تخطيط لنتائج .

اندفعت .. وهى تشعر .. أن أسوأ النتائج ، وأوخم العواقب .. بل الموت ذاته .. لا يمكن أن يوقف اندفاعها إليه .

لم يكن هناك ما يوازنه أبدا .

ولم يكن هناك ــ بالتالى ــ وجه .. للتفكير .. فى شكرى ، ولا غير شكرى .

وانتهت من إبدال ملابسها .

وفتحت باب الحجرة وأسرعت إلى التليفون .

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف ، وسامى ينتظر محادثة منها .. حتى ينزل للقائها .

وقبل أن تصل إلى التليفون أبصرت محمود « الجرسون » يقبل عليها قائلا :

ــ التليفون يا ست هدى .

وتملكتها دهشة .

أمعقول أن يكون سامى قد طلبها !! لِمَ لا ؟! إذا كان قد نوى الاعتذار .

وأحست باختناقة ضيق ، وكأنها طفل حرم فجأة .. من أجمل متعاته .

ولكنه .. لا يعرف رقم تليفونها هنا .

وهل يتعذر عليه الحصول عليها ؟ إنه يعرف المسرح الذى تعمل عليه ، والرقم موجود فى دليل الهاتف .

وأقبلت على حجرة التليفون .

وأغلقت الباب عليها ، ورفعت السماعة .. وتساءلت فى اضطراب :

ــ آلو .. مين ؟

ولم يرد عليها صوت سامى .. بل صوت آخر كانت تعرفه جيدا .. هو صوت رياض :

ــ مساء الخير .

ــ مساء النور .

ــ كيف الحال ؟

ــ الحمد لله .

ــ ما أخبارك ؟!

ــ لا جديد .

ــ أأستطيع أن أراك ؟

ــ متى ؟!

ــ الآن .

ــ الآن ؟!! غير معقول .

ــ لِمَه ؟!

ــ لأن .. لأنى .. ما زال أمامى عمل .

— ظننت دورك قد انتهى .

— المفروض أن يكون انتهى .. ولكنه سيتأخر لأن الأوركسترا لم يكن جاهزا .

— إذن ألتقى بك بعد أن تنتهى .. إن معى عبد الرحيم جودة .. صاحب شركة أفلام النهضة وبعض الإخوان من مصر ، وقد دعوتهم للعشاء ، وستكون السهرة لطيفة .

— لا أظننى أستطيع الحضور .

— لماذا ؟! إنهم يريدون رؤيتك وهى فرصة طيبة للقائهم .

— لأنى متعَبة الليلة .

— إذن نأتى إليك ؟!

— غير معقول .

— لماذا ؟

— إن الوقت سيكون متأخرا .. لأنى سأذهب مع شكرى وعلية وسليمان وبقية الشلة .. لكى نجامل « علية » فى زواج أختها .

— لماذا تسدّينها من جميع النواحى !

— متأسفة جدا .. الظروف هى التى تضطرنى إلى ذلك . يمكنك أن تعتذر لهم عنى .

— لم أتوقع أبدا أن تعتذرى ، ولا أجد ظروفك قاهرة إلى هذا الحد ؟ وقد ظننتها فرصة سانحة لأن أقدّمك لهم .

— إنى على استعداد لأن أراهم فى أى وقت آخر غير الليلة .. لماذا لا تدعوهم على الغداء عندى غدا ؟!

— لا أعرف مدى استعدادهم .. فقد يكونون مرتبطين بمواعيد أخرى .

— إذن جرّب .. وإذا وافقوا .. حدثنى صباحا فى التليفون .

— سأرى .. تصبحين على خير .

— تصبح على خير .

ووضعت السماعة ، وتنفست الصعداء .

وبسرعة أدارت القرص .

ورد عليها صوت سامى فأجابت فى عجلة :

— تأخرت عليك ؟

— قليلا .

— متأسفة جدا .. أتستطيع أن تنزل الآن ؟

— أجل .

— سألقاك بعد خمس دقائق .. فى نفس مكان الأمس .

— حاضر .

— مع السلامة .

— مع السلامة .

ووضعت السماعة ، واندفعت بسرعة إلى خارج المسرح ، وبعد بضع دقائق .. كانت تتوقف فى طريق برمانة ، لتلتقط سامى وتنطلق به إلى جبل قاسيون .

واستقرت العربة فوق المنحدر ، وساد الصمت برهة ، وأسندت رأسها على كتفه وأطلقت تنهيدة راحة .. ثم همست قائلة :

— هذه اللحظات التى أستقر فيها بجوارك .. قد باتت كل حياتى .. إنى أحس .. أنى أظل أعدو طوال اليوم لاهثة مكروبة .. حتى ألتقى بك فأهدأ وأستقر .

ومد سامى ذراعه فأحاط كتفيها وضمها إليه ، وأسند جانب وجهه على وجهها وأجابها .

— أنا أيضا قد بتُّ أشعر بك كهدف أنتهى إليه .. لقد جعلتِنى أنتظر شيئا .. ممتعا .. لذيذا ، أحلم به يومى .. بعد أن كنت أصلُه بغُده .. كما وصلتُ به أمسَه .. كانت أيامى تمر بى متصلة متشابهة .. بلا علامة مميزة .

وازدادت « هدى » التصاقا بسامى وضمت وجهها إلى وجهه .

وبدا ضوء عربة يدور فى المنحدر ثم يسلط على العربة فى دورانه ، ولم يلبث حتى اختفى ، وعادت الظلمة إلى المكان .

وانتفضت « هدى » ورفعت رأسها واستقرت فى مقعدها بعيدة عن سامى وشرد ذهنها برهة ، وبدا عليها القلق .

وسألها سامى :

— ما بالك ؟!

— أبدا .. هذه العربات تقلقنى بمصابيحها .

ومدّ يده ليحيطها بذراعيه .. وقبل أن تسترخى على كتفه ثانية .. بدت عرب أخرى .

ورفعت « هدى » رأسها عن كتفه .. ترقب العربة وهى تدور فى المنحدر . ومرة أخرى بدا عليها الاضطراب .

وسألها « سامى » وهو يتحسس شعرها :

— ما بالك الليلة ؟!

وهزت رأسها قائلة :

— لا شىء .

— أنت قلقة .

— إلى حد ما .

— لِمَه ؟!

— خيّل إلىّ أن العربة التى مرّت .. هى عربة رياض .. لقد تعوّد أن يأتى مع أصحابه إلى هنا .

— تخشين منه ؟

— لست أخشى من أحد على نفسى .. ولكنى أكره أن يرانا .. ويثير حولك الشائعات .. إنى أخاف عليك أنت .. لا أريد أبدا أن يمسك شىء بسببى .. حتى

لا يضيع حبك لى . إنى أود أن أحتفظ بحبك .. إلى الأبد .

وعاد يحيطها بذراعه وتحسس وجهها بشفتيه .. حتى مس أنفه أنفها .. وأجاب هامسا :

— لن يضيع حبى شىء .. ما دمت تريدينه .

ورفعت عينيها إلى عينيه .

ومرة أخرى .. عادت أضواء العربات الصاعدة فى المنحدر .. تمر بهما فى دورانها .

واستقامت فى مقعدها وقد بدا عليها الضيق ، ثم قالت كمن حزم أمره :

— اسمع .. ما رأيك فى أن نذهب إلى البيت ؟

— وددت أن أعرض عليك هذا .. ولكنى خشيت أن أضايقك أو أسبب لك حرجا .

— لا حرج هناك . إننا نستطيع أن نجلس نفس جلستنا ، بطريقة أكثر راحة وأمنا .

وأدارت « هدى » العربة .. وهبطت من المنحدر .. وقد بدا عليها القلق والشرود .

وسألها سامى .. وهو يلمح شرودها :

— أواثقة أنت .. أنه ليس هناك ما يضايقك ؟

وتضاحكت « هدى » قائلة :

— لا يمكن أن يضايقنى شىء وأنا بجوارك .

وعندما قاربت العربة بيت « هدى » . توقفت ، وقالت :

— أظن من الخير أن تنزل هنا .. وسأذهب أنا لوضع العربة فى « الجاراج » . ثم أصعد إلى الشقة .. لأتأكد من نوم « أم حبيب » .. ثم تصعد أنت إلىّ .

وهبط سامى من العربة .

واستطردت « هدى » تقول :

— لن تستغرق العملية .. أكثر من بضع دقائق .. تكون أنت قد وصلت إلى باب الشقة .. أترى هذا البيت الذى تقوم أمامه الشجرة .. الدور العلوى .. الشقة اليمين المطلة على الطريق .

وانطلقت العربة بهدى .. وسار سامى الهوينى بجوار السور الحجرى القائم عند مجرى بردى .. وهو يحدق فى المياه المتدفقة التى تلمع بين آونة وأخرى .. فى ضوء المصابيح .

ووصل إلى باب البيت .. وتملكه شىء من التردد والخشية .

مرة أخرى .. يحس أنه يوشك أن يخطو خطوة جديدة .. ليس يدرى إلى أين تقوده .

ومرة أخرى عاد إلى ذهنه تحذير صاحبه سليم .. وتواترت على ذهنه مراحل كفاحه .. ومركزه فى الحزب .. وإيمان شباب الحزب به .. وثقة رئيس الحزب فيه .. ومبادئه التى كانت شغله الشاغل .. وصراعه مع الشيوعيين .. والرجعيين .. والجريدة وأحلامه الضخمة .

وتملكه تردد ، وهو يوشك أن يضع قدمه على عتبة الباب ، ولكن اندفاع قدمه كان أقوى من تردده .

كانت مشاعره .. أكثر سيطرة من مخاوفه .

هذه المخلوقة الرقيقة المرهفة التى منحته طَعما جديدا للحياة .

هذه المخلوقة العجيبة ، التى جعلته أكثر قدرة على الكفاح ، والتى يمنحه مجرد التفكير فيها .. قوة دافعة .. ورغبة ممتعة فى العمل .

إنه وحده أدرى بها ، وبما يمكن أن تفعل له ، وتفعل به .

لا سليم .. ولا غيره من الناصحين .. يعرفون عنها ما يمكن أن يعرفه .

هذه المخلوقة .. الجميلة المحبة الطيبة .. لا يُظَن هناك قوة ، من قوى التحذير والخشية .. تستطيع أن تجعله يخذلها فى وقفتها المنتظرة .

وبسرعة صعد السلم .. ودق الجرس .

وفى ثانية .. فُتح الباب .. ومدت « هدى » يدَها تضغط على يده .. وباليد الأخرى ردت الباب .

٨

سوء ظن

فى سكون الليل .. والصمت مخيم .. و « سامى » قد استقر على المقعد الكبير .. وراء النافذة الزجاجية العريضة .. ومد ساقه على حافة النافذة ، وفى حجره قد استقرت « هدى » .. منكمشة بين ذراعيه كالطفل بين أحضان أمه ، وقد وضعت رأسها فى صدره .. وأغمضت عينيها وبدت على وجهها أقصى آيات السكينة والهدوء والاستسلام والراحة .

ومن وراء زجاج النافذة .. أخذ النسيم يحرك أوراق الشجرة .. ليكشف عن النجوم تارة .. وعن لافتات النيون الملونة .. تارة أخرى .. ومجرى بردى يمتد متباعدا ، وقد تقاربت حافّتاه حتى كادتا تلتقيان فى نقطة فى جوف الجبل الشامخ القاتم .

والطريق خال .. مقفر .. إلا من عابر سبيل وحيد .. أو عربة تمرق بسرعة فى الجانب الآخر من النهر .

وضم « سامى هدى » فى رفق وتحسس شفتيها وطاقتى أنفها بشفتيه .

وسمعها تهمس حالمة :

— أحب أنفاسك .

واستقرت شفتاها على شفتيه .. وفجأة دق جرس التليفون .

وانتفضت هدى .

واستمر الجرس يدق .. وذهبت عن « هدى » رجفة مفاجأة الرنين وسط السكون ، وتمالكت نفسها ونهضت لترد .

ورفعت السماعة قائلة :

— آلو .

ولم يجب أحد .

وكررت الرد ثانية .. ثم وضعت السماعة وهى تهتف فى حنق :

— غبية .

وتساءل سامى :

— مَن ؟

— أنا .

— لِمه ؟

— كان يجب ألا أرد .

وصمت « سامى » .. منتظرا مزيدا من التفسير .. وبدا الشرود على « هدى » وهى تستقر فى حجره مرة أخرى .

وعاد « سامى » يسأل فى شىء من القلق :

— من يكون ؟

— رياض .

— كيف عرفتِ ؟! هل قال لك شيئا ؟

— لقد طلبنى ليتأكد أنى هنا .

— لماذا ؟

— لأنى قلت له إنى سأذهب إلى بيت « علية » الراقصة لأجاملها فى فرح أختها .

— ولماذا قلت له هذا ؟

— لأنه حاول دعوتى على العشاء مع أحد منتجى الأفلام الأصدقاء .

وساد الصمت .. ولم يستطع « سامى » أن يمنع الضيق من التسلل إلى نفسه .. وأحست « هدى » بما أصابه .. فشدت ذراعيها حوله وهمست به :

— هل ضايقك قولى ؟

— لا .

— إذن ما الذى ضايقك ؟

— إحساسى بأن لك حياة خاصة بك .. ومجالا تحتم مصلحتك الوجود فيه .. لا أستطيع التسليم به .. ولا أملك حرمانك منه .

ومدت يدها تعبث فى شعره .. ونظرت إلى عينيه باسمة وتساءلت :

— ماذا تقصد ؟

— لا أستطيع التسليم به لأنى أغار عليك من كل ما فيه .. ولا أستطيع حرمانك .. لأنى لا أملك تعويضك عنه .

وجذبت رأسه إلى رأسها وقالت وهى تضع شفتيها على شفتيه :

— فلسفة !!

— بل حقيقة .

وهمست ضاحكة :

— يا حبيبى .. يا غبى .. لم تعد لى حياة .. سوى أنت .. ولا مجال .. سوى مجالك .. ولا محيط سوى محيطك .. أنت لى الدنيا .. وأنت لى الحياة .. إننى على استعداد للتضحية بكل شىء وبكل إنسان من أجلك .. على استعداد للتضحية بحياتى ببساطة .. وفى كل وقت .

وضمها إليه بكل ما يملك من قوة .. وأخفى وجهها فى صدره .. وهو يحس بأنها قد باتت جزءا منه .

وملأه إحساس جارف بالسعادة ، وهو يسمع اعترافها بحبه .

ولكن إحساس السعادة كان يشوبه خيط من القلق .. الذى يصيبه كلما أحس بأنه يخطو خطوة جديدة نحوها .

وعاد يقول :

— أنت أيضا حياتى .. ولكنى أكره أن أحرمك من شىء لا أستطيع تعويضك عنه .. إنى أثق فى حبك .. ولا أطلب أكثر من أن تكونى دقيقة فى إخلاصك .. وأن تتصرفى دائما كأنى بجوارك .

وضمته إليها وهى تهمس :

— وماذا أيضا ؟

— وكأنك شىء خاص بى .

— أحب أن أسمع منك هذا .. أحبه دائما .. يجب أن تثق فى إخلاصى

— ويجب أن تثقى أنت أيضا فى حبى لك ، وإصرارى على الاحتفاظ بك وبأنه لم يعد هناك شىء يستطيع أن ينزعنى منك .

وأغمضت عينيها وازدادت انكماشا فى صدره .

* * *

وفى اليوم التالى تأخر « سامى » عن الحضور إلى مكتبه .

وأقبل سليم على المكتب .. فلم يجد سوى « فايزة » .. وحياها متسائلا

— أين سامى ؟

— لم يأت بعد .

— ولكنه لم يتعوّد أن يتأخر .

— ربما كان فى سهرة .. ليلة أمس .

— ربما !! .. ألا تعرفين إذا كان فى سهرة أم لا ؟

— لقد انصرفت مبكرة وبقى هو فى المكتب .

وجذب سليم مقعدا وجلس عليه .. وبدت عليه علامات التردد برهة ، وه يحدق فيها ، وهى متشاغلة بأوراق أمامها .

وأخيرا قال سليم :

— اسمعى يا فايزة .

ورفعت فايزة رأسها عن الأوراق التى فى يدها وأجابت :

— نعم .

— أتعرفين شيئا عما يقال عن سامى ؟

وهزت فايزة رأسها متسائلة :

— ماذا يقال ؟

— أحقا لا تعرفين .. أم تتخابثين !؟

— لست أعرف عمّ تتحدث بالضبط .

واقترب سليم بمقعده من فايزة وقال فى ضيق :

— فايزة .. إن كلا منا يحب سامى .. ويخشى عليه .. ولست أعتقد أبدا أنك لم تسمعى شيئا .. أو على الأقل لم تلحظى تغيرا فى تصرفاته .. فأنت إنسانة ذكية .. بل وأقرب الناس إلى سامى .

وصمت سليم برهة .. لعل فايزة تتحدث .. ولكنها لم تخرج عن صمتها .. وضايقه عنادها .. فقال فى ضيق :

— لا تريدين أن تصرحى بشىء .. حسن .. سأقول أنا كل شىء .. فالمسألة فى نظرى أخطر من أن تعالج بالمداراة والصمت .. من أقرب الناس إلى سامى .. لا معنى أبدا لأن نقف منه موقف المتفرّج .. هل تعرفين أنه على علاقة بالمطربة هدى نور الدين ؟

وأطرقت فايزة ، ثم أطلقت تنهيدة وأجابت :

— وبعد !؟

واستطرد سليم متسائلا :

— وهل تعرفين مدى خطورة تورّطه فى هذه العلاقة ؟

ومرة أخرى تنهدت « فايزة » ، وتساءلت فى صوت خفيض :

— وماذا تريدنى أن أفعل ؟

— تستطيعين أن تفعلى الشىء الكثير .. إنه يحبك .

وهزّت رأسها وأجابت فى نبرات حزينة :

— لا أظن .

— على أية حال .. ليس هذا مجال إثبات حبه لك .. إذا كنت لا تعتقدين أنه يحبك .. فلا أظنك تنكرين أن لك قيمة عنده .. وتأثيرا عليه .

— أشك فى ذلك .

وهز سليم رأسه فى غيظ وتساءل :

— إذا كنت تشكين أيضا فى هذا .. فلا أظنك تشكين فى أنك تحبينه .

وتصاعد الدم إلى وجهها وصمتت برهة حتى تتالك .

وعاد هو يستحثها متسائلا :

— لماذا لم تجيبى ؟

— هب أننى كذلك .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟

— تصارحينه وتطلبين منه أن يوقف هذه العلاقة .

وهزت فايزة رأسها فى استنكار وأجابت :

— هذا آخر ما أستطيع فعله .

— لماذا ؟

— لأنى – كما افترضت أنت – أحبه .. وحبى له يجعلنى طرفا فى المعركة

— أية معركة هذه !؟ ليس هناك وجه للمقارنة بينكما .. إنك على الأقل تتميزين .. بأنك تحبينه .

— وهى ؟

— لا أظنها تعرف الحب .. إن المسألة بالنسبة إليها .. مجرد نزوة .. أو تجربة جديدة مع نوع جديد من الناس .. أو لعلها ترى فيه وجها من وجوه الاستغلال

— إذا كان الأمر كذلك .. فماذا نخشى عليه .. إنه ليس غبيا .. وهو لا بد أن يكشف المسألة وينفض يده منها .

— بعد أن تكون قد لوّثته وخدشت سمعته ؟

وبدا الألم على وجه فايزة وهزت رأسها فى عنف وتساءلت :

— وماذا أستطيع أن أفعل ؟

— تحدثينه .

— ولماذا لا تحدثه أنت ؟

— فعلت .

— وماذا قال لك ؟

— قال إنه ليس بينها وبينه إلا مجرد معرفة .. ولكنى علمت أن المسألة أعمق من هذا .. وأن ...

وقبل أن يتم حديثه .. بدا سامى مقبلا من الباب .

ولم يكد يبصر سليم فى تهامسه مع فايزة حتى قال ضاحكا :

— مؤامرة .. أم غزل ؟

وأجاب سليم :

— الاثنين .

ومد سامى يده يشد على يد سليم وهو يقول مازحا :

— احذرى منه يا فايزة .. إنه مخادع كبير .

وسار الاثنان إلى مكتب سامى .. وقبل أن يجلس سامى قال سليم :

— لا أظن هناك وقت للجلوس .. لقد حان موعد الاجتماع .

ونظر سامى إلى ساعته .. قائلا :

— فعلا .. لقد أزف الوقت .. كان مفروضا أن أجهز بعض نقط للمناقشة .. ولكن لا أظن الوقت يسمح .. على أية حال إنها حاضرة فى ذهنى .

ورد سليم وهو يسير بجواره متجهين إلى قاعة الاجتماع :

— إن الشيوعيين يحاولون كسب أراضى جديدة كل يوم .

— إن واجبنا أن نحذر منهم دائما .. يجب ألا ننسى ماضيهم بيننا وموقفهم العدائى للقومية العربية منذ عام ١٩٤٠ عندما حاولنا معاونة ثورة رشيد الكيلانى فى العراق .

— لا فائدة .. فقد نسيناه فعلا .. إننا طيبو القلب .. لقد غفرنا لهم ماضيهم .. بعد أن ساروا فى طريقنا .

— إنهم لا يسيرون فى طريقنا .. إنهم يتخذوننا رفاق طريق ..) وعندما

يستنفدون أغراضهم منا سيقلبون لنا ظهر المجن .

— ولكنهم استطاعوا خداع الكثيرين .

— واجبنا دائما أن نكشف الخداع .. وألا نجعل مساعدات الاتحاد السوفيتي وصداقته وسيلة لسيطرة الشيوعيين على الشعب وتمكينهم منه .. ومن تنفيذ خططهم فيه .. وواجبنا أن نضرب على كل يد تحاول العبث بمقدراتنا وسلب مكاسبنا التى أخذناها بدمائنا من الاستعمار .

وهز سليم رأسه حائرا وقال :

— مشكلة .. لست أدرى كيف نوفق هذا الخلط .. إذا كان الاتحاد السوفيتي يقف فى جانبنا ضد الاستعمار .. ويقدم لنا .. كل ما حرمنا منه الاستعمار .

— إننا نرحب بكل ما يقدمه لنا الاتحاد السوفيتي كدولة صديقة .. ما دام لا يفرض علينا شروطا تقيد حريتنا أو يفرض علينا أى نوع من أنواع التبعية .. نحن نتعامل معه .. دولة لدولة .. ولكننا نقاوم .. كل محاولات التسلل فى قاعدتنا الشعبية .. لاستغلال عواطف الجماهير .. وسوقها إلى مبادئ تفرض عليها التبعية الشيوعية .. لا ينبغى أن يستغل أفراد منا .. موقف الصداقة من الاتحاد السوفيتي .. ليسرى كالسرطان ويستفحل ويسيطر ، ثم يجرنا من أعناقنا إلى تبعية جديدة .

— مفهوم .. مفهوم لى .. ولك .. ولكنه يحتاج لجهد كبير .. لكى تفهمه الجماهير .

— إن هذه هى رسالتنا .. وذلك هو واجبنا .. ولا أظن الجهد الكبير ، سيثقل أكتافنا .. إننا أهل له .

— أرجو هذا .

— يجب أن نقاوم دائما .. كل عناصر التسلل التى يمكن أن تزعزع إيماننا بمبادئنا ومقدراتنا وبقوميتنا العربية .

ووصل الاثنان إلى حجرة الاجتماع التى احتشد فيها جمع من الشبان .. أقبلوا على سامى وسليم مرحبين بهما فى حماس ومودة .

وجلس الاثنان بين بعض نواب الحزب ، يحيط بهم الشبان . وبدأت المناقشة .. حول موقف الحزب من الشيوعيين .. واتخذت المناقشة شكلا مضطربا متأرجحا .

وجلس سامى صامتا يرقب المناقشة .. وهو يرى مدى تأثر الشباب بمساعدات الاتحاد السوفيتي .. والنظام الشيوعى .

وقال أحد النواب :

— إن زعماء الاتحاد السوفيتي هم أصدقاؤنا الوحيدون .. لقد وقفوا دائما معنا .. إنهم أنصار السلام والحرية .. وأعداء الاستعمار .. وكل من يسيء الظن بهم .. لا يمكن أن يكون إلا لسانا للاستعمار الأمريكى .

ونظر إليه سامى قائلا :

— هذا كلام خطير .. لا نقبله .. إنى أعلن بينكم أنى أسيء الظن دائما بالشيوعيين فى بلادنا .. وتاريخهم .. يؤيد دائما سوء ظنى .. منذ أن دلفوا إلى بلادنا على يد المستعمر .. فى ١٩٣٠ بواسطة الأكراد والأرمن الشيوعيين ، وهم يقاومون القومية العربية تحت ستار زائف من الإنسانية .. وفى عام ١٩٣٦ عندما كوّنت الجبهة الشعبية فى فرنسا واشترك فيها الحزب الشيوعى الفرنسى فى حكم « بلوم » ورفض الشعب كله معاهدة ١٩٣٦ الجائرة .. أيد الشيوعيون هذه المعاهدة مدعين أن الحكم فى فرنسا قد أضحى حكم ثورة .. وأنه ما دام الحزب الشيوعى الفرنسى مشتركا فى الحكم .. فلا يمكن أن تكون المعاهدة التى تعرضها فرنسا .. إلا معاهدة شرف .. وحرية .. وفى عام ١٩٤٠ وقف ضد القومية العربية التى حاولت أن تؤيد ثورة الكيلانى متهما إياها بالنازية .. وعندما انتصر الحلفاء .. سارت مظاهرات الشيوعية .. تطلق النار فى شوارع دمشق مبتهجة بالنصر ، وتعلق صورة ستالين وديجول .. بينما كان زعماء سوريا الذين ثاروا من

أجل الحرية والاستقلال مشرّدين أو ملقى بهم فى أعماق السجون .. وخلال الحرب أيام حكومة فيشى كان الشيوعيون أول المتسببين فى تشريد هؤلاء الزعماء بوشاياتهم التى اتهمتهم بالنازية .. هذا هو ماضى الشيوعيين .. وأنا أسىء الظن بهم علنا .. وأتحدى من يتهمنى بأنى لسان الاستعمار الأمريكى .

وساد الوجوم برهة .

وازدرد سامى ريقه ثم واصل الحديث قائلا :

— ومن ذلك .. أنا لا أقول أبدا .. برفض التعاون مع الاتحاد السوفيتى .. ولكنى أقاوم بكل ما أملك التبعية الشيوعية .. إن طريقنا واضح .. نحنُ القوميين نتجه إلى الحياد .. إلى موقف الوسط .. ولكن لن نسمح لأحد بأن يدفعنا إلى أكثر من ذلك .

إن الحماقة أن نرفض معونة الذى يمد لنا يد الصداقة .. ولكن الحماقة الأشد أن ندع أحدا من بيننا يجعل من هذه اليد وثاقا يكبلنا به .. ويشدنا إلى تبعية جديدة أو استعمار جديد .

إننا نتشارك الآن مع الشيوعيين فى طريق .. وسنظل سائرين حتى نصل إلى نقطة الحياد .. وسنكون على أتم استعداد للثبات فى موقفنا .. على أتم استعداد للصراع من أجل كياننا واستقلالنا .. ولن نخشى أن نخوض غمار أية معركة جديدة فى سبيل الاحتفاظ بحريتنا وحيادنا .

وصمت سامى .

وأجاب النائب متصنعا الدهشة :

— لِمَ كل هذا يا أستاذ سامى ؟! نحن لم نقل شيئا !

— بل اتهمت كل من لا يسير فى ركاب الشيوعية بأنه لسان المستعمر الأمريكى .. وهذا إرهاب لا نقبله .. يجب أن تعرف أن هناك من لا يسير فى ركابهم .. من غير أتباع الغرب .. هناك المؤمنون بالقومية العربية .. وهم كل الشعب .

وضحك النائب قائلا :

— لا تغضب هكذا .. إنى لم أحاول أبدا .. تجريحك .. أو التشكيك فى وطنيتك .. نحن أصدقاء .. والقوميون العرب والشيوعيون أصدقاء .

— القوميون العرب .. أصدقاء .. لكل الأصدقاء الذين يمدون لنا يد العون .. دون قيد على حريتنا أو انتهاك لاستقلالنا .

وصفق الشباب بحرارة .. وانتهى الاجتماع بعد بضع مناقشات .

وخرج سامى وسليم .

وعاد سامى إلى مكتبه ، ومر سليم بفايزة ، وسألته فايزة :

— ماذا فعلتم ؟

وهز رأسه قائلا فى أسف :

— خسارة .

— ما هى هذه الخسارة ؟

— أن يزلزل مركز هذا الأحمق .. أو تشوّه سمعته ، لقد كان اليوم رائعا .. لا يمكن أن تتصورى مدى إيمان الشباب به .

وأطلقت فايزة زفرة حارة وقالت :

— ربنا يستر .

ثم نهضت وإياه .. متجهين إلى حجرة سامى .

٩

فى وضح النهار

أقبلت « فايزة » على « سامى » وقد أمسكت بعض أوراق لعرضها عليه ، وقبل أن تمد يدها بالأوراق قال :

— عبد الوهاب بك طلبك لدعوة على الغداء .

وقبل أن يجيب « سامى » تدخل سليم قائلا :

— أنا أيضا قد دعيت إليها .

وتساءل سامى :

— ما سببها ؟

— تكريما لوفد الأدباء المصريين .. أمرتبط بشىء ؟

— أبدا .

— إذن نذهب سويا .. سأمر عليك بعد أن أذهب إلى وزارة الداخلية .

— سأكون فى انتظارك .

وخرج سليم ، ووقفت « فايزة » بجوار « سامى » تعرض الأوراق التى فى يدها .. ونظر إليها « سامى » وهو يمسك إحدى الأوراق وتساءل :

— ما بالك يا فايزة ؟

وردت « فايزة » فى لهجة مقتضبة :

— لا شىء .

— بل تبدين غير طبيعية .

وهزت « فايزة » رأسها متسائلة :

— من أى ناحية ؟

— لا أجد على ملامحك الابتسامة التى تعوّدتها .

وابتسمت فايزة :

— إنها زحمة العمل .

— فقط ؟

— لا أظن هناك سواها .

— أليس هناك ما يقلقك ؟

وهزت « فايزة » رأسها بالنفى دون أن تجيب .

وقبل أن تتناول منه الأوراق دق جرس التليفون ورفع « سامى » السماعة وأجاب :

— آلو .. أهلا .

وقبل أن ينطق بكلمة أخرى .. كانت « فايزة » قد انسحبت .. فى سكون .. وهى تحاول أن تخفى من وجهها أية علامة من علامات الانفعال .

وسمع « سامى » صوت « هدى » تتساءل :

— أعندك أحد ؟

— فايزة .. وقد خرجت .

— ماذا تفعل الآن ؟

— كنت أقرأ بعض الأوراق .

— أأستطيع أن أحدثك ؟

— دائما .

— لا أظن .. أحيانا .. يكون صوتك غير مشجع على الكلام .. عندما تكون مشغولا .. أو يكون عندك أحد ، وأحس بلهجتك جادة أكثر مما يجب .

وضحك سامى وقال :

— وكيف تحسين لهجتى الآن ؟

— نصف .. نصف .

وهمس « سامى » وقد قرب السماعة من فمه :

— أحبك .

وأجابته هامسة :

— وأنا أعبدك .

— أتريحك هذه اللهجة ؟

— لا أتصور أن تحدثنى بغيرها .. لست أحب لهجتك الجادة مع الناس .

— وأنا أيضا .. لا أتصور أبدا أن تحدثينى باللهجة التى تحدثين بها الناس عندما تحاولين صدهم .

— لن أحدثك بها أبدا .. سأحبك دائما .. دائما .

وقبل أن يرد عليها .. طرق الباب وبدا رأس « فايزة » من خلاله .

وصمت « سامى » .. وبدا عليه شىء من الارتباك ، وكسا ملامحه مظاهر الجد .

وعادت « هدى » تتساءل :

— وأنت ؟

وأجاب « سامى » بلهجته الجادة :

— وأنا أيضا .

وصدمت « هدى » من لهجته الجافة .. ولكنها أحست أن شخصا ما قد دخل عليه .. وقال « سامى » معتذرا :

— ثانية واحدة .

ثم وجه القول إلى « فايزة » متسائلا :

— نعم يا فايزة ؟

— شفيق بك على التليفون الآخر يسأل إن كنت ستحضر محاضرة اليوم ؟

— أجل .

واختفت فايزة ..

ووضع « سامى » السماعة على أذنه وقال معتذرا :

— متأسف ، لقد دخلت فايزة . لـ ..

وقاطعته « هدى » قائلة :

— لا أحب فايزة .

— لِمَه .. إنها فتاة طيبة .

— أحس دائما .. بأن شيئا ما كان بينكما .

— لم يكن بيننا شىء أبدا .

— كان يمكن أن يكون .. لو لم أدخل حياتك .

— جائز .. وأعتقد فى هذه الحالة .. أنها هى التى يجب ألا تحبك .

— ومن أدراك أنها لا تفعل ؟

— لأنها لا تعرفك .. أعنى أنها لا تعرف ما بيننا .

— أتعتقد هذا ؟!

— أظن .

— دعنا منها .. ماذا ستفعل اليوم ؟

— لا شىء أكثر مما أفعل كل يوم .

— ماذا تفعل الآن ؟

— لماذا تسألين ؟

— لأنى أحس بوحشة إليك .. وأود أن أراك .

— الآن ؟!

— ألا تحب أنت ؟

— طبعا أحب .. فى كل ثانية أحب أن أراك .. وأن أسمع صوتك .

— أيمكن أن نتناول الغداء سويا ؟

وصمت برهة .. فأحست من تردده بشىء من المرارة وقالت وفى صوتها رنة أسى :

— لا ضرورة لأن تقول نعم .. أنا أقدر ظروفك .. إنها مجرد أمنية تمنيتها .. انس ما قلت .

وأصابته من رنة الأسى فى صوتها .. لسعة ألم .. إنه يحبها أكثر من أى إنسان فى هذه الدنيا .. ويتمنى لو استطاع أن يمنحها أقصى ما يمكن أن يمنحه رجل لامرأة يحبها ويحترمها .

وأحس بضيق .. من مركزه .. ومن عمله .. ومن كل ما يحول بينه وبينها ، أو يجعل من حبه إياها شيئا مشينا يجب أن يمارسه خلسة .. ويُحكم حوله الستار .. كذنب من الذنوب .

ولم يطل تردده وأجابها فى لهجته الرقيقة التى لا يحس قدرة على النطق بها .. إلا فى حديثه .. معها :

— يا حبيبتى .. هل أحزنك ترددى !؟ إنى أكره أن أولمك .. لقد ترددت لأنى مدعو على الغداء مع عبد الوهاب بك رئيس الحزب .

ولم تجب .. وأحس من صمتها .. بالأسى الذى يعتمل فى نفسها وناداها :

— هـدى .

وأجابت فى صوت خفيض :

— نعم .

— سآتى لتناول الغداء معك .

— غير معقول !

— لماذا ؟

— لأنى أكره أن أسبب لك أى اضطراب فى عملك .

— لن يكون هناك اضطراب .. سأعتذر له بأى شيء .

— قلت لك لا .

— أترفضين دعوتى على الغداء ؟

— أجل .

وأحس بشيء من الضيق .. رغم أنه يعرف أنها لا تقصد ما تقول .. وأجابها :

— لعل شيئا جديدا قد طرأ ؟!

— ربما .

— ضيف آخر ؟

— ربما .

وزاد إحساسه بالضيق .. وبدأ خيط من الشك يتسرب إلى نفسه .. وقال متسائلا :

— من هو ؟

— صديق .

— رياض ؟

— جائز .

وصمت « سامى » .. وأحست « هدى » بما أصابه من شك .. فعلت ضحكتها وهتفت بجملتها التقليدية التى تهتف بها كلما بدرت منه بادرة حماقة :

— يا حبيبى .. يا غبى .. أتظن أنى أفضل عليك إنسانا فى هذا الوجود ؟

ولم يجب .. فعادت تتساءل :

— أحقا قد أغضبتك ؟

وأجاب فى لهجة عدم اكتراث :

— لا .. أبدا .. سأذهب إلى دعوة عبد الوهاب بك .

— بل ستأتى إلىّ .

ولم يجب ، فعادت تهتف مؤكدة :

— سأنتظرك .

ووضع « سامى » السماعة .. ودق الجرس .. وأقبلت « فايزة » فقال لها :

— لقد طرأ ما يدعو إلى اعتذارى عن دعوة عبد الوهاب بك .. وربما أتأخر عن المحاضرة أيضا .. فاطلبى شقيق بك واعتذرى له وسأعتذر أنا لعبد الوهاب بك .

ووقفت « فايزة » أمامه .. وقد كست وجهها ستارا من الجمود أخفى وراءه انفعالها .. وأجابت فى لهجة مقتضبة :

— حاضر .

وغادرت « فايزة » الحجرة .

وبعد بضع دقائق كان « سامى » يستقل إحدى عربات الأجرة إلى بيت « هدى » بعد أن اعتذر عن دعوة رئيس الحزب .

وفى البيت .. وقفت « هدى » فى المطبخ ، وقد ارتدت « المريلة » البيضاء .. وانهمكت فى إعداد الطعام .

ونظرت إليها « أم حبيب » متسائلة فى دهشة :

— أيفعل الحب كل هذا ؟

— وأكثر من هذا .

— وما النهاية ؟

— أكره أن أفكر فيها .. لا تكاد تراود ذهنى حتى أبعدها عنه .

— أسعيدة أنت بحياتك الآن ؟

— لا أظن هناك على الأرض مخلوقا أسعد منى .

— أتعرفين أنك تتباعدين رويدا رويدا .. عن حياتك الطبيعية .. وعن أصدقائك وصديقاتك ؟!

— لم يعد يهمنى أحد سواه .

— والوحشة التى تحسين بها فى وحدتك عندما يغيب عنك .

وتنهدت « هدى » وغامت على وجهها سحابة حزن وقالت :

— أحتملها أحيانا .. وأضيق بها أحيانا أخرى .. ولكن عندما أفكر فى احتمال حرمانى منه .. أحمد الله على الساعات التى أقضيها معه ، وأقول لنفسى « يكفينى بضع دقائق لأراه » .

— إلى متى سيظل احتمالك هذا ؟

— سيبقى ما دام يحبنى .

— ألا تطمعين منه فى أكثر مما يعطيك ؟

— لا أطمع .. ولكنى أحلم .

— بماذا تحلمين ؟

وقبل أن تجيبها دق الجرس .. وهمت « أم حبيب » بالذهاب لفتح الباب ، ولكن « هدى » اندفعت فى فرحة لتفتحه .

وفتحت الباب وخطا « سامى » إلى الداخل .. وردت الباب .. ثم ارتمت فى أحضانه :

وظلت فترة ساكنة فى صدره .

ثم رفعت إليه وجهها وقالت :

— لا تتصور .. كم أسعدنى مجيئك !

— لماذا لم تدعينى من قبل ؟

— هناك أشياء كثيرة أحب أن أدعوك إليها .. ولكن خشيتى عليك تجعلنى أتردد وأحجم .. عندما أفكر فى أنه قد يحدث ما ينزعك منى .. أفضّل أن أحرم نفسى من كل شىء ، وأقول لنفسى .. يكفى أن أحس أنك موجود .. وأنك تحبنى .

وتوقف « سامى » وضمها إليه وهمس فى أذنيها :

— لقد بتُّ أشعر أنى موجود .. من أجلك .. ومن أجل حبك .

وتحسس أنفها بأنفه قائلا :

— أحب أن أتحسس أرنبة أنفك .

وقبل أن تنطق سمعت وقع أقدام « أم حبيب » تقدم من ناحية المطبخ ، فانتزعت نفسها من بين ذراعيه .

وبدت « أم حبيب » تتهادى فى خطواتها المتثاقلة .. وحياها سامى باسما :

— صباح الخير يا أم حبيب .

وتهللت أسارير « أم حبيب » ، وهى ترد عليه قائلة :

— صباح الخير يا سيدى .. نوّرت البيت .

واتجهت إلى حجرة الطعام لتعد المائدة .. وقالت « هدى » ، وهى تتجه إلى المطبخ :

— اخلع جاكتتك واسترح فى الحجرة .. حتى أتمم بقية الطعام .

وابتسم « سامى » ، وهو يتجه وراءها إلى المطبخ :

— أحب أن أراك فى المطبخ .

ووقفت « هدى » تقطع « الخيار والطماطم » .. ووقف « سامى » وراءها ، وقد ضمها بذراعيه ووضع فمه وأنفه فى شعرها .. وقال ضاحكا :

— أحب رائحة الطعام فى شعرك .

— لا تسخر منى .

وحاول « سامى » تقليدها قائلا :

— يا حبيبتى يا غبية .. أنا أحبك دائما كما أنت .. أحبك فى البيت .. لأنى أشعر أنك ملكى أنا .. إنى أكره زينتك .. أكره شَرطة الكُحل فى جانب عينيك .. والأحمر فى شفتيك .. لأنى أشعر أن ذلك وجهك الخارجى الذى تمنحينه للناس .

— لم يعد لى ما أمنحه لغيرك .. كل ما بى قد بات لك .

وسمع صوت خطوات « أم حبيب » عائدة إلى المطبخ ، فأفلت جسمها من بين ذراعيه وقال :

— لماذا لا تستقر هذه العجوز فى مكان واحد ؟!

وضحكت « هدى » قائلة :

— لا تقلق .. ستذهب لزيارة ابنتها بمجرد أن تعد المائدة .

— إذن فسأساعدها فى إعدادها .

وتناول « سامى » الشوك والملاعق .. وبدأ يساعد « أم حبيب » فى إعداد المائدة .

وحاولت « أم حبيب » أن تثنيه قائلة :

— أنتَ ضيفنا يا سيدى .

— كنت أظننى صاحب بيت .

وابتسمت « أم حبيب » وهزت رأسها وتمتمت قائلة :

— ليتك تكون .. إننا فى حاجة إليك .

وأحس « سامى » كأنه قد تورّط فى جملته .. وقال :

— إنى فى خدمتكم دائما .

وأحست « هدى » بما أصابه من حرج .. ونظرت إلى « أم حبيب » نظرة لوم . كانت تكره أن تشعره بأى حرج .. أو أى رغبة فى مطلب لا يملك منحه .. كانت تود دائما أن تشعره برضائها وقناعتها .. وعندما كانت تحس بلوعة فراقه ووحشة بعده .. كانت تطوى آلامها فى نفسها .. وتتظاهر بالرضاء .

وانتهى إعداد الطعام .. وكانت الحجرة تشرف على النهر بشرفة عريضة .. وجلس « سامى » فى المكان الذى أعدته له « أم حبيب » .. ظهره إلى باب الشرفة الزجاجى .. ووجهه إلى المطبخ .

وقبل أن يبدأ « سامى » الطعام نظر إلى « هدى » وقال ضاحكا :

— لماذا أجلستنى العجوز وظهرى إلى الدنيا .. ووجهى إلى الحائط .. كأنى طفل مذنب .

وضحكت « هدى » قائلة :

— لابد أنها أرادت عقابك .

— لم أفعل بها شيئا .. يستحق العقاب .

— فعلت بى .

— أنا ؟!

— أجل .. أسرْتنى .. وقيّدتنى .. وأفقدتنى كل إحساس بالدنيا من غيرك .

— أنادمة أنت ؟

ومدت يدها تتحسس يده ونظرت إليه نظرتها الولهَى وقالت :

— أندم .. على حياتى !؟ أندم على خَلْقى من جديد ؟

وأجاب « سامى » ، وهو يرفع يدها إلى شفتيه :

— إذن فأنا غير مذنب ؟!

— بتاتا .

— ولا توافقين عل عقابى ؟!

— بالمرة .

وأسرع « سامى » بنقل مقعده إلى الجانب الآخر .. فواجه النهر .. والشجرة المورِّقة .. والسماء الزرقاء .. تمس حافة الجبل .

وقال « سامى » وقد شرد بصره من خلال الشرفة :

— لقد بات هذا المنظر جزءا من كيانى .. هذه الشجرة بأوراقها المهتزة وفروعها المتمايلة .. والنهر الجارى .. والسماء والجبل .. باتت كلها .. شيئا ملتصقا بك وبحبك .. بأعز شيء فى حياتى .

وشردت « هدى » هى الأخرى ببصرها .. قائلة :

— أحيانا أسبح ببصرى فيه .. ثم أحس أنه قد يصبح يوما .. مجرد ذكريات .. مجرد صورة .. تذكرنا بأننا قد عشنا فيها يوما .. عندما أذكر أننى قد أجلس إليها وحيدة .. بعد أن تخلو حياتى منك .. أحس بالدمع يطفر من عينى .

وأحس « سامى » .. بصوتها يختنق .. وبالدمع يطفر من عينيها .. ومن عينيه .

وأدار وجهه .. وحاول ابتلاع دمعه .

وأمسك يدها وهتف هامسا :

— لماذا .. تقولين هذا ؟

— لأنه سيحدث فى يوم ما .

— لنْ يحدث .. لن أتركك أبدا .

ومدت أصابعها فمسحت دمعتها السائلة .. وهتفت :

— خِلتُنى أحببت ذات مرة .. ولكنى عرفت الآن .. ما هو الحب .

وصمتت برهة تحاول التمالك ثم قالت :

— لا يمكن أن تعرف الجهد الذى بذلته لكى أمنع نفسى من دعوتك .. ولكن رغبتى كانت أقوى من جهدى .. كنت كالطفل الذى يصر فى عناد على رغبته .. لقد تمنيت أن أراك تعيش معى .. وأن أحس بك كجزء من حياتى الطبيعية .. وددت أن أراك تدخل المطبخ .. وتجلس إلى المائدة .. وتتصرف كأنك موجود فى حياتى .. كأصل دائم .. تعيش معى فى وضح النهار .. لا زائر عابر .. يستتر بستر الليل .. ويختلس الزيارة فى جنح الظلام .. من أجل هذا غامرت بدعوتك .. اعتبرها نزوة .. واغفرها .

وضغط « سامى » على كفها وهو يضمها إلى شفتيه وأجاب :

— نزواتك .. نزواتى .. ورغباتك رغباتى .. ومشاعرك مشاعرى .. ما أظنك تمنيت شيئا إلا وتمنيتُه .. وما أظن هناك مخلوقين متطابقين .. متشابهين .. مثلنا .. كم تمنيت أن أخرج بك إلى العالم كله .. لأقول لهم إنى أحبك وأحترمك .. وأنك سيدة الناس ، وأنك أميرتى .. وأعز شيء عندى فى هذه الدنيا .

١٠

دعه يدق

دقت الساعة الثانية عشرة مساء .. وكانت شلة « رياض عبد الدايم » قد التفت حول منضدة اللعب فى نادى الشرق .

وتناول « رياض » بقايا كأسه ، ثم أزاح مقعده بعيدا عن المنضدة .

ورفع فؤاد رأسه ونظر إليه متسائلا :

— ما بالك ؟

وهز رياض رأسه قائلا :

— كفى .

— لِمَه ؟

— حظّى نحس هذه الليلة .

— العب يا أخى .. قد تعوّض خسائرك .

— لا .. ليس لى مزاج .

— كن رجلا .. والعب .

ونظر إليه رياض وضحك من أنفه ضحكة ساخرة وقال :

— أنت تعرف جيدا أنى رجل .. ولكن لا أحب أن أضيع نقودى بلا فائدة .

وصب فؤاد ما تبقى من زجاجة الويسكى فى كأسه .. ووضع بها بضع قطع من الثلج ثم صاح ساخرا :

— منذ متى ؟

وأجاب رياض وهو يضع ساقا على ساق :

— دائما .. يا حضرة ...

— حتى مع صاحبتك ؟

وأخذ رياض من ردّه .. وصمت برهة .. ثم تساءل فى حذر :

— صاحبتى من ؟

وترك الأصحاب ما بأيديهم .. وبدأوا يرهفون أسماعهم ، ونظر سليم إلى فؤاد فى شىء من الريبة والشك .

ورشف فؤاد رشفة كبيرة من كأسه ثم قال ضاحكا :

— صاحبتك إياها .

ورد رياض هازئا :

— من تقصد ؟! إنهن كثيرات .

— صاحبتك التى نَحَلَتْ وَبَرَك .. وغرّمتك الجلد والسَّقَط .

وصاح واحد من الصحاب وهو يقرع الكأس على المائدة :

— قل يا أخى .. فلَقْتنا .

وصاح فؤاد ضاحكا :

— هدى نور الدين يا أستاذ .

وبدا التجهم على وجه رياض ، وأنزل ساقه ، ومال تجاه المنضدة متسائلا فى حدة :

— هدى ؟!! من قال إنى أصرف على هدى ؟!

وأجاب فؤاد فى لهجته العابثة المستهترة :

— من أين لها إذن بهذه الشقة الفاخرة .. والبذخ الذى تعيش فيه ؟

— من عملها .

وقهقه فؤاد قائلا :

— عملها ؟! .. أو عملك !! على أية حال .. أنت رجل طيب .. أنت تدفع وغيرك يستمتع .. العب يا أخى .. العب .. لعلك اشتريت لها .. خاتم أو أسورة .

وتصاعد الدمُ إلى وجه رياض .. وصاح أحد الأصحاب ضاحكا ..

وهو يوجه السؤال إلى فؤاد :

— عرفنا الذى يدفع .. فمَن الذى يستمتع ؟

وأفرغ فؤاد الكأس فى جوفه وأعاده إلى المائدة فى طرقة عنيفة ، وعاد يقهقه .. وقد أفقده الشراب وعيَه وصاح :

— الذى يستمتع ؟!!

ثم نظر إلى سليم واستطرد يقول ساخرا :

— قل لهم يا سليم .. قل لهم .. مَن المستمتع الأكبر .

وازدرد سليم ريقَه .. ونظر إلى فؤاد نظرة زاجرة وصاح به :

— كفى هذرا .

واستمر فؤاد يقول فى لهجته العابثة :

— قل لهم يا أخى .. عن المستمتع بأموال الرجل الطيب وبضاعته .. قل لهم عن صاحب الأخلاق القويمة والمثل العليا الذى يذهب ليرتمى على الصدر الطرى .. وينعم بالأحضان الدافئة .. قل لهم ...

وصرخ فيه سليم :

— فؤاد .. أفق لنفسك .

وصاحت الشلة ضاحكة .. وقد التفوا حول فؤاد مهللين :

— قل يا فؤاد .. مَن الذى يرتمى على الصدر الطرى ؟!

وأحس رياض بالدماء تغلى فى عروقه .

وطافت بذهنه .. صورة « هُدى وسامى » عند حمام بلودان .

وتذكر كثرة هروب « هدى » من مواعيده .. وتبدُّل أحوالها .

وقبل أن يسترسل فى أفكاره .. سمع فؤاد يصيح فى لهجته الهاذرة المخمورة :

— الجماهير تلح يا سليم .. الجماهير تريد أن تعرف .. مَن هم المنتفعون برفيقات الآخرين .. سأقول وأمرى إلى الله .

ونظر إلى رياض واستطرد قائلا :

— هل أقول يا رياض ؟

وصاح به رياض :

— أنت حمار .

— أنا ؟ .. أنا الذى أصرف .. لأترك الأستاذ سامى كرم .. يستمتع .

وصاحت الشلة .. فى أصوات مختلطة هاذرة :

— سامى !!

وصاح الآخر :

— قديمة .

وصاح ثالث :

— عندها ذوق .

ورسم رياض على شفتيه ابتسامة صفراء وأجاب متصنعا الهدوء :

— أنا أعرف « هدى » كصديق قديم .. وأستبعد أن يكون لها علاقة بأحد .

وصاح فؤاد :

— لماذا يا أخى ؟! لماذا تستبعد عليها الاستمتاع ؟

ونهض سليم .. فجذب فؤاد من ذراعه بعنف .. وقال له فى غضب :

— إذا لم تكفّ عن هذيانك ، سأعرف كيف أسكتك .. فاهم ؟!

وأجاب فؤاد :

— فاهم يا أستاذ .. فاهم .. فاهم .. يا صديق المستمتع .. فاهم يا أصحاب المبادئ .. والمُثل .. و .. و .. الخ .

وعاد سليم يهزّه فى عنف قائلا :

— أجل أصحاب مبادئ .. ومُثل .. إننا على الأقل لا ندعى الشيوعية .. ولا نحيا حياة البذخ والسفَه التى تحياها ، نحن لا نحتقر الشعب ، ولا نسوم أتباعنا الحرمان .. نحن نؤمن بما نقول ، ونفعل ما ننادى به .. نحن لا نستورد مبادئ ، لا نؤمن بها .. أنت تعرف أنك كاذب مخادع .. منافق .. أنت تعرف جيدا .. من هم

أسيادك ، وتعرف جيدا ماذا تريد من الشيوعية التى تدعيها .. أم تريد أن أعرّفك حقيقتك ؟!

وأطلق فؤاد ضحكة عالية وهو يقول :

— لا داعى .. انتهينا .. مالك تغضب هكذا ؟!! إننا نضحك يا أخى .

— لا تضحك على حساب الغير .. اضحك على نفسك إذا شئت .

وتدخّل أحد الصحاب قائلا :

— كفى يا جماعة .. مالكم قلبتموها غمّا . دعونا نلعب .

ونهض رياض وهو يقول متضاحكا :

— إن المسألة كلها مزاح فى مزاح .. لا تأخذوها جَدا .. السلام عليكم .. نلتقى غدا إن شاء الله .. استعدوا جيدا .. سأسترد كل خسارتى .

وغادر رياض النادى .. تعلو وجهه ابتسامة عريضة ، ولم يكد يستقر فى عربته حتى طارت الابتسامة .. وعاوده التجهم والشرود .

مشكلة كبرى .. هذه المخلوقة .

أم ترى المشكلة كائنة فى نفسه ، وفى مشاعره .

أم تراها المشكلة الطبيعية .. لكل إنسان يريد شيئا لا يملك إمكانيات الحصول عليه .

إنه يحبها .

حبا .. مزمنا .

لا أمل فى الشفاء منه .. ولا وسيلة لعلاجه .. أو استئصاله .

بدأ ذلك منذ ما يربو على العشر سنين .. منذ أن كان صديق العائلة ، وكانت العلاقة بين الأسرتين تكاد تصل إلى درجة القرابة ، وكانت هى تكاد لا تفترق لحظة واحدة عن ابنته ، وحتى عندما تزوجت لم يوهن زواجها الروابط بينهما ، فقد كانت تقضى وزوجها معظم الوقت فى بيتهم .

ومرت به السنون ، والداء يكمن فى صدره . يهدأ أحيانا ، ويهيج أحيانا أخرى .

واستفحل داؤه .. عندما استقر بهُدى المقام معهم فى بيتهم .. عقب انفصالها من زوجها ، وموت أبيها ورحيل أمها إلى بيروت وإصرار ابنته على أن تبقى معهم .. حتى تستقر حياتها وتتبدد أحزانها . وطال بها المقام .. وهو يجدها تتسلل إلى حياته .. فتصبح جزءا منها أو أساسا لها .

ولم يحاول مقاومة تسللها إلى نفسه .

كانت .. عذبة .. رقيقة .. خدوما .

وبدا له أنها يمكن أن تظل جزءا من حياته ، وخُيّل إليه أنه يستطيع أن يمنحها .. الحياة .. المريحة الناعمة ، ولم يشعر أن ثمة مطالب لها .. قد يعجزه عنها الزمن .. القريب .. أو البعيد ..

وفى نوبة من نوبات الحب .. سألها الزواج .

وصمتت .. وبدأت مجموعة المشاعر الطيبة التى تكنها له ، تصارع رغبتها الكامنة فى الاستمتاع بحقها الطبيعى فى الحياة ، ولم تعرف بم تجيبه .. إنها تكره أن تصدمه ، ولكنها فى الوقت نفسه تكره .. أن تصدم نفسها ، وتصدم الناس فيها ، ولم تتصور أبدا ماذا يمكن أن تقول ابنته ، وهى أعز صديقاتها عندما تجدها .. قد ردت جميلها بأن « لطشت » أباها .

وما الذى يكرهها على ذلك .. أمجرّد أحاسيسها الطيبة نحوه ، واعترافها بجميله !؟

لم تملك إلا أن تقدم اعتذارها .. بأرق الأساليب ، وأعقل الوسائل .

ولم يخفف من وقع الصدمة عليه ، إلا إحساسه بأنها ، باقية كما هى .. بقربها منه ومشاعرها الطيبة له .

وحاول أن يروض نفسه على الرضاء بمركزه الممتاز عندها ، وعندما تركت داره لتستقر فى شقتها الفاخرة ، كان عونها الأكبر الذى تستند إليه فى حل مشاكلها وقضاء حاجياتها ، ومع الأيام استطاع أن ينمى حاجتها إليه .. بحيث تتوازن مع حاجته إليها ، وبحيث تصبح الحاجة المتبادلة .. ضمانا مع حاجته إليها ،

وبحيث تصبح الحاجة المتبادلة .. ضمانا لدوام الصلة القائمة بينهما وتوثيق الرابطة التى تشد كلا منهما إلى الآخر .

وكان يمكن أن يرضيَه الوضع القائم .. إلى الأبد ، فما يظن رابطة الزواج كانت تمنحه .. مزايا أكثر ، اللهم إلا حقه فى تقييدها ، وفى رقابتها ، وحتى هذا الحق كان يمنح نفسه سلطة مباشرته .. بطريقة عرفية ، عندما يظهر فى حياتها شبح علاقة تثير شكوكه ، وتوقظ مخاوفه .

وكانت تلك العلاقات ، أو الصلات ، التى لا يمكن أن تخلو منها حياة مخلوقة مثلها .. فنانة ، شهيرة ، جميلة ، شابة .. هى المنغصات التى تؤرقه ، وتكدر صفو حياته .

وكان طبيعيا أن يعتبر أول أهدافه فى الحياة .. مقاومة تلك العلاقات ، والقضاء عليها بكل ما يملك من وسائل ، قبل أن يستفحل أمرها ، وتتعمق جذورها .. بحيث تصبح شيئا حيويا فى حياتها .. يمكن أن يزعزع مركزه ، ويقضى على علاقته بها .

وهكذا جعل منها .. من حبه لها ، ومن غيرته عليها ، ومن خوفه على ضياعها .. ومن هدْم كل ما يحتمل إنشاؤه من علاقة لها بالغير .. شغله الشاغل فى الحياة .. إن لم يكن هو الحياة نفسها .

ولم يكن الأمر يزعجه ، فقد كانت هدى .. أعقل وأذكى من أن تتهور فى علاقة ، أو تنفضح فى صلة ، وكان عقلها دائما ، أقوى فى قيادتها ، من انفعالاتها ، عاطفية كانت أو جنسية .

كانت « هدى » دائما تخطط تصرفاتها .. ولا تتركها أبدا ، للاندفاع والارتجال .

كانت حكمة التدبير .. أغلب عليها من اندفاع النزوة .

ومن أجل ذلك .. ورغم أنه لم يحس أنه استقر منها على مركب سهل .. لم يشعر قط أن زمامها أفلت ، أو أنها اندفعت فى علاقة ما .. بحيث يتعذر كبح جماحها .. عليها أو عليه .

كثيرون اعترضوا سبيلها .. موظفون كبار .. مديرو شركات .. صحفيون .. فنانون .. عشاق .. بلطجية .. من كل صنف .. ومن كل لون .. وكلهم سببوا له أرقا .. وقلقا ، ولكنها .. بعد وقفة هنا وهجعة هناك .. استطاعت أن تتحرر منهم جميعا .. بلطف ورقة ، وبلا مآس ولا فضائح ، ولم يحس ذات مرة أن واحدا من كل هؤلاء المعجبين المحبين .. قد خلف فى نفسها أثرا .. أو ترك وراءه ذيلا .

وقد مضت عليه فترة .. هدوء .. واستقرار .. لم يزعجه طارق على بابها .. ولم يؤرق عينيه طالب صلة .. أو سائل هوى .

حتى ظهر صاحبنا الجديد فى الأفق .

وبدا له عندما وقع عليه بصره أول مرة .. وهو يجلس بجوارها فى بلودان .. مجاملا من سخفاء المحبين .. الذين تعوّد على إزعاجهم .. يطرق بابها متحدثا بألفاظ الغزل السخيف والإعجاب السمج .. وعندما ذكرت له اسمه .. واستطاع أن يميزه .. أحس له بمزيد من الضيق والقلق .. وبدا له أن المغامر الجديد يحمل مزيدا من الأسلحة .

ومع ذلك لم يملك إلا أن يسلم أمره لله .. مهدئا نفسه بأن مصيره إلى الانفضاض والذهاب إلى حال سبيله .. كغيره من المعجبين ، وأكد لنفسه ، أنها ستنتهى منه كما انتهت من غيره ، وأن وهمها فيه .. فى شهرته .. ومركزه .. وخداعها بمظهره ، وشكله .. لابد أن يأخذ حده وينتهى .

وأكدت هى له أنها معرفة عابرة .. وكاد يصدقها .. لولا همسة هنا .. وشائعة هناك .. جددت شكوكه .. وأعادت وساوسه ، وأحس هو من ناحيته ، أن تغييرا ما قد طرأ عليها .

لم يستطع أن يحدد كنهه ، أو يدرك مداه .

وإنما أحس فقط بأن إنسانا ما قد دسّ أنفه فى حياتها بطريقة جادة .. جعلت محاولاتها بأن تبدو حرة التصرّف .. تبوء بالفشل فى كثير من الأحيان .. واضطرها إلى الاعتذار عن بعض المواعيد ، والتخلف عن بعض الدعوات .. والاختفاء بطريقة يتعذر معها على أى إنسان أن يتصل بها .

ولم يملك إلا أن يصبر عليها .. وعليه .

نزوة .. سيفيق منها الاثنان .

امرأة .. بالنسبة إليه . لا يلبث أن ينتهى منها .

امرأة كغيرها من النساء .. لا يلبث أن يملّها .

أما هى .. فستأخذ منه ما يمكن أن تأخذ .. ثم تتجاوزه كما تجاوزت غيره .

إنها مجرد وقفة .. لا تلبث بعدها أن تسير .. متحررة منه ، كما تحررت من غيره .

لا علاج للمسألة إذن .. إلا بأن يكتم مرارته .. ويصبر .

ولقد صبر .. حتى حدث الليلة .. ما أطار صوابه .. وأضاع صبره .

لقد حاول جهده أن يتمالك ويبدو هادئا .. ولكن جوفه كان يغلى .

إن المغامرة .. لم تعد مجرد مغامرة .. لقد أضحت وضعا قائما دائما جعل منه سخرية أمام الناس .

لقد صبر عليها أكثر مما يجب .. لقد حاول أن يأخذها بالحسنى .. ولكنها ضللته وخدعته .

إنه سيعرف كيف يؤدبها .. ويوقفها عند حدها .

وكانت العربة قد بلغت مفترق الطرق أمام فندق سميراميس .

والتفت رياض إلى السائق قائلا :

— اذهب إلى بيت هدى هانم .

وانحدر السائق فى الطريق الموصل إلى البيت .. ولمح رياض الضوء فى نافذة حجرة الجلوس .. وهمّ السائق بالتوقف أمام الباب .. ولكن رياض قال له :

— لا داعى للتوقف .. عد بنا إلى البيت .

وأحس رياض بالدم يغلى فى عروقه .. لقد كان مفروضا ألا تكون هدى فى البيت .. لقد اعتذرت له عن دعوة العشاء .. بأن دورها سيتأخر إلى الثانية .

كان يجب أن يصعد لمواجهتها .

ولكن هبه كان هناك ؟!

ماذا يفعل ؟

أىّ حق له عليها .. حتى يهجم عليها فى منتصف الليل .. ليواجهها مع إنسان آخر !؟

إنه ليس زوجَها .. وليس أخاها .. وليس أباها .

هبها ثارت عليه وطردته ..

ماذا يفعل ؟

لا .. لا .

لا داعى لهذا التهوّر .

وبلغت العربة البيت .. واجتاز رياض الباب .. وقبل أن يهدأ أو يبدل ملابسه .. أمسك بالتليفون وطلب هدى .

ودق جرس التليفون فى بيت هدى .

وفتحت هدى عينيها .. وأحست برأس سامى يستند على ذراعها وقد راح فى إغفاءة .. وأخذت أنفاسه تتردد فى هدوء على ذقنها وعنقها .

وزادت من التصاقها به .. ومدت شفتيها تمس شفتيه برفق .. وأخذت تنقل شفتيها على وجهه ماسة ذقنه وعنقه وعينيه وأنفه .. ثم عادت إلى شفتيه تقبله فى حنان شديد .

وأحست هدى بشفتيه تتحركان تحت شفتيها لترد قبلتها بطريقة لا شعورية .

واستمر الجرس يدق فى إلحاح .

وفتح سامى عينيه وبدت عليه دهشة المستيقظ وسألها قائلا وهو ينصت لدق التليفون :

— التليفون يدق .

وهمست فى شفتيه :

— دعه يدق .

وكف التليفون عن الدق .

وتحسست هدى شعر سامي وعادت تهمس :

ـــ نم حبيبي .. أنت متعب .

وقبل أن يغمض سامي عينيه عاد التليفون يدق .

وقفزت هدى من الفراش فى غيظ وقالت وهى تعدو إلى حجرة الجلوس :

ـــ يبدو أنه مُصِرّ .

وأحس سامي أن الجرس قد كف عن الدق .

وبعد برهة عادت هدى .. تحمل فى يدها تفاحتين وقذفت بإحداهما إلى سامي قائلة :

ـــ أحس بجوع .

وتساءل سامي :

ـــ من كان المتحدث ؟

ـــ لست أدرى .. لقد رفعت البريزة .. وأرحت نفسي .. دعه يدق كما يشاء .

وشرد ذهنها فجأة .

وتساءل سامي :

ـــ ما بالك ؟

ـــ لا شيء .. كان يجب ألا نترك نور الحجرة مضيئا .

ـــ لماذا ؟

ـــ لا داعى لأن يعرف أحد أنى هنا .. وأنى لا أرد على التليفون .

وفى تلك اللحظة كان غضب رياض قد بلغ أشده .. وهو يستمع إلى الجرس يدق دون أن يجيب أحد .

ووضع السماعة بشدة على التليفون .. ثم انطلق بالعربة مرة أخرى إلى بيت هدى .. بعد أن صرف السائق .

وعلى مقربة من البيت أوقف العربة .. وجلس فى مقعده يرقب الباب .

وطالت وقفته .. وعندما كاد ييأس من الانتظار .. لمح سامي يعبر الباب مغادرا البيت فى سكون الليل .

١١

أكثر من الحب

استيقظت « هدى » على طرق بباب حجرتها ودون أن تفتح عينيها تساءلت :

ـــ « هاه » !

وسمعت « أم حبيب » تقول شيئاً .. لم تفهمه .

« وأم حبيب » كثيراً ما تقول كلاماً لا يفهمه أحد .. ولم تحس « هدى » طوال عشرتها معها بضرورة فهمها لكل ما تقوله .. كان يكفيها أن تعرف فى النهاية ما إذا كان يتحتم عليها أن تفعل لها شيئاً نتيجة أقوالها أم لا .

وأمرتها بالدخول .. فدفعت العجوز الباب ، ودخلت تتهادى ، وقد أمسكت بالتليفون ، ووضعته بجوارها على الفراش قائلة :

ـــ سيدى سامي .

وكانت « أم حبيب » تعرف أنه الوحيد الذى يملك إيقاظها من النوم .. وهى سعيدة راضية .. فلم تحاول أن تعتذر بكلمة عن إزعاجها .. وقبل أن تغادر الغرفة تساءلت :

ـــ أعدّ الإفطار ؟

وهزت « هدى » رأسها وهى تسحب جسدها من الفراش مسندة ظهرها إلى الوسادة .. ورفعت السماعة إلى فمها .. وقبل أن تنطق بكلمة عادت العجوز تتساءل :

ـــ عباس يسأل ماذا تريدين من السوق ؟

وأشارت لها « هدى » بيدها فى ضيق لكى تنصرف .. وهتفت فى

السماعة فى صوت رقيق :

ـــ صباح الخير .

ولم تنصرف « أم حبيب » فقد بقى لديها سؤال أصرّت على أن تسأله .. فقالت وهى تخطو خارج الباب :

ـــ وحساب الأمس ؟

وهزت « هدى » رأسها فى غيظ ، وقبل أن ترد على سامى قالت لها محتدة :

ـــ أهذا وقته ؟! كأن الدنيا طارت !!

وخرجت « أم حبيب » وردت الباب خلفها .. وهى تتمتم قائلة :

ـــ لقد طارت فعلا .. ومعها كل ما تملكين من عقل .

وهزت كتفها وهى تردد لنفسها :

ـــ جرّبته ذات مرة .. هذا الذى يسمونه الحب .. نسخر منه ونحن بعيدون عنه .. فإذا ما أصابنا .. سخرنا من كل شىء فى دنيانا سواه .

وأمسكت « هدى » بالسماعة وكأنها أم تحتضن وليدهــا .. ودارت المحادثة رقيقة مريحة ناعمة .. ملؤها الحب والغزل والتدليل .. ولم يكن واحد منهما يخطر بباله أن يناجى إنسانا بمثل هذه الرقة والحنو ، ولم يكونا يملاّن المناجاة مهما طالت ، ومهما استعيدت ألفاظها .. كان كل منهما يحس أنه يناجى طفله الحبيب المدلل .. الذى لا يمتعه شىء قدر أن يسترسل فى مناجاته وتدليله بأعذب الألفاظ وأرق الأوصاف .

وأخيراً وضعت « هدى » السماعة بعد أن مستها بشفتيها وهى تهتف به :

ـــ مع السلامة يا حبيبى ، مع السلامة يا أعز إنسان .

وأحست « هدى » بالسعادة تغمرها .. والأمل يملأ جوانحها .

الأمل ؟! أى أمل ؟

الأمل فى كل شىء .. وفى لا شىء .

الأمل فى أن يظل ملكا لها .. فى أوهامها .

كان صوته أول صوت تسمعه .

وكأنها توهم نفسها بأنه قضى الليلة ملء ذراعيها .. وكانت تستقبل يومها .. مرحة باسمة متفائلة .. فإذا ما افتقدت صوته ذات صباح .. ضاقت بها الدنيا ، وأحست بالهواء يكتم أنفاسها ..

وقفزت من فراشها .. فرحة .. متوثبة ، وألقت نظرة شاملة على صورتها فى المرآة .

إنها جميلة .

وهى تشعر باعتزاز بجمالها .. لأنه يحبه ، وترغب أكثر من أى وقت مضى فى الاحتفاظ به من أجله .

ليته رآها منذ عشر سنوات .

ومدت يدها تتحسس صدرها .

كان وقتذاك كتلتين متماسكتين مشدودتين .

ومع ذلك فهو مازال متماسكا .. مكتنزاً .. لم يضمر ولم يترهل إلا قليلا .

إنها ما زالت تستطيع أن تزهو به .

وعلت شفتيها ابتسامة .

لقد أعجب به ، ولم يكتم إعجابه به ، رغم حيائه .

أعجب به عندما ضمها إليه .

وزاد إعجابه عندما أبصره عارياً .. فى تماسكه واستدارته وصفاء لونه .

حمداً لله أنها لم تحمل ولم تلد ، ولم ترضع .. حتى تحتفظ بجسدها نضراً صبياً .

وأعجب أكثر بساقيها .. باستدارتهما وامتلائهما الانسيابى وبالغمازات فى باطن ركبتيها .

أشياء كثيرة باتت تحبها .. فى نفسها .. وتتوق إلى المحافظة عليها من أجله .

وقربت وجهها من المرآة .. ولمحت خطين من التجاعيد الخفيفة فى جبينها ، وشحوباً أسفل عينيها .. ورفعت كفها فتحسست شعرها .

لم يعد غزيرا كما كان .

هذه الشعيرات التى باتت تتساقط مع كل تسريحة .. جعلته يبدو خفيفاً .

يجب ألا تهمل استعمال الزيت .

ويجب ألا ترهق نفسها بالسهر .

يجب أن تتغذى جيداً .

يجب أن تحتفظ بجمالها ، وبكل شىء يحبه فيها .

أمْ ترى الأيام أقوى من قدرتها ؟

هراء !!

إنها ما زالت فى ...

الـ .. الـ .. كم ؟

وبدأت تحسب عمرها .

بعد شهرين يحل يوم مولدها .

الـ .. الـ .. الخامس والثلاثين .

وهزت رأسها غير مصدّقة .

كثير ؟.. أجل .. كثير .

ولكنها لا تبدو كذلك .

إن أحداً لا يمنحها من العمر أكثر من بضع وعشرين .

وهى قد احتفلت فى العام الماضى بعيد ميلادها السابع والعشريـن ، وتستطيع أن تحتفل أيضاً فى هذا العام بالعيد السابع والعشرين .. أو حتى السادس والعشرين . من يذكر ؟

ولكن .. هل سيحاول هو أن يذكر متى بدأت تغنى أول مرة ؟

مشكلة لو حاول أن يذكر .

لقد بدأت تغنى فعلا منذ عشرين عاماً .

هل كان عمرها يومئذ سبع سنوات !؟ غير معقول أن تدعى هذا .

لقد كانت فعلا فى الخامسة عشرة .. وتستطيع أن تقول إنها كانت فى الثانية عشرة .. ومعنى هذا أنها الآن فى الثانية والثلاثين .

وهزت رأسها فى ضيق .

إنها ستحتفل معه بعيد ميلادها الثامن والعشرين ، وهى لا تبدو أكثر من هذا ، وهو ليس من السخف بحيث يناقشها عمرها .

واتجهت إلى الحمام ، ووقفت أمام الحوض تغسل وجهها وأسنانها ، ووضعت المعجون على الفرشاه ، وأخذت تدلك أسنانها .

إن أسنانها جميلة بيضاء ، لم يؤثر فيها التدخين .

لقد أعجب بها ، وأحبها ، وتعوّد أن يضغطها بأسنانه كلما قبلها .. ومن أجل ذلك عزمت على أن تكف عن التدخين .

اللهم إلا تلك السيجارة .. التى تدخنها فى الحمام عقب الغداء .

وهو لم يكره رائحة الدخان فى فمها .

بل إنه أنبأها أنه يحب كل شىء فيها .. حتى الدخان فى فمها .

وفتحت فمها وأخذت تتأمل ضروسها من الداخل .

وتأملت الحشو الفضى فى ضرسى الفك الأسفل .

لقد أبصره مرة .. وضحك .. ثم أراها فمه وبه نفس الضرسين محشوين .

وأخذ كلاهما يعدد أوجه التشابه بينهما .

وأحسا أنهما يتشابهان فى أشياء كثيرة .. نفس الطباع .. ونفس الذوق .. ونفس المشاعر .. لا يكاد يذكر شيئاً يفضله إلا وأحست أنه كان دائماً المفضل عندها .. وما ذكرت شيئاً أحبته .. إلا وأكد لها حبه له .. فى الموسيقى .. والطعام .. والناس .

وهزت رأسها فى أسف .

كان يجب أن يلتقيا .. من قبل ذلك بكثير .

لقد قال لها إنه لو صادفها فى الرابعة عشرة لغير مصيرها ، ولما سمع الناس صوتها أبداً .

وأمسكت بالمنشفة تجفف وجهها .

كم تتمنى لو كانت زوجته .. لتقبع معه بين أربعة جدران .

ولكنها سرعان ما أبعدت الخاطر عن ذهنها .

لا يجب أن تدع الأمانى المتعذرة .. تتلف استمتاعها بواقعها .. إنها سعيدة بحبه .. بمجرد حبه .. وهى راضية منه بكل ما يعطيه إياها ما دام يحبها .

أما نوبات الحزن التى تمر بها .. فهى قادرة على أن تتغلب عليها .. وتكبت انفعالاتها منها .

أما الوحدة .. والوحشة والحرمان .. فوجوده وحبه .. وساعات لقائه .. أقدر على طيها ، وأقدر على شفائها من آلامها .

ومشطت شعرها بالفرشاة الأسطوانية .. ووضعت « الروب » الحريرى الأزرق ذا النقط البيض على جسدها .. واتجهت إلى غرفة الجلوس .

وأدارت الراديو .. وأخذت تتصفح الجرائد .. ثم قامت إلى المائدة .. وجلست ترتشف الشاى ، بعد أن تناولت ملعقة العسل التى تعوّدت أن تتناولها كل صباح .

وقبل أن تبدأ الإفطار .. دق جرس الباب ، وسمعت وقع أقدام عباس الخادم يتجه إلى الباب .

وسمعت وقع أقدام تجتاز الباب وتدخل إلى القاعة .

وتوقعت أن يستقر الطارق فى البهو ، وأن يأتى عباس ليخبرها عمن يكون

ولكنها وجدت الباب الموصل إلى البهو يفتح ، وأبصرت رياض يجتازه ، وقد بدت على وجهه ابتسامة باهتة .

وفوجئت بدخوله .. فقد تعوّد دائماً أن يخبرها أنه قادم قبل أن يأتى .

وابتسمت « هدى » مرحبة :

ــ صباح الخير .

وأجاب رياض وهو يجر مقعداً ويجلس عليه أمام المائدة :

ــ صباح الخير .. عسى ألا أكون قد فاجأتك !

وضحكت قائلة :

ــ إلى حد ما .. على أية حال ليس بيننا تكليف .. البيت بيتك .

ــ حتى الآن ؟

ورفعت « هدى » حاجبها وهى تحس أن وراء مجيئه وحديثه .. شيئاً مزعجاً .. وقالت ببساطة :

ــ ولِمَ لا ؟!

ــ أواثقة أنت أن حضورى المفاجئ لا يزعجك ؟

ــ أفضل بالطبع أن تتصل بالتليفون كما تعوّدت أن تفعل ، على الأقل لكى تضمن أنى موجودة .

ــ وعندما يكون وجودك مضموناً .. كالآن مثلا .

ــ قد يكون عندى من لا يناسب وجوده وجودك .

ــ مثل ؟

ــ الخياطة .. أو إحدى الصديقات .. أو أحد الصحفيين .

ــ فقط !!

ــ أو شكرى ، أو واحد غيره من الملحنين ، يحفظنى لحناً .

ــ فقط !!

ونظرت إليه « هدى » نظرة طويلة فاحصة .. وحاولت جهدها أن تضبط أعصابها وتساءلت فى هدوء :

ــ ماذا تعنى بقولك فقط ؟

ــ أعنى أليس هناك .. إنسان أهم من هؤلاء ؟

— أهم من هؤلاء !!

— أجل .. إنسان .. قد يغضبه وجودى .

وأمسكت « هدى » بإبريق الشاى .. وتساءلت قائلة وهى تحاول أن تكتسب وقتاً لتهدئ أنفاسها وترتب ذهنها :

— أأطلب لك فنجانا من الشاى ؟

وأثاره هدوءها .. وكاد يفقد أعصابه .. ولكنه أجابها قائلا :

— متشكر .. لقد شربت .

ووضعت الإبريق وأمسكت بتفاحة من طبق الفاكهة وبدأت فى تقشيرها .. قائلة :

— تقول إنسان أهم من هؤلاء ؟.. مثل من ؟

وصمت رياض برهة .. ثم قال من بين أسنانه المضغوطة :

— سامى بك .

وأطلقت « هدى » تنهيدة طويلة وقالت فى هدوئها المميت :

— سامى بك مَنْ ؟

— سامى بك كرم .

— ها .. ولماذا سامى كرم بالذات ؟!

— كل الناس يقولون إنه عشيقك .

— هكذا مرة واحدة !! ولكنك تعرف كلام الناس .

— وددت لو أعرف كلامك أنت .. لعلك لا تصرين على أن ما بينكما لا يعدو مجرد صداقة .. ولقاء عابر !؟

— وإذا أصررت ؟!!

ونظر إليها رياض فى غيظ وتساءل :

— أين كنت ليلة أمس ؟

— متى ؟

— فى الساعة الواحدة ؟

— كنت هنا .

— طلبتك بالتليفون فلم تجيبى .

— تعوّدت أن أرفع « البريزة » حتى لا يزعجنى أحد .. أنت تعرف سخافة المعجبين وقدرتهم على الإقلاق .

— ألم يكن معك أحد ؟

— أم حبيب .

— فقط ؟

— وعباس .

— أحد غريب ؟

— مثل مَنْ ؟

— سامى كرم ..

— لماذا يقلقك سامى كرم كل هذا القلق ؟

— لأنه كان معك هنا حتى الثانية صباحاً .

— كلام فارغ .

— كلام صحيح .. لقد رأيته بعينى يغادر البيت فى الساعة الثانية .

ووضعت « هدى » السكين من يدها .. ونظرت إليه والغضب يغلى فى صدرها .. وتساءلت :

— هكذا ؟!

— أجل .

— وأين كنت أنت ؟

— كنت فى عربتى .

وأحست « هدى » بأن أنفاسها تتلاحق .. ولكنها استمرت تبذل أقصى جهدها لكى تتمالك نفسها .. وقالت وهى تطلق تنهيدة طويلة :

— لماذا إذن كل هذا اللف والدوران .. ما دمت تعرف أنه عندى .. لعلك تعرف أيضاً كل مواعيد حضوره .

وضرب رياض المنضدة بقبضة يده فى عنف وصاح بها :

— أنت فاجرة .. أنت سافلة .

ونظرت « هدى » إلى باب الحجرة المؤدى للمطبخ وقالت له فى حزم :

— لا داعى لأن تفقد أعصابك .

— أنا أستطيع أن أحطم ...

— أنت لا تستطيع شيئا .. ليس لك الحق حتى فى أن تثور علىّ .

— لقد عرضت عليك الزواج .

— أنت تعرف أنى أحتاج إلى أكثر مما تستطيع أن تمنحنى .. تعرف أنى أحتاج إلى إنسان ما ، وإذا لم يكن هو سامى فسيكون غيره .

— لماذا لا تتزوجين بدل هذه الفضائح ؟

— أنا لم أثر فضائح .. لا أظن هناك إنساناً يستر أمره مثلى .. على الأقل من أجله .

— إنه لن يتزوجك .

— أنا لم أسأله الزواج .

— إنه يتسلى بك ، ولا يلبث أن يلفظك عندما يملك .

وأحست «هدى» بشىء يعتصر جوفها.. إنها تعلم أن هذا ليس بصحيح .. ولكن مجرد ذكره من أى إنسان يروعها .

وأحست بكره شديد لرياض ، وصرخت به فى حدة :

— كذب .. ليس هو الذى يفعل هذا ! إنه إنسان كريم طيب .. إنه يحبنى .

— مخدوعة .. سأذكرك عندما يلفظك لفظ النواة .

ووجدت « هدى » أن الاستمرار فى المناقشة بهذه الطريقة لن يؤدى إلى شىء أكثر من إثارة أعصابها ، فحاولت جهدها أن تستعيد سيطرتها على أعصابها

وسألته بقدر ما تستطيع من الهدوء :

— ليكن ما يكون .. ما الذى تريده الآن ؟

وحاول رياض أن يخفف من لهجته .. وقال لها فى رقة :

— أريد أن تفيقى لنفسك .. هذه علاقة لا يمكن أن تؤدى بك إلى أى خير .. أنا أعرف جيداً أمثال هذا الإنسان .. وأعرف النظرة التى يمكن أن ينظر بها إليك .. إنى أحبك وأعرف صالحك .

وصمت برهة وهو ينظر إليها محاولا أن يعرف تأثير قوله .

ولكنها لم تجب ، وشردت ببصرها فى النافذة .

وعاد رياض يتساءل فى إلحاح :

— ماذا قلت ؟! هل ستتركينه ؟

ونظرت إليه « هدى » وقد بدا عليها الضيق والملل وقالت :

— اسمع يا رياض .. هذه الأشياء لا يمكن أن تؤخذ هكذا .. كل شىء لابد أن يأخذ وقته .

وأحس هو بالغضب يغلى فى جوفه وتساءل فى حدة :

— يعنى .. لن تتركيه ؟

— لا أعرف .. كل شىء ، وظروفه .

— ويظل يعيش معك .. ويدخل البيت ، وأنا موجود !

وصمت لحظة ثم قال وهو يعض على نواجذه :

— لكى يقول الناس .. إنى أصرف ؛ وهو يستمتع .

ورفعت « هدى » بصرها وتساءلت فى دهشة وحدة :

— من قال هذا ؟

— زملاؤه .

— من تقصد ؟

— فؤاد .. زميله فى المجلس .

— كلام فارغ .

— ولكنهم قالوه .

— ماذا تريد إذن ؟

— إذا ظللت على علاقتك به ، فلن يكون بيننا أية صلة .

وأطرقت « هدى » وأخذت تمر خلال شعرها بأصابعها بحركة عصبية وأجابت :

— أمرك .

— لن ترى لى وجهاً .

— شىء مؤسف أن أفقده ، ولكن حريتى تستحقه ، وتستحق أكثر منه .. إنى أريد أن أحيا ، وأنا لا أوذى أحداً .. حتى أنت .. فأنت تعرف أن واحداً منا لا يقيد الآخر بشىء ، ولا أظن علاقتى .. بهذا الإنسان .. أو بغيره .. يمكن أن تشينك .. لأنى لم أعن لديك أبداً .. أكثر من صديقة .

ونهض رياض من مقعده ، وهو يرتجف .. ونظر إليها قائلا فى لهجة خليط من الغضب والأسف والحزن :

— أهذا كل ما لديك ؟

وهزت « هدى » رأسها مجيبة :

— لا أظننى أستطيع أن أقول أكثر من هذا .

واتجه إلى الباب دون أن يصافحها ، وقبل أن يصل إلى الباب استدار قائلا فى مرارة :

— عندما تنتهين منه .. أو ينتهى منك .. تستطيعين أن تتصلى بى .. سأكون فى انتظارك .

و لم تجب .

وسمعت وقع أقدامه .. ثم سمعت طرقة الباب وراءه .

وساد السكون .. ومسحت جبينها بكفها فى شىء من العنف .

ودفعت مقعدها بعيداً عن المائدة .. ثم تمطت عليه وتنهدت .. ومدت يديها وساقيها فى استرخاء .. وشردت ببصرها فى فراغ النافذة .

كانت تحس باسترخاء حقيقى .

إن المسألة فى جملتها مريحة .

لها مزايا .. ولها مضار .

ولكن حصيلة المزايا أغلب .

لم يكن بينها وبينه .. ما يمكن أن يدخل فى باب الخيانة الحقيقية .. ولكنه مع ذلك.. لا يمكن أن يهمل كلية عندما تناقش نفسها الحساب الدقيق.. إنها لا تمنحه من جانبها أكثر من حنو الابنة أو عطف الأخت .. ولكنها تأخذ لذلك ثمناً .. جعلها تحس بحاجتها الدائمة إليه .

وقبل أن تسترسل فى أفكارها وشرودها .. سمعت وقع أقدام « أم حبيب » البطيئة المتثاقلة .

واقتربت منها حتى مست كتفها .

ودون أن تنظر إليها .. سألتها قائلة فى لهجتها المقتضبة ؟

— ها ؟

وربتت « أم حبيب » ظهرها فى حنان ، وقالت :

— سمعت كل ما قيل .

— ألم أحذرك من التسمّع ؟

— لا أستطيع .. ما دامت لى آذان ، وما دمت أحبك وأخشى عليك .

— إذن أنصتى كما شئت .. فقط أعفينى من تعليقاتك .

— أيضاً .. لا أستطيع .

— هذا عيبك .. ماذا تريدين أن تقولى ؟

— لماذا فعلت هذا ؟

— لم أكن أستطيع أن أفعل سواه .

— لماذا لم تداريه كما تعوّدت أن تفعلى معه دائماً ؟

— لا فائدة .. إنه مصرّ ، وهو يراقبنى .

— مغفل .. ما الداعى لكل هذا ؟! ماذا يزيد سامى عن غيره .. مصيره ينتهى .

ونظرت إليها هدى فى غيظ وتساءلت :

— لماذا تقولين هذا ؟

— أتظنين علاقتكما ستخلد ؟

— لم لا .

— إلامَ ؟

— إلى الأبد .. إلى أن يموت واحد منا .

— بلا زواج ؟

وصمتت « هدى » برهة ثم قالت :

— لِمَ لا ؟! إنى أستطيع أن أحتمل .

وهزت العجوز رأسها فى تشكك ورفعت أصبعها محذرة :

— لا أظن .. مهما كبتّ الرغبة فى نفسك فلا بد أن تستفحل حتى تدفعك إلى شىء ما .

— لا أريد أن أفكر فى هذا الآن .

— وكيف تنوين أن تدبرى حياتك ؟

وهزت « هدى » كتفيها وقالت :

— لا أعرف .. لدىّ الآن شىء فى البنك .. يمكن أن يقضى إلى حين .. وهناك أمل فى فيلم سأقوم به فى القاهرة .

وضحكت « أم حبيب » ضحكة قصيرة خنفاء من أنفها وتساءلت :

— وبعد ؟

— يدبرها ربنا .

وهزت « أم حبيب » رأسها فى غيظ وقالت :

— يا مجنونة .. كان لديك معين لا ينضب .. لا يكلفك شيئاً ولا يطلب منك شيئاً .. لماذا تضيعينه ؟ هل يستطيع صاحبك أن يدفع لك أجر البيت ؟

وأحست « هدى » كأن شيئاً قد لسعها .. والتفتت إلى « أم حبيب » متسائلة فى حدة :

— من قال هذا ؟

— هل سيدفع لك أجر الخياطة ؟

— لن أطلب منه مليما واحداً .. ماذا تريدين أن يقول عنى ؟! لقد حذّروه بأنى مستغلة .. وأنى بلا قلب .. وأنى لا أصاحب إنساناً إلا من أجل منفعة .. هل تريدين أن يصدق عنى هذا ؟!

— هذا ليس استغلالا .. إنه مساعدة .

— لن أطلب مليما واحداً .. ولو أدى بى الأمر إلى أن أبيع حليى وملابسى .. قطعة قطعة .

وهزت العجوز رأسها فى دهشة وتمتمت كأنها تحدث نفسها :

— أهذا هو الحب ؟!!

وسمعت « هدى » قولها .. فأمسكت بيدها المستقرة على كتفها وأطرقت والدموع تتصاعد إلى جفونها :

— أكثر من الحب .. إنه الحياة .. الحياة التى لم أذق منها سوى المرارة والأنانية والبغضاء .. حتى لقيته .. فأحسست أن ما مر بى لم يكن حياة .. كان عدماً .. كان وهماً .. كان خرافة .. وبدا لى أنى خرجت فجأة من هذا العدم .. وأنى بدأت أحيا .. وآمل .. وأضحك .. وأمرح .. وأنتظر أشياء جميلة قادمة ..

كيف أضيعه من يدى .. إنه يحبنى .. كما أحبه .. يخاف علىّ .. ويضمنى كمخلوق عزيز لا يملك فى الدنيا غيره .. لماذا تعقدون الأمور علىّ .. ما دمت أريده كما هو .. أريده فقط .. لا زواجاً .. ولا نقوداً .. ولا أى شىء .. ألا يكفى أنه يمنحنى الحياة .. نفسها !؟ ألا يكفى أنه يغنينى عن كل شىء !؟

وهزت « أم حبيب » رأسها قائلة :

ــ حتى الآن .. يكفى !؟

١٢

ضائقة

انتهت جلسة مجلس النواب .. وخرج سامى مع سليم .. ونظر سليم فى ساعته فإذا بها قد بلغت التاسعة مساء .. فتوقف متسائلا .

ــ إلى أين ؟

ــ إلى المكتب .

ــ وعلام الاستعجال ؟

ــ لم أكتب الافتتاحية بعد .

ــ ما زال الوقت مبكراً .. ما رأيك في أن أعطيك كوباً من البيرة فى المطعم الجديد القائم على الناصية .. إن به دائماً أجمل مجموعة من الزبائن .. و ..

وقاطعه سامى قائلا :

ــ لا أحب البيرة .. ولا التطلع فى زبائن المطعم .

ــ اطلب أى شىء .. بوظه .. ليمون .. وتطلع فى وجهى أنا .. إنى جائع .. وعطشان .. ولا أريد أن أجلس لأشرب وحيداً .. هيا بنا .. أم ترانا لم نعد نستحق منك بضع دقائق .

وبدا التردد على وجه « سامى » ونظر إلى ساعته .. ولكن سليم جذبه من يده قائلا :

ــ هيا يا أخى .

وسار الاثنان متجهين إلى المطعم .. ولم يطل بهما السير حتى توقفا أمام المدخل المنخفض ، ودفعه سليم بيده .. وبدا المطعم أنيقاً ضيقاً .. تناثرت فيه مجموعة متفاوتة من الألوان فى جدرانه ومناضده ومقاعده وستائره .. وثرياته الحديثة .. وبدا منه سلم خشبى يقود إلى طابق مسروق .

وجلس الاثنان حول مائدة فى أحد الأركان ، وأمر سليم الجرسون بإحضار كوب من البيرة وآخر من الليمون .

وبدا سامى شارداً .. وأخذ سليم يطرق المائدة بطرف سبابته مدندناً بإحدى الأغنيات .. وفجأة قطع دندنته وسأل سامى :

— ما بالك ؟

وهز سامى رأسه قائلا :

— لا شىء .

— ضايقتك جلسة اليوم !؟

— لم يكن ما بها مفاجأة لى .. إذا أخذت كل ناحية على حدة .. ولكن ما ضايقنى هو إحساسى بها كقوة متآلفة .. وتيارات موحدة .. ضد المصلحة الحقيقية لوطننا .

— لقد كنا دائماً عرضة لهذه القوى الطامعة فينا .. كان مشروع سوريا الكبرى حلم « عبد الله » .. يهددنا من الجنوب .. والهلال الخصيب من الشرق .. ومطامع تركيا من الشمال .. وأطماع أخرى تتحفز لنهش جسدنا من الغرب .

— لم يكن بها غير خطورة الأحلام والمطامع . كانت مجرد أشباح .. ولكننى أحسست اليوم فى المجلس بتكتلات واضحة .. كلها تتآلف ضدنا .

— والشيوعيون موقفهم غير واضح .

— بل واضح جداً .. إذا اعتبرنا أهدافهم الحقيقية ولم نخدع فى مظاهرهم .

— كيف ؟! إنى لم أعرف أبداً .. هل هم معنا أم علينا ؟

— معنا ما دمنا نتحرك فى اتجاههم .. وما دمنا نترك لهم الحرية .. للتضخم والنمو .. إنهم يتسللون إلى الجيش ، وإلى المقاومة الشعبية ، وإلى الوظائف الحكومية .. وهم فى نظرى أخطر من كل قوى الرجعية متكتلة ..

لأن قوى الرجعية .. سافرة أمامنا .. نعرف لماذا نحاربها .. وكيف نحاربها .. أما الشيوعيون .. فقد لبسوا لباس القومية .. وناموا فى غملوها .. وادعوا أهدافها .

— ولكن ماذا تظن موقفهم .. عندما يتبلور اتجاهنا نحو الوحدة ؟!

— سيحاربونها بكل قواهم .

— ولكنهم يؤيدونها الآن .

— تقصد أنهم يتظاهرون بتأييدها .. لأنهم لا يستطيعون أن يجاهروا بعداوتهم لها .. حتى لا يكشفوا أنفسهم . وحتى تأييدهم لها قد بدءوا يضعون له اشتراطات معينة .

— تقصد مطالبتهم بالديموقراطية ؟!

— ديموقراطية الأحزاب طبعاً .. ديموقراطية الفوضى التى تسمح لهم بالتكاثر والتوالد .. والنمو والسيطرة .. حتى يمسكوا بزمام الأمر .. ويستولوا على السلطان .. وتصبح الديموقراطية فى يدهم .. شر أنواع الديكتاتورية .

— معك حق .. لا أظنهم يقبلون الوحدة أبداً .. إذا كان فيها قضاء على الأحزاب .. إن الشيوعية لا تبدأ بالصدام .. وإنما تبدأ بالتسلل .. أنصار .. ثم حزب .. ويقفز الحزب إلى الحكم .. وينتهى الحكم بالتبعية الشيوعية .. وعلى الحريات العفاء .. وعلى الاستقلال السلام !!

ونظر « سامى » إلى الساعة وبدا عليه القلق .. وكان « سليم » لم يزل يرتشف كوبه .. ولم يبد عليه أنه فى عجلة من أمره .

وكان « سامى » قد شرب كوب الليمون .. وتلفت حوله فأبصر قرب « الكيس » جهاز تليفون .. فنهض واقفاً .. وقال لسليم :

— دقيقة واحدة .. سأدق التليفون فى مكتبى .

واتجه « سامى » إلى التليفون .. وطلب رقم « هدى » .. كان المفروض أن تحدثه دائماً فى مثل هذا الوقت ليتفقا على موعد اللقاء .

ودق التليفون .. وسمع صوت الخادم يجيب :

— آلو ..

— أين المدام ؟

وميز الخادم صوته فأجاب :

— دقيقة واحدة .

ولم يدر « سامى » هل طالت المدة قبل أن تحضر « هدى » أم أن وقفته القلقة أمام « الكيس » هى التى أوهمته بطول المدة .

وأخيراً ردت عليه « هدى » فى صوتها الرقيق ولهجتها الناعمة :

— أهلا .. أين أنت ؟ لقد سألت عليك فى مكتبك !!

— لم أذهب بعد .. فقد دعانى سليم إلى مشروب قبل العودة إلى المكتب .. ما أخبارك ؟

— كنت أريد أن أخبرك أننا لن نستطيع أن نلتقى الليلة .

وأحس « سامى » بضيق من قولها .. كانت المرة الأولى أن تعتذر عن لقائه .. وقبل أن تستمر فى الشرح له قاطعها قائلا :

— سأذهب إلى مكتبى وأطلبك من هناك .

ثم وضع السماعة ، وعاد إلى « سليم » ولم يستطع أن يخفى علامات التجهم من وجهه فسأله سليم :

— ما بالك ؟

— لا شىء .

— كأنك سمعت أنباء مروعة ؟!

وتضاحك « سامى » قائلا :

— ليس إلى هذا الحد .. العمل متأخر فى الجريدة .. لابد لى من العودة حالا .

— هيا بنا .

وجرع « سليم » ما بقى من كوبه .. ثم دفع الحساب ، وخرج الاثنان متجهين إلى الجريدة .

وشرد ذهن « سامى » .

لماذا اعتذرت « هدى » ؟

شىء خطير لا بد أن يكون قد حدث .. فلا يظن هناك أمراً استطاع أن يمنعها عن لقائه .. منذ أن عرفها .

لقد كانت تعتبر لقاءه ضرورة حيوية .. وعندما اضطره العمل إلى الاعتذار بضع مرات ، أحس ما بنفسها من الخذلان والحزن .. مما جعله ينهى عمله فى عجلة .. ثم يسرع لمفاجأتها بحضوره .. وأخذها بين ذراعيه .

أم ترى مشاعرها قد تبدلت .. ولم يعد يزعجها كثيراً ألا تراه ؟

من يدرى !

إنه يجد بها فى الأيام الأخيرة .. نوعا من الشرود .. والحزن .. لا يدرى سببه .

وعندما حاول أن يسألها عما بها ، هزت رأسها وتضاحكت ، وأجابته بأنها تفكر فيه .. وأنها حزينة لأنها لا تكاد تستقر بين أحضانه حتى تحس أنه يوشك أن يفارقها .

ولكنه لم يقتنع كثيراً بقولها .

لا بد أن شيئا قد جد فى حياتها .

وتذكر .. بعض وساوس سبق أن انتابته .. ثم أبعدها عن خاطره .

تذكر .. بضع زجاجات من الصودا .. وجدها فى الثلاجة ، وعندما سألها أنبأته أنها تبقت من وليمة غداء أقامتها لبعض زملائها وزميلاتها رداً على دعواتهم .

وتذكر سلة زهور .. رآها فى القاعة .. وأنبأته أنها هدية زكى بك ، أو على بك .. أو إنسان لا يذكره من المعجبين بها .

وتذكر تفاهات كثيرة .. كانت تدفع الوساوس فى نفسه ، ولكنه سرعان ما

يطردها .. أمام إحساسه بحبها الجارف .. وأمام تسليمه .. بأن ثقته فيها يجب أن تبنى على إحساسه بها وبحبها .. أكثر منها على الدلائل والقرائن المادية .. لأنه لا يملك مراقبتها .. ولا يملك أن يجزم ماذا تعمل فى كل لحظة من لحظات غيبته عنها .. وهى الجزء الأكبر من حياتها .

وكان أكثر ما يقلقه طريقة حياتها .. وطبيعة المحيطين بها ، من زملاء .. ومعجبين .. واضطراره إلى أن يسلم بواقعها .. لأنه لا يملك تغييره .. ولا يملك إلا وضع ثقته فيها .. على أساس ما هى عليه .. وأن يعتمد اعتماداً تاماً .. على حقيقة مشاعرها .. وقوة حبها .

ووصل الاثنان إلى آخر الطريق .. وعند ما أرادا أن يعبراه إلى الناحية الأخرى .. توقف سليم قائلا :

ـــ سأتركك الآن .

ـــ لم ؟

ـــ لدىّ موعد مع بعض الأصدقاء فى سميراميس .. إن بينهم بعض الصحفيين من مصر .. وكانوا يودون لقاءك .

وتردد سليم قبل أن يقول :

ـــ لست أدرى .. هل يمكنك أن تلقاهم الليلة بعد أن تنتهى من الجريدة ؟

وأجاب سامى :

ـــ ولمَ لا ؟!

وبدت الدهشة على سليم وقال :

ـــ خفت أن تكون مشغولا .. بـ ...

ـــ بماذا ؟

ـــ بسهرتك الطبيعية .

ـــ ماذا تقصد ؟

ـــ لا داعى للإنكار .. فالدنيا كلها تعرف .

وبهت « سامى » . ومد سليم يده مودعاً ، ولكن « سامى » استبقاها فى يده وتساءل فى إصرار :

ـــ ما هذا الذى تعرفه الدنيا كلها ؟

ـــ علاقتك بهدى .

ـــ قلت لك إنها علاقة عابرة .

ـــ اسمع يا سامى .. أظن من واجبى أن أصارحك بكل شىء .. منذ بضعة أيام .. دارت مناقشة علنية فى نادى الشرق .. كشفت فيها كل علاقتك بهدى ، كان يجب أن أرويها لك من قبل .. ولكنى أكره أن أجرحك .. إن فؤاد يعرف كل شىء عن هذه العلاقة .. يعرف أين تقابلها ومتى .. وقد أنبأ رياض عبد الدايم وهو ثمل أنه يصرف وأنت تستمتع .

وأحس سامى بأن شيئاً يطن فى أذنيه .. وقال فى صوت خافت ملؤه الضيق.

ـــ أهذا كله جرى فى النادى ؟

ـــ أجل .. وحاولت جهدى أن أوقفه .. ولكنى لم أستطع .

ـــ ولماذا لم تقل لى ؟

وأجاب سليم فى غيظ :

ـــ كيف أقول لك ، وأنت تصر على أنه ليس بينكما شىء .

وصمت سامى .. وأحس بأن الموقف فى الطريق لا يسمح بالاسترسال فى مثل هذا الحديث الخطير .. فأمسك بذراع سليم قائلا :

ـــ سأحاول أن ألحق بك بسرعة .. لنقابل إخواننا المصريين ، ثم نتمم حديثنا .

وعاد سامى إلى مكتبه .. ولقيته فايزة بطريقتها المتحفظة التى تعوّدت أن تلقاه بها أخيراً .. وبعد أن سلمت له بعض تجارب الجريدة .. قالت له :

ـــ دق التليفون مرتين و لم يرد .

و لم يبد « سامى » كثيراً من الاهتمام .. واتخذ مجلسه على مكتبه ، و لم تكد

فايزة تغادر المكتب حتى أدار رقم « هدى » .

وبعد فترة .. ردت « هدى » .. وأحس من حولها أصواتاً .. وموسيقى وعندما ميزت صوته .. قالت :

— دقيقة واحدة .

وبعد لحظة .. عادت تقول له فى صوتها الرقيق الناعم :

— أهلا .

وأحس « سامى » أن الضجة قد خفت ، فقال فى ضيق وتشكك :

— ما الحكاية ؟

— أبداً .. كنت أنقل التليفون .. لأن عندى ضيوفاً .

ورد « سامى » فى لهجة ضيق :

— ها .

ثم لاذ بالصمت .

وتساءلت « هدى » .. فى لهجة يشوبها الحزن :

— ما بالك ؟

— لا شىء .

— لماذا لا تتكلم ؟

— وماذا أقول ؟

— أنا آسفة لأنى لن أستطيع لقاءك .

— لا بأس .

— أنت تعرف أنى لا يسعدنى فى هذه الدنيا شىء أكثر من رؤيتك ، ولكن المنتج عبد الرحيم جودة طلب أن يزورنى الليلة .. ليعرض علىّ الاشتراك فى فيلم .. ومعه المخرج .. إبراهيم زكى .. وأنت تعرف أن هذه الفرص لا تسنح كثيراً .

ورد « سامى » فى برود :

— أجل .. أجل .. يجب ألا تتركيها تمر .

— لماذا تجيبنى بمثل هذه اللهجة ؟

— أية لهجة !؟

— تحدثنى كأنى غريبة .. أنت تعرف لهجتك التى أحبها .

— لا أظن الضجة التى حولك تسمح بها .

— إنى بعيدة عنهم . لقد أخذت التليفون فى حجرة النوم .

— لا داعى لأن تتركيهم مدة طويلة .

وعادت تهتف به بلهجة ملؤها الألم :

— سامى .. لماذا تحدثنى هكذا !؟ أنا لم أفعل شيئاً يسيئك .. إنى على استعداد لأن أطردهم جميعاً .. إذا أردت .

وأوجعته لهجتها .. وكره نفسه لأنه آلمها ، وأجابها فى رقة :

— أنا متأسف .. ولكنك تعرفين .. كم يضايقنى عدم لقائك .

— إنه يضايقنى أكثر منك .. ولكن كان يجب علىّ أن أحتمل .

— ولماذا لم تلتقى بهم فى أى وقت من النهار ؟

وترددت برهة قبل أن تقول :

— كان يجب علىّ أن أدعوهم للعشاء .

— ومن دعوت معهم ؟

— ثلة الأصدقاء .. علية .. وسامية .

— وشكرى ؟.

— سيحضر بعد انتهائه من العمل .

— وأنت ألن تذهبى إلى المسرح ؟

— لقد اعتذرت .

وعاد « سامى » إلى الصمت .. وتساءلت هدى :

— ما بالك تصمت ؟

— ليس عندى ما أقوله .

— إنك لم تحدثنى حتى الآن .. الحديث الذى أحبه .

— لا أجد فى نفسى الرغبة فى النطق به .. ولا أحب أن أصطنعه .

وأحست بوخزة ألم . وقالت فى صوت حزين :

— لم كل هذا ؟! إنك تغيرت !

— أنا لم أتغير .. لقد مضى عليك أسبوع .. وأنت دائمة الشرود .. وكلما سألتك عما بك .. قلت لى .. إنك تحبيننى وتكرهين فراق .

— وماذا فى ذلك .. إنى فعلا أحبك وأكره فراقك .

— هذا شىء غير جديد عليك .. فلماذا الشرود والحزن ؟

— وماذا تظن السبب إذن ؟

— شىء يقلقك .

— من أى نوع ؟

— لست أدرى .. ربما تغيرت مشاعرك .. ربما يكون هناك إنسان آخر .. أو يكون هناك ما يثقل ضميرك .

وصمتت « هدى » .. وأحست بأنها تكاد تتهاوى فى وقفتها .. وضغطت على جبينها بأصابعها .

ما أشد ما ظلمها .. وأجابته فى صوت بائس :

— أنت تقول هذا .. بعد كل هذا الحب الذى أحبه لك ؟!

وأحس من قولها كأن سوطاً قد هوى عليه .. وتمنى لو استطاع ضمها بين ذراعيه .. وأوقف الكلمات على شفتيها بشفتيه .. وهتف بها :

— أنا متأسف .. ولكنى أحس أن هناك شيئاً يقلقك ، ولا أستطيع السكوت عليه .

وأحست « هدى » .. أن من الخير أن تقول ما بها .. بدل أن تترك ظنونه تلسعها بالتهم الجائرة .

وصمت برهة .. وعاد « سامى » يقول :

— لماذا لا تحدثيننى عما يضايقك .. من يستطيع أن يشاركك متاعبك وأحزانك سواى ؟!

وترددت « هدى » قليلا ثم قالت :

— لم أكن أود أن أضايقك بمتاعبى .. ولكنى أكره أن تظلمنى بظنونك .. إنها مجرد ضائقة مالية أمر بها .. وسأجتازها قريباً .. سأتعاقد على هذا الفيلم وأقبض عربونه .. وهناك حفلات أخرى سأشترك فيها .. و ...

وقاطعها « سامى » قائلا فى لوم :

— ولماذا لم تنبئينى من أول الأمر ؟

— لم أرد إزعاجك .. بمثل هذه الأمور .

— أنت عجيبة !! من غيرى يمكن أن تفضى إليه بمشاكلك ؟

— إنى لا أريد توريطك .. وأنا أعرف أن مواردك المالية محدودة .. فلماذا أحملك همومى ؟!

— إن مواردى محدودة حقاً .. ولكنى لن أعجز عن معاونتك فى فك أزمتك .. ولو بالاقتراض .

— لا أريدك أن تقترض من أجلى .

— إن من حقى عليك أن أساعدك .

— أكره أن تحس أنى كما قيل لك .

وقاطعها قائلا فى ضيق :

— لا تكونى سخيفة .. إننى لم أعد فى حاجة إلى أن أعرفك من خلال ما يقوله عنك الناس .. إنى أعرفك من خلال نفسى وتجربتى .. أعرف جيداً نبل أخلاقك وعفة نفسك .

— ولكنى سأعرف كيف أحل أزمتى .. إننى معتادة على حلها وحدى .

— ولكنك لم تعودى وحدك .. إنى أستطيع أن أساعدك لآخر مليم أحصل

عليه .. دون أن أرتكب خطأ ، وعندما أعجز ، سنتشارك مواردنا سوياً .. حتى نتسوّل معاً .

وضحكت هدى قائلة :

— يا حبيبى .. لن يصل الأمر بنا إلى هذا الحد .. أنا واثقة أنى سأحلها قريباً .. لا تضايق نفسك .

وصمتت قليلا وهى تحس أنها تود أن تضع رأسها فى صدره ، وهمست به :

— واحشنى .

— وأنت أكثر .

— كم أتمنى أن أراك !

— سآتى إليك غداً .

— أما زال علىّ أن أنتظر يوماً كاملا ؟

— سآتى إليك فى الصباح .

— أحقاً تستطيع ؟

— سآتى لأوقظك .

— كم أسعدتنى وملأتنى فرحة وأملا .

— لا تستيقظى قبل أن آتى إليك .

— سأترك باب الحجرة مفتوحاً وسأظل مغمضة عينى حتى أفتحهما على وجهك .

— تصبحين على خير .

— أحبك .

— يا أعز إنسانة .. أنت سيدة الناس .. أنت سيدة الدنيا .

— يا حبيبى .. يا أعز إنسان .. مع ألف سلامة .

ووضع السماعة وصوتها ما زال يتردد فى أذنيه .

وأحس بالضيق الذى كان يملؤه قد تبدد، وأقبل على الورق يكتب فى حماس .

لقد استطاعت أن تمحو بحديثها كل ما رسب فى نفسه من شكوك وريب .. وكل ما تركه سليم بحديثه من ضيق وقلق .

وانتهى من عمله ، وأقبل على « فايزة » يمازحها .. وأنبأها أنه سيذهب إلى سميراميس للقاء بعض الصحفيين المصريين وأنه سيتأخر فى الصباح لأن لديه بعض المواعيد .

ولقيه الإخوان المصريون فى حماس وترحيب ، وجلسوا يتحدثون عن الأحوال السياسية .. وأفضى إليهم بصراحة عن التيارات التى تتنازع الرأى العام فى سوريا ، وأنبأهم أن القومية العربية تحتاج إلى حشد ضخم لمواجهة هذه التيارات .

وافترق الجميع فى النهاية .. عقب تناول العشاء .

وفى الطريق إلى بيته ، وقد جلس فى العربة .. بدا كأنه قد تذكر أمراً .. فمال على سليم قائلا :

— أمعك ألف ليرة ؟

— أجل .

— هاتها .

— سأحضرها لك فى الصباح .

— أريدها الليلة .

— الليلة ؟!

— أجل .

— إذن انتظر حتى أحضرها لك من البيت .

وتوقفت العربة أمام بيت سليم .. وغاب بضع دقائق ، ثم هبط ومد يده بالنقود إلى « سامى » ، وقد بدت على ملامحه الدهشة والتشكك ، وبعد أن سلمها إليه قال :

— لم نتمم حديثنا الذى بدأناه فى الطريق ؟

— فيما بعد .

— يجب أن تكون على حذر .. إنهم يحصون عليك حركاتك وسكناتك .

وتنهد سامى قائلا :

— ربنا يستر .

وأحس « سليم » بأنه أمام حالة مستعصية ، وشد على يد « سامى » وردد قوله مخلصا :

— إن خصومك كثيرون ، وقد كنت بلا خطايا ، ولكنهم استطاعوا أن يجدوا لك مغمزاً .. وقاك الله منهم ، ومن نفسك .

١٣

ضباب كثيف

كانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف .. والشوارع ما زالت مقفرة ، وضباب نوفمبر ما زال يرسب فى الطرقات ، وثلة من الجند قد تجمعت فى انتظار إحدى عربات الجيش لتنقلهم إلى ثكناتهم .. ومتسكعو المارة يلفون آذانهم ويدسون أياديهم فى سراويلهم .. وإحدى عربات الأجرة تستعد لأخذ آخر ركابها قبل أن تتجه إلى بيروت ، وقد وقف سائقها يستحث الراكب ، ويلتهم آخر لقمة من « الترويقة » فى يده .

و « سامى » يسير فى خطى سريعة بجوار سور بردى ، وقد ملأ نفسه إحساس ممتع بكل ما حوله وما فى باطنه .. بالماء الجارى فى النهار .. والنسمة الرطبة تدفع موجات الضباب من حوله .. والأميرة الحلوة تستقر فى ذهنه ، وفى قلبه ، وفى كل حاسة من حواسه .

ووصل إلى باب البيت ، واندفع يصعد الدرجات فى خفة حتى وصل إلى باب الشقة وضغط الجرس .

ومضت برهة دون أن يفتح أحد .. وطافت به نوبة تأنيب على تبكيره الأحمق وهم بالتراجع .. ولكن يده امتدت مرة أخرى لضغط الجرس .

ولم يطل انتظاره هذه المرة .. وسمع وقع أقدام تقترب ، وفتح الباب .. وبدت « أم حبيب » تفرك عينيها ، والنوم ما زال يثقلهما .

وقال لها وهو يحس بشىء من الخجل :

— صباح الخير .

وأجابته « أم حبيب » وهى تفسح له الطريق وترسم على وجهها ما استطاع

النوم أن يسمح به من علامات الترحيب :

— صباح الخير .. أهلا وسهلا .

ودخل « سامى » مجتازاً القاعة التى تسلل إليها من شرفة البهو بعض الضياء ، واتجه إلى الممر الطويل المفضى إلى حجرة النوم ، يتلمس طريقه وسط الظلمة التى سادت الممر بعد أن أغلقت أبواب الغرف المؤدية إليه .

وتوقف أمام باب حجرة النوم .. ومد يده وضغط على الأكرة فانفتح الباب ، وتسلل فى سكينة إلى الداخل .

وعلى الضوء الخافت المتسلل من فتحات شيش النافذة .. بدت « هدى » مستلقية فى الفراش المكسو بالستان الوردى ، وقد انحسر الغطاء عن وجهها وكتفها ، وبدا وجهها رائعاً ، وقد استغرقت فى النوم ، وأخذت أنفاسها تتردد فى هدوء وانتظام .

وفى ثوان كان سامى قد تسلل إلى جوارها تحت الغطاء ، وضمها إليه فى رفق ، فأحس بدفء جسدها وليونته ووضع شفتيه على شفتيها فأحس بهما تتحركان فى قبلة رقيقة فهمس بها :

— لم أكن أود أن أوقظك .

وفتحت عينيها وضمته إليها وضغطت شفتيها منفرجتين على شفتيه وأجابته هامسة :

— ما أظننى أوقظت فى حياتى بأمتع من هذا .

ورفع شفتيه عن شفتيها .. وجذب رأسها فى رفق إلى صدره قائلا :

— نامى .. لا أريد أن أقلقك .

ورفعت رأسها إليه وعلى ثغرها ابتسامة لذيذة وهى تقول :

— يا حبيبى .. يا غبى .. هل ظننتنى حقاً نائمة ؟

ونظر إليها فى دهشة فاستطردت تقول :

— لقد أحسست بكل حركة من حركاتك .

— لماذا أوهمتنى إذن أنك نائمة ؟

— لكى أستمتع بإيقاظك ، بحضنك المريح وضمتك الممتعة .

— كدت تخدعيننى .. لقد ظننتك حقاً نائمة ؟!

— أنام .. وأنا أنتظر إيقاظك ؟.. أمعقول هذا !! لا أظنك أبداً تتصور فرحتى بك .

ومد أنفه يمس أنفها ويتحسس بشفتيه شفتيها قائلا :

— بل أستطيع أن أتصوّرها .. لأنى أحسست بمثلها .. إنى أستطيع أن أتصوّر كل مشاعرك .. بمجرد مطابقتها على مشاعرى .. لقد استيقظت كالطفل فى يوم عيد .. لم أنم إلا لماماً .. وكنت تشاركيننى كل غفوة .. مرة حلمت أننا نسير فى الطرقات حائرين .. لا نجد مقراً نستقر به .. ومرة حلمت أننى أتيت لزيارتك ، فوجدت البيت مزدحما بالناس .. وقدمت إلىّ أحدهم على أنه زوجك .. ووجدت نفسى أتسلل منسحباً من البيت ، يائساً حزيناً .. ولكنى لم أكد أسير بضع خطوات حتى أحسست بك تتبعيننى .. و ...

وقبل أن يتم حديثه مدت شفتيها تتلمس شفتيه وهى مغمضة العينين ، وهتفت فى إيمان وإخلاص :

— سأتبعك أينما ذهبت .. إلى أى مكان .. وفى أى وقت . لن تستطيع صلتى بأى إنسان أن تمنعنى عنك .

وضمته إليها .. ثم وضعت رأسها فى صدره .. وتركت جسدها مسترخياً بين أحضانه .

وفجأة دق الجرس .

وأحس « سامى » بأعصابها تشد .. وأسماعها ترهف .. وفتحت عينيها .. وأنصتت برهة .. ثم سألته :

— أسمعت الجرس يدق ؟

وهز رأسه بالايجاب ثم تساءل وهو يحس توتر أعصابها :

— أتنتظرين أحداً ؟

— لا .

ومع ذلك ظلت مرهفة الأذنين ، مشدودة الأعصاب .

إنها فعلا لم تكن تنتظر أحداً .. ولكنها كانت تخشى أن يكون الطارق زائراً بلا انتظار .

وهى لم تتعوّد هذا النوع من الزوّار .. لقد كانت دائماً أحرص من أن تترك فرصة لزوار الطوارىء .. يتلفون بها نظام حياتها ، أو يسببون لها نوعاً من الارتباك .. كانت تعرف دائماً من سيزورها ، وفى أى وقت .

ومع ذلك فقد كسر « رياض » هذه القاعدة .. عندما أقبل عليها ذلك الصباح .. ليواجهها باتهامه .. وليعلنها بالقطيعة .

وليس بمستبعد أن يكون قد فعلها ثانية .. وأقبل .. ليعتذر أو ليكرر العتاب واللوم ، ويطلب منها مرة أخرى أن تقطع صلتها بسامى .

السخيف !!.. الأحمق !!.. لشد ما ضاقت به وبقيوده وبتدخله فى حياتها .

كان يمكن أن تحتمله فيما مضى .. عندما كان يجعل من نفسه وصياً عليها .. يمنعها من هذا .. ويحرم عليها ذاك ، ويحصى عليها حركاتها .. وسكناتها .

كان يمكن أن تحتمل منه كل هذا لأنها لم يكن لديها ما تحرص عليه .. لم تكن تملك ما يهمها بقاؤه أو زواله .. ما دام يمكن أن تعوضه عنه إذا زال .

أما الآن .. فإنها قد أصبحت تملك .. ما تحرص عليه ، وتصر على التمسك به .

أصبحت تملك ما لا يعوض .. منه أو من سواه .

ومن أجل هذا .. باتت تكره منه ومن غيره ، أن يدس ، بأنفه فى حياتها .. ليفسد عليها أجمل لحظات العمر .

وعاد الجرس يدق ثانية .. وكان واضحا هذه المرة .

وتمم سامى يحاول تهدئتها وهو يحس بتوترها داخل أحضانه :

— لعله أحد الباعة .. أو الكواء ؟

وهزت رأسها بالنفى قائلة :

— هذا جرس الباب الخارجى ، وهم يأتون من الباب الخلفى .

وأنصتت برهة ثم قالت وهى تسمع صوت الباب الخارجى يفتح ثم يغلق :

— ترى من يكون ؟ لعل أم حبيب لا تتصرف بحماقة .

وعادت تنصت لوقع أقدام « أم حبيب » وهى تقترب من الباب وفجأة نهضت بنصفها الأعلى متسائلة :

— هل أغلقت الباب من الداخل ؟

ومد سامى يده وهو يقول :

— أظن ذلك .

وأمسك بمفتاح الباب فأداره دورة أخرى للتأكد من غلقه .

وبعد لحظة سمع طرقاً خفيفاً على الباب .

وصمتت هدى لحظة . ثم ردت فى نبرات هادئة :

— ها .

وعادت « أم حبيب » تدق الباب وردت « هدى » فى لهجة أكثر عصبية :

— نعم يا أم حبيب .

وأتى صوت أم حبيب خافتاً من وراء الباب :

— لحظة واحدة يا سيدتى .

وبدا الضيق والارتباك على وجه هدى ثم همست لسامى وهى تنهض من الفراش :

— دقيقة واحدة حتى أرى هذه الحمقاء التى تغرق فى شبر ماء .

ووثبت من الفراش وتناولت من الدولاب ثوبها الرمادى الفضفاض المصنوع

من الصوف « الفانللا » وارتدته فوق القميص الحريرى الذى كشف ظهرها وأظهر تفاصيل جسدها .

وأدارت المفتاح فى الباب بخفة ثم فتحته بما يكفى خروج جسدها منه وأغلقته وراءها .

وبرغمه ، وجد سامى نفسه ينصت إلى الحديث الخافت الدائر وراء الباب بين هدى وأم حبيب .

تساءلت هدى فى غيظ :

— ماذا هناك ؟.. ألم أقل لك ألا توقظينى أبداً حتى أستيقظ .. هل انطبقت السمٰاء على الأرض ؟!.

وأجابت العجوز فى هدوء :

— تكاد .

— ماذا تعنين ؟! من الذى طرق الباب ؟

ورغم كره « سامى » لعملية استراق السمع ، ورغم محاولته التشاغل عن الحديث الدائر خارج الباب .. وجد نفسه يزداد إنصاتاً ، وملأته الوساوس برغبة شديدة فى معرفة اسم الطارق .

وسمع صوت العجوز تجيب :

— الحاج ربيع .

وتساءلت هدى فى استنكار :

— ربيع ؟!!

— أجل .. ربيع صاحب البيت .

— وماذا يريد ؟

— الأجرة .

— أجرة .. أفى الفجر يطلب الناس الأجرة ؟.. هذا منتهى قلة الذوق !!

— الرجل معذور .. لقد سبق أن طلبها فى الظهر وفى العصر وفى المغرب وفى

العشاء .. مضى عليه أسبوع وهو يطالب بها ليل نهار .. وأنا أقول له تعال غداً .

— الدنيا لم تطر .

— بالنسبة له .. تبدو كأنها قد طارت .. أنت تعرفين مبلغ بخله .. ولقد أصر على ألا يخرج الآن حتى يأخذها .

ومضت فترة صمت وعادت العجوز تقول :

— وبقية الدائنين لا يبدون صبرا أقل .. لا بد أن نجد حلا يا سيدتى .

— سأجد حلا عن قريب .. إنى أوشك على التعاقد على الفيلم الجديد .. قولى له إنى سأرسل له الأجر على أقدم حذاء ، وسأترك له البيت .. اطرديه الآن .. ولا أريد أى إزعاج بعد هذا .. فاهمة ؟

وسمع سامى وقع أقدام العجوز تتباعد وفتح الباب ودلفت « هدى » إلى داخل الحجرة ، وهى تحاول جهدها أن تزيل عن وجهها علامات الضيق وترسم ابتسامة على شفتيها .

وقبل أن تنبس بكلمة .. قال لها سامى فى لهجة آمرة :

— نادى أم حبيب .

— لمـه ؟

— قلت لك ناديها .

— لا تكن أبله .. أتريدها أن تدخل الحجرة وأنت راقد فى الفراش .

وكان سامى قد وثب من الفراش ومد يده فى جيبه فأخرج النقود ودفع بها إلى يد هدى .

وتساءلت هدى فى دهشة :

— ما هذا ؟

— أجرة البيت .

— ومن طلبها منك ؟

— لا داعى للنقاش الآن .. أعطى النقود لأم حبيب كى تعطيها للرجل .

— أى رجل ؟

— صاحب البيت .. لقد سمعت كل ما دار بينكما .. أعطيه النقود وكفى ثرثرة .

— لن آخذ منك نقوداً .

— لا تكونى طفلة .. لقد أنهينا هذا الموضوع فى التليفون.يجب أن نفك أزمتك .. ثم نتدبر الأمر سوياً .

وبدا الحزن على وجه « هدى » .. ومدت يدها وكأنها غلبت على أمرها .. وأمسكت بالنقود وتساءلت :

— كم ؟

— ألف ليرة .

— لا أريد أكثر من خمسمائة .

— استبقى الباقى لتفكى بقية أزمتك .

ووقفت هدى مترددة ، وقد بدت عليها الحيرة والضيق ، وقبل أن تجيب سمع صوت لغط فى الخارج فعاد سامى يستحثها :

— اذهبى بسرعة ، حتى لا ترتكب العجوز إحدى حماقاتها .

وهزت « هدى » رأسها وشردت نظراتها وتمتمت قائلة :

— لا أظن العجوز أكثر منى حماقة .

ثم نظرت إلى « سامى » لتقول مؤكدة :

— سأعتبر المبلغ ديناً أردّه لك بمجرد أن أحصل على نقود .

— أعتبريه كما تشائين .

— لحظة واحدة .. لن أغيب عليك .

وخرجت « هدى » من الغرفة وأغلقت الباب خلفها .

ومضت برهة و « سامى » ينصت إلى وقع أقدامها تتباعد .. وتضاءل صوت الأقدام .. وعلت همهمة ما لبثت أن خفتت .

وساد الصمت من حوله .. إلا من دقات الساعة الصغيرة الموضوعة على « الكومودينو » والتى تعوّد أن يقوم بإصلاحها كلما خلع إطارها .

وتنقل بصره بين اللوحات المعلقة على الحائط وزجاجات العطر المرصوصة على التسريحة .. وأحد المقاعد الذى وضعت « هدى » عليه ملابس الليلة الماضية .. الجورب .. و « الجيبير » .. و « الستيان » .. وأشياء أخرى داخلية .. ملقاة على مسند المقعد .. والحذاء ملقى على الأرض .

والحقيبة مفتوحة نصف فتحة فوق الشفونير وبجوارها دورق مياه وكوب .. والولاعة وعلبة سجائر ل . م .. وظرف أزرق خفيف للبريد الجوى .

وواصلت الساعة دقاتها الخافتة .. وترك « سامى » حافة الفراش الذى استقر عليه .. واتجه إلى باب الشرفة الزجاجى المغلق .. وألصق وجهه بالزجاج فأحدثت أنفاسه دائرة من الضباب ما لبثت أن حجبت عنه المنظر الخارجى .

وعاد ليستقر على المقعد المجاور لباب الشرفة المواجه لقطع الملابس المبعثرة فى إهمال على المقعد الآخر .

وأحس كأن دائرة الضباب التى أحدثتها أنفاسه على الزجاج ما زالت تحيط به .. وتحجب العالم عن بصره .

وبدا له كأنما يسير من دنياه فى ضباب كثيف .. لا يكاد يريه شيئاً من الحقائق المحيطة به .

١٤

أغلق الباب

مضت برهة و « سامى » مستقر فى مقعده والضباب الذهنى .. مخيم من حوله .

وفجأة .. برق البرق الذى يضىء أذهاننا لحظة .. ليرينا معالم الطريق .. الذى نُسير فيه .

من نحن ؟.. وماذا نفعل ؟.. وإلى أين نسير ؟

ولم تبد معالم الطريق مريحة لنفسه .. وتملكه نوع من الضيق واليأس ، جعله يتمنى لو انطلق هارباً من حياته الجديدة .

فى الصباح .. على فراش امرأة .. لا يمكن أن يقر مجتمعه أى نوع من أنواع الروابط بينهما . شرعياً كان أم غير شرعى .

ولقد كان تجرد العلاقة التى تربط بينهما من كل ما يصفها بالنفعية أو الاستغلال .. يمنحها نوعاً من السمو يميزها عن أمثالها من العلاقات .

لم يكن ما يربطهما سوى شعور مجرد بالحب .. ولم يكن واحد منهما يحتاج من الآخر غير الحب .

وكان هذا فى حد ذاته .. يضع على علاقتهما هالة من الأشراق .

ومن أجل هذا .. كانت حريصة كل الحرص على ألا تجعل احتياجاتها المادية تلقى ضلالاً من الشك على الهالة المشرقة من الحب .. دقيقة كل الدقة فى أن تقف معه على قدم المساواة فى تبادل الهدايا .. وفى كل ما له علاقة بالنقود .

وكان يشعر بفرط مبالغتها فى إبعاد تهمة الاستغلال عن نفسها .. بعد أن

رماها بها صاحبه سليم .. وكان هو رغم ضيقه بهذه المبالغة .. ورغم إحساسه بأنها أسلوب غير طبيعى فى تعامل الأحباء .. إلا أنها كانت تخلف فى نفسه مع الأيام إحساساً بالراحة والطمأنينة .. لا لأنها توفر عليه نقوده .. بل لأنها كانت تملؤه ثقة بحقيقتها .. ويبعدها عن كل ما اتهمت به .

أما الآن .. فهو يجد النقود قد بدأت تدخل فى علاقتهما .

لا جدال فى أنها لم ترد إدخالها .. ولا جدال فى أنها بذلت كل ما تستطيع من أجل ألا تحتاج إليه .

ومع ذلك فقد احتاجت .

وعلى حين غرة .. ودون أن يقصد .. وجد نفسه فى وضع لم يكن يتصوره .. وضع عاشق الغانية الذى يدفع ثمن الحب نقداً .. بدل أن يكون محباً يمنح الحب ليأخذ الحب .

ولم يتصوّر كيف يمكن أن تستقيم حياته بعد ذلك .. إذا تحتم عليه أن يعينها فى حياتها بصفة دائمة .

وحياتها .. بهذا السكن الفاخر .. والأثاث الأنيق .. حياة بذخ وترف .. لا يمكن لدخله المحدود أن يتكفل باستمرارها .. وكأبر دليل على ذلك اضطراره فعلا إلى الاستدانة ليفك ضيقها .. وهو لا يعرف كيف سيسدد دينه .. ولكن الذى يعرفه هو أنه على استعداد لأن يستدين مرة أخرى لكى يعينها إذا لزم الأمر .. لأنه يكره أن يراها فى ضيق .

وهو لم يحاول من قبل أن يفكر كيف تكفل لها مواردها حياة الترف التى تحياها .. كان يعرف أنها تعمل .. وأنها تأخذ أجراً .. وحدثته ذات مرة عن عقار ورثته من أبيها .. يدرّ عليها بعض النقود .. ولم يعرف كم يبلغ هذا وكم يبلغ ذاك .. ولكنه لم يجدها مرة واحدة تشكو ضيقاً .. أو تعانى أزمة .. وكان يستنتج من ذلك أن دخلها لا بد أن يغطى مواردها .

أما الآن .. وقد أخذ الضيق المالى يمسك بخناقها .. وهو لا يملك أبداً أن

يتركها فى ضيق دون أن يعينها عليه .. فهو يحس أنها باتت جزءاً منه وأنه مسئول عنها .. وعن دفع كل ما يلم بها من ضيق أو يحيق بها من شر .

بل هو يحس أنه هو نفسه .. بمجرد دخوله فى حياتها .. وارتباطها الوثيق به .. قد يكون السبب الأول لهذه الأزمة التى تعانيها .. بعد أن عزلها عن حياتها الأولى وجرّدها من كل معارفها وأصدقائها .

وقد يمنحه هذا إحساساً مباشر بالراحة والطمأنينة .. والثقة فى إخلاصها له .

ولكن !!

هل تعاونه إمكانياته المادية .. على مواصلة عملية العزل التى منحته شعور الراحة والطمأنينة والتى قد تكون أدت بها إلى الضيق الذى باتت تعانيه والذى يحس أنه المسئول الأول عن إزالته ، وعن تحقيق استقرارها وراحتها فى حياة العزل التى فرضها عليها بحبه لها !

ولا جدال فى أنه لم يطف بذهنه قط أن يدفع نفسه إلى هذا النوع من الحياة .. وحتى بعد أن أحبها .. لم يحاول أن يصوّر لنفسه أن علاقته معها يمكن أن تئول إلى شكل معين من الالتزامات والواجبات .. ومع ذلك .. وبعد أن وجد نفسه قد انزلق برغمه ورغمها إلى هذه الالتزامات .. يحس أنه لا مفر له منها .. لأنه يحبها .. ولأنه واثق أنها لم ترد قط أن تدفعه إلى هذا الوضع من الالتزام .. ولأنه ـــ كما اعترف لنفسه ـــ يحس أنه هو المسئول عنه .

ورغم تسلسل أفكاره إلى التسليم بالأمر الواقع ، وإلى قبول الوضع البديهى الذى أدت إليه العلاقة التى فرضها عليه الحب .

رغم هذا التسليم .. لم يستطع التخلص من إحساس القلق والضيق .. الذى دفعه فى نفسه .. حداثة عهده بمثل هذا الوضع ومثل هذا النوع من العلاقة .. وسابق نفوره منه وإنكاره له .. فضلا عن أن موارده لن تفى بالتزاماته الجديدة حيالها ، ولا شك فى أنه سيعجز عن الاستمرار فى منحها ما يمكنها من

المحافظة على مستوى الحياة الذى تعيش فيه .

اللهم إلا إذا اختلس ، أو ارتشى .. أو ..

وأحس بشىء يلتوى فى أمعائه .

ومرة أخرى جرفته موجة من الأوهام المظلمة .

أترى قد أصبح عليه أن يختار بين حبها .. وبين مصير أسود مظلم ؟

ولكن لماذا لا تحاول هى أن تحيا حياة أكثر تواضعاً .. حياة .. قد يستطيع هو بشىء من الضغط فى مصروفاته أن يوفرها لها .

وقبل أن يواصل ذهنه الاستطراد فى التفكير .. أحس بوقع أقدام تقترب من الباب .. ودارت الأكرة .. وفتح الباب .. وخطت « هدى » إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها .

وكان « سامى » ما زال يجلس على أحد المقعدين المجاورين لباب الشرفة .. وحوّل بصره الشارد فى أطراف الشجرة التى سرت بين أوراقها أنفاس الضباب إلى وجه « هدى » .

ومدت « هدى » يدها ببقايا النقود وقذفت بها إلى الدولاب الصغير بجوار الفراش .. ولمح « سامى » فى وجهها علامات يأس وضيق .. لم تكن به تلك السعادة التى تعوّد أن يراها تشيع دائماً فى ملامحها عند ما يكون بجوارها .

واستمر « سامى » جالساً فى مقعده وهو يتوقع أن تظل سائرة حتى تستقر فى حجرة ، وأحس بشوق شديد إلى ضمها . وتبددت كل إحساسات القلق والضيق التى خلفتها الأوهام المظلمة التى تلبدت فى ذهنه .. ولم يبق فى نفسه غير إحساس الحب الخالص لها .. الحبّ الذى يجرّدها من كل ما حولها من أوضاع معقدة ، ولا يبقى له منها غير المخلوقة ، المرهفة الحلوة ، المحبة المخلصة .

ولم تتقدم « هدى » إليه ، ولم تستقر فى حجرة .. ولكنها هبطت فى يأس على حافة الفراش .. وشرد بصرها برهة من زجاج الشرفة . وبدأ صدرها يعلو

ويهبط ، كأنها تلهث .

وفجأة ارتمت على الفراش .. وتملكتها نوبة بكاء عنيفة .

وقفز « سامى » من مقعده واستقر بجوارها على الفراش ، وضمها إليه ورفع وجهها المدفون فى الوسادة .. ومست شفتاه دموعها الساخنة ، وهى تتنقل بين عينيها وشفتيها .. وهمس بها :

— ما بالك يا هدى ؟

وهزت رأسها بالنفى ودموعها ما زالت تنهمر .. واستمر يسألها فى توسل :

— قولى ماذا حدث ؟

— لا شىء .

— كيف لم يحدث شىء ؟! لماذا إذن تبكين ؟

— لا شىء .. أنا متأسفة .. سأعود إلى نفسى بعد برهة .

— ولكن ما الذى يبكيك ؟

وأحس بها ترتجف بين يديه ، وضمها إليه فى حرارة .. وعاد يسألها :

— قولى ماذا بك ؟

— أحس بخوف شديد .

— مم ؟

— من أن أفقدك .

— تفقديننى أنا ؟

— أجل .. لم أكن أود أبداً .. أن آخذ منك شيئاً .. إنى أكره أن أفقد ذرة من ثقتك أو من حبك .

— من قال إنك ستفقدين حبى ؟

— لأنى أحس أنى وضعتك فى مأزق .

— كيف ؟

— لأنى أعرف أن مواردك لا تسمح لى بأن أكون عالة عليك .. أنت لست ثرياً .

— ولكن لن أعجز عن فك ضيقك .

— بالدين ؟

— ربما .

— أى تفك ضيقى بضيقك ؟

— سأستطيع أن أسويه فيما بعد .

ونظرت فى عينيه نظرة وله .. ومست طرف أنفه بأنفها وعاودت الحديث فى صوت هامس :

— لم تعد لى أمنية فى الحياة إلا أن أحتفظ بحبك .

وضمها إليه وهو يمس شفتيها بشفتيه هامساً :

— لا أظن أمنية يمكن أن تحقق لإنسان قدر ما تحققت أمنيتك .

— أخشى الزمن .. والظروف .. أحب دائماً أن أحتفظ بك بعيداً عن المتاعب والمضايقات .. إنى أحس أنك أثمن ما حصلت عليه فى هذه الحياة .. ولست على استعداد لأن أفقده بأى ثمن .. كنت أفضل أن أبيع ملابسى قطعة قطعة .. قبل أن أمد إليك يدى ، وأعرضك للضيق أو للقيل والقال .

وأحس من قولها شعاعاً صهر كل أوهامه ووساوسه .. ونظر إلى عينيها فإذا بطبقة الدموع ما زالت تكسوها ، وأخذ يتأملها فى شىء من العجب .

لم يخطر بباله أن مخلوقاً يمكن أن يحبه مثل هذا الحب .. بل لم يخطر بباله أن الحب يمكن أن يكون بهذه الصورة .. الحارة العنيفة العميقة .

وبدا له أن الضباب الذى أحاط بذهنه قد تبدد .. بددته أنفاس الحب الحارة التى أحاطته بها .

لم تعد بنفسه حيرة ولا قلق .

لقد بدا واضحاً لنفسه .. أنه يحبها .

وسيضعها دائماً فى الاعتبار الأول .

أجل .. لن يدع تيارات الظنون وأقاويل الناس .. تعصف بحبها أبداً .

إن المسألة تبدو على هذا الوضع أبسط مما تصور .

إذا كانت هي على استعداد لأن تبيع كل ما تملك لكيلا تسبب له ضيقاً .. فهو أيضاً على استعداد لكى يمنحها كل ما يملك لكى يفك ضيقها .

والمسألة بعد هذا لن تحتاج لأن يبيع أحد منهما كل ما يملك .

تستطيع أن تحيا الحياة المتواضعة التى تمكنه من التكفل بها .. لا ضرورة أبداً لهذه الشقة الفاخرة ، ولا ضرورة لهذه الولائم التى تقيمها ، وهو يستطيع أن يوفر من مرتبه ما يجعلها فى غير حاجة إلى أحد .

واستراح إلى هذا الخاطر .. وأحس بعده بالاستقرار .. وضمها إليه قائلا :

— إننا سندبر كل شىء .. لا حاجة بنا إلى هذه الشقة المتسعة .. هناك أشياء كثيرة يمكن اختصارها فى حياتك .. وأنا أستطيع أن أوفر مبلغاً أعتقد أنه يمكن أن يكفى مصروفاتك .

وبدا عليها الشرود .

لقد أحست من قوله دقات الخطر .

لا .. لا .

لن تكون أبداً بحاجة إلى أن تترك شقتها ، ولن تكون فى حاجة إلى أن تحمله أى عبء مهما ضؤل .

يجب ألا تشمت فيها « رياض » .. إنها ستتعاقد مع شركة الأفلام المتحدة .. على هذا الفيلم الذى عرضوه عليها .. إن « عبد الرحيم » صاحب الشركة .. لم يخف إعجابه بها فى كل مرة التقيا .. وهى تستطيع أن تربحه .. دون أن تخسر شيئاً ، أو تفعل ما يمكن أن يعتبر خيانة لسامى .. وهى تستطيع أيضاً أن تقبل الكثير من العقود الأخرى التى تعرض عليها .. سواء فى الأفلام أو الحفلات .. بشىء من التساهل فى المعاملة والتساهل فى الأجر .

يجب أن تكف عن هذا التزمت وتخرج من هذه العزلة .

من أجل حبها .. هجرت الناس .. وتركت الفرص التى يمكن أن تمنحها

الكثير من النقود .

ومن أجل حبها .. يجب أن تعاود علاقتها بالناس .. وتحاول أن تمسك بتلابيب الفرص .. فلا تدعها تفلت منها .

إن الأمر لن يصل أبداً إلى حد الخيانة .

وهى لا يمكن أن تخون سامى .. لأنها لا تستطيع ذلك ، لسبب بسيط .. هو أنه قد بات يسرى فى كيانها .. فهو دائماً معها .. فى ذهنها ، وفى عينيها .. وعلى طرف لسانها .

فالخيانة إذن .. بمعناها الحقيقى الذهنى والجسدى.. قد باتت .. شيئاً .. خارج نطاق التفكير .

ومع ذلك فهناك أشياء قد تفيدها . دون أن تخدش حبها .

ابتسامة على الشفتين .. أو كلمة رقيقة .. أو حديث معسول .. يمكن أن تفتح لها أبواباً موصدة ، ويمكن أن تزيد دخلها .. وتفك ضيقها ، ولا تجعلها تمد يدها إلى سامى .. ليفقد ثقته فيها .. أو تدخله معها فى مشكلات مادية ، ومتاعب يمكن أن تقرض حبه بنابها على مر الأيام .

إن دقتها فى الإخلاص له واندفاعها للارتماء بين أحضانه كاد يفقدها توازنها ، ويعرض حبها للخطر من جانب آخر .

ومضت برهة .. لم يسمع خلالها تعليقاً على قولها . وأحس بشرودها فسألها :

— إلى أين ذهبت ؟

— كنت أفكر فيما تقول .

— وما رأيك ؟

— لا أظن المسألة ستتأزم إلى هذا الحد .. لا ضرورة أبداً لهذه الإجراءات الحادة .. إنها أزمة تمر ، وسيعود كل شىء إلى طبيعته .. إن هناك أفلاماً معروضة علىّ .. وكنت أماطل فى قبولها لأنى سأضطر إلى تمثيلها فى القاهرة .. وأنا أكره

البعد عنك .. ولكنى سأحاول أن أوفق بين مواعيدها بحيث لا تبعدنى عنك كثيراً .

وكانت شفتاه تتسللان إلى عنقها .. ويده تنزلق إلى صدرها ، وأغمضت عينيها وأحست بجسدها يرتجف .

وضمها إليه .

وأحست بنفسها تذوب بين أحضانه فهمست به :

ــ أغلق الباب .

ومد يده فأدار المفتاح دورتين .

١٥

ليست بلهاء

بلغت الساعة الثانية عشرة صباحاً و « رياض عبد الدايم » ما زال راقداً فى فراشه .. وقد بدا عليه الضيق والهم واليأس .

كان يشعر منذ قطيعته « لهدى » أن شيئاً حيوياً قد ضاع منه .

شيئاً لا يمكن أن يعوّض .

ولم يكن هو ــ عندما أقدم على القطيعة ــ يعتقد غير ذلك ، فقد كان يعلم جيداً قدرها فى نفسه .. ولكنه لم يظن قط أن القطيعة ستطول ، فقد كان واثقاً ، أنها ستعود إليه .. كما كانت تفعل دائماً عندما يعاقبها بالقطيعة أو الخصام .

كان يشعر أن لا بد أن يستعيدها .. بطريقة أو بأخرى ، وأن الروابط التى بينهما متعددة متشابكة .. بحيث لا يمكن لقطيعة ما أن تقطعها كلها مرة واحدة .

فلئن قطع كل ما بينه وبينها .. فلا بد أن تبقى على الأقل صلتها بابنته .. إنها لم تكف قط عن زيارتها .. ولا بد أن يصادفها فى إحدى تلك الزيارات .. ولا بد لرقتها وطيبتها أن تزيل الجفوة التى بينهما .

ولم يدفعه إلى هذا الأمل مجرد تفاؤل .. وإنما التجارب الماضية .. التى كانت تجعل خصامهما .. دائماً فى حدود خصام أفراد الأسرة التى لا يمكن لواحد فيها أن يستغنى عن الآخر .

ولقد حاول أن يكف عن تتبع أخبارها .. وأن يتناساها فلم يستطع .. وحاول أن يستعين بالصبر والزمن .. ولكنهما لم يزيدا أعصابه إلا توتراً ، وكان

كل يوم يمر به يملأ نفسه بمزيد من حقد ومرارة .. وأسى ويأس .

ولقد بدا كأنما يحاول أن يمعن فى تعذيب نفسه بمثابرته على تتبع خطواتها ومراقبتها .

كان يعرف ، فى كل ثانية ، ماذا تفعل ، وإلى أين تذهب ، وكان يحصى من بعيد حركاتها وسكناتها .

ولم يكن يعذبه شىء .. قدر هذا الطارق الجديد الذى قلب حياتها رأساً على عقب .

كان يمنى نفسه دائماً .. بأنه عارض زائل .. أو سحابة صيف .. تمر كما مرت غيرها من سحابات الصيف .

ولكنه كان يحس أن الأيام تندفع به فى حياتها .. أعمق وأعمق .

وبغير وعى — وكما تعوّد أن يفعل دائماً — مدّ رياض يده إلى التليفون على « الكومودينو » الصغير بجواره .. ثم أدار القرص .

وسمع صوت « أم حبيب » تجيبه متسائلة فى صوتها الأجش .

— آلو .

وكما يفعل العابثون من الفتية ، غير صوته وتساءل :

— أين المدام ؟

— نائمة .

ولم تميز العجوز الغبية صوته .. فعاد يتساءل :

— متى تستيقظ ؟

— لا أدرى .. من حضرتك !

ووضع رياض السماعة ، وهو يحس بالدم يغلى فى عروقه .

لقد كانت هدى لا تبقى فى فراشها بحال من الأحوال بعد العاشرة .. لكن نوم الضحا قد طال بها هذه الأيام .

لسبب بسيط .. هو أنها بين أحضانه .

لقد أبصره منذ بضعة أيام وهو يتسلل من بيتها فى الظهيرة ، ولقد حاول أن يدق التليفون قبل هذا .. فلم يرد عليه أحد .. كانت قد نزعت « بريزة » التليفون من مكانها .. كما تفعل دائماً عند ما تحاول منع الناس عن إزعاجها .

وأحس « رياض » بمرارة العجز .. ويأس الفشل .

لقد كان أحمق .. عندما أعلنها بالقطيعة ، لقد ترك الميدان لصاحبه .. يرتع كما يشاء .

مغفل كبير .

وهو لا يعرف كيف يتراجع .. ولا كيف يعاود طرق بابها مرة أخرى .

أتراه يخشى على كرامته ؟

لا يظن .. فلو أن المسألة .. مجرد كرامة .. لهانت .

ولكنه يخشى أن تصده .

ولِمَ لا ؟.. ألم تستقر مع صاحبها الجديد .. استقراراً يبدو كأنه أبدى !

والحمقاء .. ابنته .

لماذا لا تحاول أن تفعل شيئاً ؟

لماذا لا تسأل .. عما حدث ؟!

أتراها تحاول ألا تحرجه ؟ ولكن أى حرج فى ذلك ؟. إنها صديقتها هى .. فلماذا لا تسأل عليها .. وتدعوها ؟

أم تراها كانت تدرك حقيقة ما بينهما .. وأن القطيعة التى حدثت قد وافقت مرامها ؟

الصموت الخبيثة .. لشد ما تذكره بأمها .

ترقب كل شىء فى صمت .. وتبدو كأنها لا تفهم .. وهى تفهم كل شىء ؟

وأقبلت هناء .. بعينيها الواسعتين وأنفها المعقوف كأنف أبيها .. وكانت تحمل مجموعة من زهور الجلاديول فى يدها .. لتضعها فى الزهرية وحيث

أباها باسمة :

— صباح الخير .

— صباح الخير .

— ألم يحن بعد وقت استيقاظك .. لقد بت كسولا .

— أشعر ببعض الصداع .

— لأنك تخالف أمر الطبيب . لقد منعك من الشراب .

— سخافة .. لقد تعوّدت أن أشرب طوال حياتى .

واقتربت هناء منه وانحنت عليه تقبله وقالت ضاحكة :

— كبرت يا أبتاه ، والسن .. لا بد أن ....

وقاطعها أبوها وهو يضمها إليه :

— الشباب .. شباب القلب .

— هذه حجة الشيوخ دائماً .

وأخذت هناء ترتب الزهور فى الزهرية ، وحاول رياض أن يستدرجها إلى التحدث عن هدى فسألها :

— ما أخبارك ؟

— الأتراك يحشدون جنودهم على الحدود .

— أعرف هذا .. أريد أخبارك الخاصة .

— سأتطوع فى المقاومة الشعبية .

ونظر إليها رياض فى دهشة قائلا :

— غير معقول .

— ولمه ؟

— لأنك تكرهين هذه المظاهرات السخيفة .

— عندما تهدد حدودنا .. لا أظن المقاومة الشعبية .. تصبح من المظاهر السخيفة .

وصمت الرجل برهة .

ونظرت هناء إليه متسائلة :

— أيضايقك هذا ؟

— إذا كان الأمر يبعث على تسليتك فإنى أسلم به .

وكانت هناء قد انتهت من ترتيب الزهرية .. ومدت يدها تجذب « حبل الستارة » التى تحجب زجاج النافذة المطلة على الحديقة ، وكانت السحب تتواتر على وجه الشمس .. فنفذ شعاع من بين سحابتين واخترق الزجاج وافترش السجادة الثمينة المفروشة على الأرض .

وعاد الأب يسأل قلقاً .

— أهذه كل أخبارك ؟

وردت هناء فى غير اكتراث :

— عيد ميلادى بعد غد .

— حقاً !؟ ولماذا لم تخبرينى من قبل ؟

— كان يجب أن تذكره دون أن أخبرك به .. ومع ذلك فقد كنت أنوى أن أذكرك به الآن .

— ومن ستدعين ؟

— لا أريد أن أدعو أحداً .

— لمه ؟

— ظروف البلد لا تسمح بالتفاريح .

— ولكن ظروفنا تسمح ، هذه عادة يجب ألا تقطعيها .. ادعى جميع صديقاتك اللاتى تعوّدت أن تدعين فى الأعوام الماضية .

— لا أظننى أستطيع أن أعثر عليهن .. لقد تزوجن وشغلن بأزواجهن .. وأطفالهن .

— كلهن ؟.

— بعضهن .

— والبعض الآخر ؟

— مشغولات بما هو أهم من عيد ميلادى .

ولم يعرف رياض كيف يقودها إلى الحديث عن هدى . إن احتفال عيد ميلادها يمكن أن يكون فرصة ذهبية لإعادة العلاقة بينهما ، ولكنه يجب أن يكون حريصاً فى حديثه .. حتى يعرف مدى فهم « هناء » لحقيقة الموقف بينهما ، ومدى استعدادها لدعوتها .

بل .. أكثر من هذا مدى قدرتها على تحقيق قدومها .

وعاد رياض يسأل فى غير اكتراث :

— مَنْ دعونا فى العام الماضى ؟

وكرّت هناء بضع أسماء لصديقات لها .. ولم تذكر هدى .

ولم يعرف الرجل ماذا تقصد الخبيثة بتجاهلها الاسم ، ولم يجد بداً من أن يأخذ أقصر الطريق إلى الهدف فقال مستدركاً :

— وهدى ؟!

— أجل .. وهدى .

— ألا تنوين دعوتها ؟

ونظرت « هناء » إلى أبيها تحاول أن تسبر غوره .. أتراه حقاً يريد دعوة « هدى » ؟!

إنها ليست بلهاء .. ولكنها لا تحب أن تبدو للناس أنها تعرف كل ما تعرف .. إنها تحس أن ذهنها يجرد الناس أحياناً من كل ما يسترون أنفسهم به .. ولكنها تكره أن يعلموا هذا .. حتى لا تقيد تصرفاتهم .

لقد كانت تعلم أن ثمة شيئاً بين أبيها وبين « هدى » .. أكثر من كونها صديقة لابنته .. وهى لا تستطيع أن تحدد هذا الشىء .. ولا تحب أن تترك لذهنها أن يتمادى فى الاستنتاج .. ولكنها مع ذلك واثقة — من طريقة تصرف أبيها حيالها — أنه شديد التعلق بها .. وتعلم من مدى حرص « هدى » على إرضائه .. أن له

عندها منزلة خاصة .

وكانت « هناء » تحرص دائماً على ألا تجعل هذا التعلق من جانبه والإرضاء من جانبها .. يفرض وجوده بأى شكل من الأشكال فى البيت حيث تعتبر نفسها السيدة الأولى بعد أن ماتت أمها .

ولم تجد صعوبة قط فى الوصول إلى هذا .. بل هى تعترف أن الأمر لم يحتج منها أى جهد .. لأن « هدى » نفسها كانت أكرم وأعقل من أن تدع هذا الشعور الذى يخصها به « رياض » .. يغريها بأن تحشر نفسها داخل بيته ، بل استمرت حريصة كل الحرص على أن يكون موضعها الحقيقى فى البيت هو صديقة « هناء » .. ولا شىء أكثر من هذا .

ومن أجل هذا كانت مشاعر الحب التى تكنها لها « هناء » .. أغلب على أية مشاعر أخرى يمكن أن يثيرها فى نفسها الوضع الآخر الذى يمكن أن يكون بين « هدى » وأبيها .. والذى لا تستطيع أن تحدد معالمه بالضبط .

ومن أجل هذا .. لم تحاول أن تتدخل فى تلك الخصومات التى تنشأ خفية بين هدى وأبيها .. بل لم تحاول أبداً أن تشعر واحداً منهما أنها تفهم إلا ما يراد لها أن تفهمه .. ولم يكن من بين هذا .. الخصومات .. لأنها تنتج دائماً من الوضع الآخر الذى لا يعترف واحد منهم بوجوده صراحة .

وفى جميع الخصومات التى قامت بينها وبين أبيها .. لم تكف « هدى » لحظة عن زيارتها .. إذ لم يكن قطع الزيارة مظهراً من مظاهر الخصومة .. لأنها كانت صديقتها .. وكانت الزيارة لها هى .. وكانت كل مظاهر الخصومة التى تمس بها .. لا تتعدى الطريقة غير المكترثة التى يقبل عليها بها أبوها .. أو تجنب « هدى » السؤال عنه أو ذكره فى حديثها .

أما هذه المرة فثمة شىء جديد قد حدث .

وهى تستطيع بذكائها أن تربطه .. بهذه الشائعة .. التى سمعتها تدور حول « هدى » .. والتى ربطت اسمها بشخص ما .. ذى أهمية سياسية .

ومع ذلك لم تعتبر هى أن هناك خصومة .. فقد كانت تقف دائماً بعيداً عن هذه الخصومات . وتضع صداقتها لهدى بمعزل عن غيرها من المؤثرات .

وكانت تتوقع أن يسأل أبوها عنها ، وعن سبب تغيبها ، ولكنه لم يفعل .. فاستنتجت أن هناك قطيعة .. ولما طال تركه للسؤال عنها .. أحست أنه لا يريد أن ينهى القطيعة .

ومع ذلك فهو يسألها عما إذا كانت تنوى أن تدعوها ولا تعرف بالضبط ماذا يقصد بسؤاله !

أهو يريد فعلا أن يدعوها .. أم يريد أن يحذر من دعوتها ؟!

وقبل أن تجيبه دق جرس الباب الخارجى .

وأطلت « هناء » من وراء زجاج النافذة فأبصرت بعربة « فؤاد » المرسيدس تقف بباب الحديقة .. ثم أبصرته وقد اجتاز ممر الحديقة .. ووقف أمام الباب الداخلى يضغط على الجرس .

وهرولت « هناء » إلى القاعة وهى تهتف بأبيها :

— فؤاد بك .

— دعيه يصعد .

ونظرت إليه « هناء » فى استنكار قائلة :

— كيف يصعد .. وحجرتك لم ترتب بعد !. أأدعه يصعد ليرى هذه الفوضى ؟. ماذا يقول الرجل عنا ؟! إنه نائب محترم .

وضحك « رياض » ساخراً :

— ولا محترم .. ولا حاجة .. دعيه يصعد .. لا أظن بيته أكثر ترتيباً من هذا .. إنه شيوعى .

— أتصدق هذا ؟.. إن قصره فى المهاجرين .. أجمل من بيتنا مائة مرة .

— أعرف هذا .. ولكن ذلك لا يمنع من وجود الفوضى فى داخله .

ورفع « رياض » الغطاء عن جسده ، ثم هبط بساقيه إلى الأرض قائلا :

— على أية حال .. لا داعى لإزعاجك .. سأنزل له .. أدخليه فى القاعة ، وقدموا له القهوة .

واندفعت « هناء » تهبط من السلم الرخامى ، وهى تهتف بالخادم قائلة :

— إبراهيم .. أدخل فؤاد بك إلى البهو ، وقدم له القهوة حتى ينزل سيدك .

ووجد « رياض » أن المحاولة التى استطاع فيها أن يذكر اسم « هدى » .. قد أفلتت .. وتملكه نوع من الضيق .. لقد كان فى مجرد الحديث عنها والأمل فى رؤيتها .. نوع من العزاء .

١٦

أعتبره زوجا !

وقف « فؤاد » فى البهو يتأمل الحديقة من وراء الباب الزجاجى العريض القائم بعرض الحجرة والمطل على الشرفة الفسيحة الملاصقة للحديقة .. ووصل إلى أذنيه خرير المياه المتدفقة من الجدول الذى يتخلل البيوت القائمة فى طريق برمانة .

ونفث دخان السيجارة .. ثم عاد إلى مقعده بجوار جهاز التدفئة ، واقترب الخادم منه يحمل صينية القهوة فوضعها على المنضدة ، ثم تمتم ببضع كلمات استنتج منها « فؤاد » أن سيده سيأتى حالا .

وأخذ « فؤاد » يتأمل اللوحات المعلقة على الحائط .. وقطع « السيفر » والزهريات الكريستال المتناثرة على المناضد .

وساءل نفسه :

أمفروض عليه أن يقضى على كل هذا البذخ والترف .. إن أية قطعة من هذه القطع التى ترص بلا فائدة على المناضد ، يمكن أن تطعم أسرة بأكملها .. من هذه الأسر التى لقيها فى طريقه ذات مرة من حمص إلى اللاذقية ، والتى التقط أحد أطفالها قشرة البرتقال ليلتهمها فى نهم .

ولكنه يملك فى داره مثل هذه القطع المرصوصة بلا فائدة .. فلماذا لم يفكر فى أن يحوّلها إلى أطعمة يطعم بها هؤلاء المحتاجين .

والنتيجة !!

أن يقعد على قارعة الطريق .. كبقية الصفر الحاقدين الذين يلتفون حوله .

لا . لا .

ليس هذا أقصر طريق إلى الشهرة .

بل هذا أغبى طريق إلى الفقر .

يجب أن يمسك العصا من الوسط .

إن المبادىء الشيوعية .. على العين والرأس .. لقد منحته الشهرة فى لمح البرق .. وهو يستطيع أن يمارى بها .. متخذاً بين الناس موقف البطل .. بين المتشنجين الذين يقرءون ويكتبون عن الشيوعية .. دون أن يعرفوا شيئاً عن البلد الذى يعيشون فيه .. والناس الذين يحيطون بهم .. دون أن يدرسوا المشكلة الحقيقية لفقره .. أو يحاولوا استنباط العلاج الحقيقى من منبته .. ومن طبيعته ، ومن طريقته فى الحياة .. وفى التفكير .

وهو ما زال يذكر بضعة الشبان الذين التقى بهم أول ما بدأ يمارس الشيوعية .. سألهم عما حدا بهم إلى اعتناق الشيوعية فقال أحدهم :

ـــ لم نعرف ماذا نفعل .. كنا نعيش فراغاً طويلا عريضاً .. وكنا نجتمع فى بيت أحدنا .. لنشرب الخمر .. ونلتقط إحدى فتيات الليل لتشاركنا ليلنا المخمور .. واحتقرنا أنفسنا وكرهنا مجتمعنا .. وحقدنا على كل من حولنا .. والتقطتنا الشيوعية .. لتجعل منا ساسة .. وتملأنا بالأوهام والأحلام .. وتنثر أمامنا زهور الأمانى .. وتؤكد لنا أننا زعماء المستقبل .

كانت زعامة المستقبل .. هى أهم ما يجمع ذلك الخليط العجيب من الناس .. وكانت الشيوعية فى نظرهم .. طريق الحقد .. والمجد .

ووسط هذا الخليط الحاقد كان يجد بعض المؤمنين فعلا .. بأن طريق الشيوعية هو طريق الخلاص .. وكانت عقيدتهم عقيدة تقليد واقتفاء وتطبيق أعمى .. لا إيمان مفكر .. مبتكر .. مبدع .. ومع ذلك فقد كان يحس أن مجرد إيمانهم بعقيدة ما .. نوع من السذاجة والغباء .. إذ كان يعتبر المسألة مجرد مظاهرة لا يمكن أن تنتهى إلى ما يتصوّرون .. وأنها لو انتهت إلى ما يتصوّرون .. لكانت مهزلة كبرى .

على أية حال .. ومهما جرى .. فسوف يكون من الزعماء .

والزعماء بلا جدال .. سيتمتعون بنوع من البذخ والترف لا يظنه يقل عما يتمتع به الآن .

فهو إذن .. كاسب .. كاسب .

وهو قادر على أن يعيش فى كل بيئة .. وفى كل نظام .. وفى كل زمان .. وكل مكان .

وهو يظن أنه قادر على أن يخدع كل من حوله .

عدا إنسان واحد .. يخشى دائماً أن يتضاءل أمامه .. وهو من أجل ذلك يكرهه ويحقد عليه .

ولقد كان أكثر ما يضايقه .. أنه لا يجد له مغمزاً .. ولا زلة .

ولكنه الآن .. قد بات فى نظره فريسة سهلة .. إن اصطياده لم يعد متعذراً .

لم يعد يستطيع أن يتربع وحده فى القمة .. لينظر إليه الناس نظرتهم إلى القديسين الأبرار .

لم يعد وحده بلا خطيئة .. يرجم الناس بحجارته دون أن يجسر واحد منهم على رجمه .

أجل .. لقد « طب » سامى .

ترى ما هى أخباره .. لعل « رياض » قد بات يعرفها أولا بأول بعد أن كشف له عنه .

لقد مضت مدة دون أن يحضر إلى النادى .

ونظر « فؤاد » إلى الساعة .. وارتشف آخر رشفة من فنجان القهوة ، وأحس بالقلق .. لقد طال انتظاره .

لعل المفروض أن يصعد إلى أعلى .. لماذا تركه هذا الخادم الأحمق إذن ينتظر !

ونهض من مقعده يتمشى فى قلق ، وينظر من الزجاج إلى الحديقة .. ويستمع إلى خرير المياه .

وسمع صوت الباب يفتح والتفت ليجد « رياض » يقبل معتذراً :

ـــ آسف يا فؤاد .. لقد كنت فى فراشي عندما أقبلت .

ـــ ولماذا لم تدعنى أصعد إليك ؟

ـــ لأن « هناء » كرهت أن ترى فوضى الحجرة ، ولأننى شخصياً أردت أن أنتهزها فرصة وأرتدى ملابسى وأخرج معك .

ـــ إذن هيا بنا .

ـــ اجلس هنيهة .. ما أخبارك ؟

ـــ لا جديد .. الشلة كلها تفتقدك .. ما هذه الغيبة الطويلة ؟!

ـــ ألمت بى وعكة .

ـــ وعكة ؟! لقد سألت عليك أمس صباحاً ، وأول أمس بعد الظهر ، فقيل لى إنك خرجت .

ـــ جائز .. لقد كانت هناك بعض أعمال لا بد من قضائها .

ـــ أى نوع من الأعمال ؟

ـــ أعمال خاصة بالأرض ، والبنك .

ـــ ليلا !!

وقهقه « فؤاد » ، وابتسم « رياض » فى شيء من الضيق .

وعاد « فؤاد » يقول :

ـــ على أية حال لقد توقعنا جميعاً .. أن تغيب عنا فترة ، لأن المسألة تحتاج إلى بعض التفرغ .

ـــ أية مسألة ؟

ـــ مسألة هدى .

ونظر « رياض » حوله ثم قال لفؤاد :

— اخفض صوتك .. ما لها هدى ؟

— ألم يتأكد لك صحة ما قلته لك ؟

— جائز .

— وهل تنوى أن تتركه هكذا .. يستغلك ؟! إنه إنسان سافل .. إنه يذهب إليها .

— اسمع يا فؤاد .. لا أريد أن أسمع عنها شيئاً .. لقد قطعت كل علاقتى بها .. لم يعد لى بها شأن منذ تلك الليلة .

وبدت الدهشة على وجه « فؤاد » ورد قائلا :

— مغفل كبير !! أهكذا سلمت بالهزيمة .. وهربت من الميدان !!

— سيجعلها الزمن تندم على ما فعلت .

— لن يجعلها الزمن تندم على شىء .. كنت أظنك أقوى من هذا .. لم يخطر على بالناقط .. أن يغلبك هذا الصبى على أمرك .. أنت الرجل المحنك المجرّب .

— إنى لم أغلب على أمرى ، لقد مللتها .. إنى أستطيع أن أشترى مثلها عشرات .

— أنت كاذب .. إنك لم تملها أبدا .. إنك تعيش معذباً بعد أن طردتك شر طردة من بيتها .

وأحس « رياض » بالدم يغلى فى عروقه ، وحاول جهده أن يكبت غضبه ، وقال لفؤاد :

— أنت تعرف أن ليس هناك من يجسر على طردى .. كنت أستطيع أن أحتفظ بها لو أردت .

— ولماذا لم ترد ؟! لا تقل لى إنك مللتها .. لأنى أعلم أنك كاذب .

ووقف « رياض » وهدأ من أعصابه التى جعلت تزداد توتراً وقال لفؤاد :

— اسمع .. إننى أفضل أن نناقش الموضوع فى الخارج .

— هيا بنا إذن نذهب إلى النادى .

وهمّ « رياض » بأن يطلب من السائق إخراج عربته .. فقال فؤاد :

— لا داعى لإخراجها .. إن عربتى فى الخارج .. وسنتناول الغداء فى النادى .. ثم أعيدك إلى هنا .

ودخل « رياض » إلى القاعة وصاح بهناء :

— سأتناول الغداء فى النادى .. وإذا سأل عنى أحد فيطلبنى هناك .

وصاحت به هناء :

— خذ المعطف معك .

— الجو لا يحتاج إلى معطف .

وهبطت « هناء » ممسكة بالمعطف ، وهى تلبسه له :

— الجو بارد ، وأنت مرهق هذه الأيام .. لا تكن عنيداً .. كالأطفال الصغار .

ووقفت « هناء » ترقبه ، وهو يسير إلى الخارج . وأحست كأن انحناءة ظهره قد زادت .. وكأن عبئاً يثقل كاهله .

ولم تشك أن العبء هو « هدى » .. أو بتعبير أصح .. قطيعة « هدى » .

إنها تعرف جيداً .. ما تستطيع أن تفعله « هدى » به .. ولقد كانت دائماً تحس .. بأنها باتت من ضرورات حياته .

ولقد حاولت أن تطلبها عدة مرات .. ولكن التليفون كان يدق ولا يجيب أحد .. وفى المرات التى ردت عليها « أم حبيب » أنبأتها أنها نائمة .. حتى لقد خيل إليها أن « هدى » تعمدت أن تنكر وجودها .

ولم تعرف إلى أى مدى وصلت الخصومة بينهما .. ولا هى تدرى ما إذا كان يريد منها أن تدعوها أم لا .. لقد قطع مجىء « فؤاد » الحديث بينهما .

وهى تعرف مدى عناده .. تعرف جيداً .. أنه لم يحاول قط فى أى خصام بينهما .. أن يطلب منها العون .

وكانت العربة تخترق طريق برمانة متجهة إلى « نادى الشرق » وقد جلس « رياض » بجوار « فؤاد » وساد الصمت بينهما حتى قطعه فؤاد بقوله :

— اسمع يا رياض .. إذا كنت تكره أن أتدخل فى موضوع « هدى » فلن أنبس فيه بكلمة .. إنى أكره أن أحشر نفسى فيما ليس لى فيه .

ولم يكن « رياض » يكره أبداً أن يحدثه أحد عن « هدى » ، مهما كان نوع الحديث .. بل لقد أحس أنه يود أن يطرق الحديث عنها مع أى إنسان .. فأجاب قائلا :

— قل ما تشاء .

— لماذا تركت هدى ؟

— لأنى تأكدت من علاقتها بهذا الحيوان .

— أما زلت تحبها ؟

— طبعاً .

— إذن فأكبر غباء تفعله .. أن تترك له المرعى . يمرح فيه كما يشاء .

— ماذا كنت تريدنى أفعل .. أصرف ، وهو يستمتع كما تقول .

— كلا .. كنت أريدك أن تصمد أمامه .

— أدخل معها فى معركة كل يوم من أجله !!

— أبداً .. إنه لا يستطيع الصمود أمامك أبداً .. إنه يخشى على نفسه .. هل يجرؤ أن يزورها علانية كما تفعل أنت ؟

— لا .. إنه يتسلل إليها تسلل الفأر .

— هل يجرؤ على أن يخرج معها .

— لا .

— هل يستطيع أن يتزوجها ؟

— لا أعرف .

— ولكنى أعرف أنه لا يستطيع أن يربط مصيرها بمصيره .. ويوم يفعل ..

يكون قد قضى على نفسه .. ويوم يحس أنه مهدد بالفضيحة .. سيقطع كل ما بينها وبينه .

وكانت العربة قد وصلت إلى باب النادى .. وهبط كلاهما إلى الداخل .. ولمح « رياض » بعض الأصدقاء يلتفون حول إحدى الموائد فى القاعة الداخلية .. فقال لفؤاد :

— إنى أفضل أن نجلس وحدنا .

واتجها يساراً حيث اتخذا مكانيهما فى ركن منعزل .

وأقبل الساقى يحيى « رياض » فى وحشة .. قائلا :

— أهلا وسهلا رياض بك .. مضت بضعة أيام لم نرك .. بماذا تأمر ؟

ونظر إلى فؤاد فقال فؤاد :

— هات لنا زبيباً مع تشكيلة مزّات .. ثم جهز لنا .. دجاجتين مشويتين .

— تكرم سيدى .

واستدار الساقى ، وعاود الصاحبان حديثهما الذى بدآه فى العربة .

تساءل رياض :

— تقول إنه يوم يحس بالفضيحة ، سيقطع كل ما بينهما ؟

— أجل .

— ولكنها تعمل كل ما تستطيع لكى تستره .

— وأنت تريد أن تساعدها بالطبع .

— كيف ؟

— بتركك إياها .. حرة فى أوقاتها وفى تصرفاتها .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى .. أن إخلاءك الميدان له .. يجعلها أقدر على التصرف فى أوقاتها .. حسب مشيئته .. إنها تستطيع أن تقابله وقتما يشاء .. بينا وجودك فى حياتها يضيق عليها الخناق .

و لم يبد على « رياض » الاقتناع التام وتمتم قائلا :

— جائز .

— ليس جائزاً .. بل هو أكيد .. وأكثر من هذا أنت تستطيع مع وجودك فى حياتها أن تتمكن منه .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن تدبر لفضيحته بطريقة مؤكدة .

— كيف ؟! هل تظنها ستطلعنى على كل علاقتها به ؟

— إلى حد ما .

— معنى هذا أنى سأسلم بوجوده معها ؟

— ولِمَ لا !؟ أليس هو الأمر الواقع فعلا !

ونظر إليه رياض فى غيظ :

— تريدنى أن أسلم بعشيق لها ؟

— اعتبره زوجها .

— ولكنه ليس زوجاً .

— قلت لك اعتبره كذلك .. هل تستطيع أنت أن تمنعها من زواجه ؟

وتردد رياض برهة ثم أجاب :

— لا .

— ماذا كنت فاعلا إذن لو أنه تزوجها ؟ هل ستقطع علاقتك بها ؟

— سيقطعها هو .

— إذن احمد الله .. على أن هذا لم يحصل .

وتصور رياض أن علاقة « هدى » قد باتت محرمة عليه ، وأحس بشىء يلتوى فى باطنه .

إن خيط العزاء الوحيد الذى يصلب عوده هو إحساسه بأنه يستطيع أن يراها ، وأن يعاود علاقته بها ، بطريقة ما .. أما أن يحرم منها نهائياً ، فتلك هى

الكارثة الكبرى .

وعاد فؤاد يقول :

— عاود إذن علاقتك بها ، وافترض أن هذا « الجحش » قد تزوجها ، وراقبه جيداً ، حتى تحصل على دليل لعلاقته .

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك اترك الأمر لى . سأخلصك منه ، وأقضى عليه نهائياً .

وأحس رياض بشعور من الارتياح يملأ نفسه لأول مرة منذ ترك هدى .

لم يكن يدرى .. أى دليل هذا الذى يمكن أن يفضح به سامى .

بل و لم تكن هذه الفضيحة تهمه فى هذه اللحظة .

إن كل ما يريده هو أن يعود إلى « هدى » أو يعيدها إليه .

ولقد وجد مبرراً .. يحفظ عليه ماء وجهه .

ليفرض أنها تزوجته .

أجل .. ليعتبره زوجها .

ليكن ما يكون .. ما دام سيعود ليراها كما كان يراها .

قاتل الله حماقته التى دفعته إلى أن يقطع علاقته بها .

إنه يكاد يجن شوقاً إليها .

ويتمنى لو عدا إليها كالأطفال .

ولكن ترى هل تقبل هى عودته ؟

إنها كانت دائماً رقيقة لطيفة ، وهى لا جدال تحس بحاجته إليها .

ولكن هب ذلك الطارق الجديد قد تحكم فى حياتها .. ومنعها منه !

ومرة ثانية أحس بذلك الشىء الذى يلتوى فى معدته .

لا .. لا .. غير معقول .

إنها هى أيضا تحتاج إليه ..

سيعود الآن إلى بيته ليطلب من « هناء » أن تدعوها إلى عيد ميلادها .

وهو يعرف أنها لن ترد دعوة « هناء » .
وعندما يلقاها فى بيته .. سيعرف كيف يعيد كل شيء إلى ما كان عليه .
وأقبل الساقى وبيده كئوس الزبيب وصحاف المتبلات .
ورشف « رياض » رشفة من كوب الخمر الشبيهة باللبن ، وأطلق تنهيدة أحس بعدها بشىء من الراحة .

١٧

ليلة أنس ..

وضعت « هدى » السماعة عقب انتهائها من حديث طويل مع « سامى » اضطرت خلاله أن تعتذر إليه عن لقاء الليلة .

وقد بدا الضيق فى نبراته خلال الحديث .. ولم تكن هى أقل ضيقاً .. إذ لم يكن يمتعها فى حياتها .. كساعات لقائه .

كانت تحس فى جواره بالسكينة والاستقرار .. وكانت تكره كل ما يفرض عليها .. بعده أو فرقته .. وكانت تتملص من كل ما يحول بينها وبينه .. من مواعيد .. ودعوات .. وسهرات .. وولائم .. وكانت لا تكاد تنهى عملها فى المسرح حتى تعدو لترتمى بين أحضانه ، وعند ما كانت تكرهها الظروف على قبول وليمة أو رد وليمة .. كانت تفعلها مكرهة .. وكانت تجلس طوال الوقت شاردة لا تكاد تحس بمن حولها حتى كف الأصحاب عن دعوتها .. وانتهت بنفسها إلى نوع من العزلة أبعدتها عن محيطها الطبيعى .

ولم تحس هى بأنها فقدت شيئاً بعزلتها .. حتى وجدت نفسها تمد يدها إليه ، وأحست بأنها تكاد تنقل عليه بالتزامات لا قبل له بها .. التزامات قد ترسب مع الأيام شوائب تكدر صفو حبهما ، وهى التى باتت لا تحرص فى حياتها على شيء قدر حرصها على أن يظل حبهما نقياً متدفقاً .

ووجدت نفسها مكرهة على أن تضحى ببعض ساعات لقائه وأن تحتمل بعده بين ليلة وأخرى .. لكى تلتقى هؤلاء الذين يملكون أسباب رزقها ، وفرص ظهورها وعملها .

وبالأمس لقيت فى المسرح « عبد الرحيم جودة » صاحب شركة الأفلام المتحدة و « شلته » ، وكان قد عاد مرة أخرى من القاهرة وأقبل عليها

قبل أن تبدأ دورها يحييها فى شوق ويغازلها بقوله المعتاد :

— « إمتى الزمان يسمح يا جميل » ؟!

وكانت ترد عليه دائماً وهى تضحك قائلة :

— كما يقولون عندكم فى مصر « فى المشمش » .

ولكنها لم ترد عليه بقوله المعتاد بل أجابت :

— عند ما تمضى العقد .

— العقد جاهز تحت أمرك .

— مضى عليك عام وأنا أسمع منك هذا .

— لأنك لا تريدين أن تمنحينا فرصة لإمضائه .. إننا لا نكاد نراك حتى تختفين كأنك « فص ملح وذاب » .

وقبل أن ترد عليه تدخل صاحبه « إبراهيم زكى » المخرج بقوله :

— لأنها تخشى أن تدعونا للعشاء .

وتساءل ثالث من الثلة وهو « محمد عبد الغنى » .. وهو خليط من شاعر وملحن ومهرج ومدير دعاية :

— أهى بخيلة إلى هذا الحد ؟

وأحست هدى بصدرها يضيق بتعليقاتهم السخيفة وتمنت لو أستطاعت أن تفر منهم ومن المسرح ومن المتفرجين لترتمى فى أحضان « سامى » .. ولكن كان عليها أن تحتمل ، وأن ترد مازحة :

— أنتم كالقطط تأكل وتنسى .. ألم يثمر فيكم عشائى فى المرة السابقة ؟!

ورد عبد الرحيم بقوله :

— نحن لا نريد عشاء « حاف » .. نريد ليلة أنس .

وقال إبراهيم المخرج :

— العشاء نستطيع أن نتناوله فى أى مكان .. ولكننا نريد سهرة لطيفة .. نغنى ونرقص .

وكانت الراقصة « علية » قد اعتلت خشبة المسرح ، فأجابت هدى وهى تشير إليها :

— رقص .. أكثر من هذا ؟!

ورد عبد الرحيم قائلا :

— نريد شيئاً « على الضيق » .. لا على المشاع .

ومرة أخرى أحست هدى بصدرها يضيق .

لقد كانت تعرف ما يريدون ، وكانت تعرف أن الكثير من عقود السينما .. تبرم فى ليالى الأنس الصاخبة .. وأنها — فيما يبدو — لن تكون موضع استثناء من بين أصحاب هذه العقود .

وكانت تدرك أن « سامى » لا يقر هذا النوع من السهرات .. بل هى نفسها .. بعد أن وجدت ملاذها بين أحضانه الهادئة .. باتت تضيق بهذه السهرات وبأصحابها .

ولكنها مع ذلك تجد نفسها مرغمة على قبولها ، والتسليم بها .. لأنها سبيلها الوحيد إليهم .. ولأنها الميدان المضمون للتعامل معهم .

وهى تعرف كيف تخوضه .. دون أن تفعل حقيقة .. ما يمكن أن تعتبره خيانة لسامى .

وأجابت عبد الرحيم بقولها مبتسمة :

— إذن لتكن السهرة عندى غداً .. ما رأيكم ؟

وأجابت الثلة فى صوت واحد :

— موافقون .

وقبل أن ينصرفوا قال عبد الرحيم :

— لا تنسى فتة المجدوسة .

وقال إبراهيم :

— ولا تنسى الكبة النية .. والفراخ المشوية .

وقال عبد الغنى ضاحكا وهو يشير إلى المسرح :

ــ ولا تنسى الست « علية » .. نية أو مشوية .. أحبها على أى حال .

واستيقظت هدى مبكرة فى الصباح ، ونادت أم حبيب والطباخ .. وبدأت تملى أوامرها الخاصة بدعوة العشاء .

وتلقت أم حبيب الأوامر .. وانصرفت وهى تهز رأسها فى حيرة من أمر سيدتها .

أى طريق تنوى أن تتخذه فى حياتها ؟

أهى حقيقة ستخلص لهذا المخلوق الذى لا يمنحها سوى بضع ساعات من الأحضان والأوهام ؟

يبدو لها هذا .. وإلا لما سلمت ــ من قبل ــ بقطيعة رياض بك .. الرجل الذى أنشب مخالبه فى حياتها بطريقة سدت أمامها كل منفذ للتخلص منه .

وقد قاطعت السهرات والولائم .. وانكمشت بين أيدى ساحرها الجديد .

ولكنها تبدو اليوم وكأنها تهم بالانطلاق .. هذه الزجاجات التى أخذت ترصها فى البار ، والحشيات التى أعدتها فى غرفة الجلوس الداخليــة .. ومنضدة اللعب التى أمرت بإخلائها مما عليها .. كل هذا لا يمكن أن ينم إلا عن سهرة صاخبة .

ثم .. الاعتذار الطويل لسامى .

أتراها بداية خيانة ؟

ولكن لماذا لا تعود إلى رياض بك ؟

وعادت العجوز تهز رأسها فى حيرة وهى تتمتم قائلة :

ــ حكم .

وفى الظهيرة .. استقبلت العجوز أول هدية .. صندوقاً من المانجــو المصرى .. وبعد نصف ساعة وصل صندوق من الويسكى .. ونصف ساعة أخرى .. وصلت علبة بطارخ وصندوق من التفاح .. ثم سلة زهور .. ثم

صفيحة عسل .

ولم تكن « أم حبيب » وحدها هى التى هزت رأسها فى دهشة .. بل لقد كانت « هدى » أسبق منها إلى الدهشة والحيرة .. ووجدت نفسها تهتف قائلة :

ــ السخفاء .. ما الذى يبغونه من كل هذه الهدايا .. وماذا يتوقعون أخذه .. ثمناً لها !!

ووقفت « أم حبيب » تتساءل :

ــ أين أضع كل هذا ؟

ــ ضعى فى الثلاجة قدر ما تحتمل وضعى الباقى فى الحجرة الصغيرة .

ووقفت أمام المنضدة ترتب الزهور وهى تسائل نفسها :

ــ ماذا يمكن أن أقول لسامى عنها ؟! غير معقول أن أكون اشتريت كل هذا مرة واحدة .

وفى الليل .. أنهت دورها مبكرة .. ثم عادت إلى البيت .

وألقت نظرة سريعة على المطبخ لكى تتأكد أن « أم حبيب » لم تقم بعمل مفاجىء يتلف لها الوليمة .

ثم اتجهت إلى حجرتها .. لتبدل ملابسها .

ولم تكد تنتهى حتى دق الجرس .. وبدأ ضيوفها يتوافدون .. الواحد بعد الآخر .

ووقفت تحييهم وقد رسمت على شفتيها أوسع ابتسامة .

وأقبل عبد الرحيم بجسده الضخم الممتلىء ووجهه الأسمر ورأسه الأصلع يجوس خلال البيت كأنه صاحبه .. وسألها :

« هل وصل قفص المانجو وعلبة البطارخ ؟ » ومد ذراعه الطويلة يحاول أن يحيط بها فى غير كلفة .. ولكنها تملصت منه ببساطة وبغير كلفة أيضاً .. ودون أن تعرب حركتها عن صد لمحاولة غزله ، ووقف عبد الرحيم .. أمام

صورة زيتية معلقة فوق « البوفيه » فى حجرة السفرة وقال فى استخفاف :

— لا . سأرسل لك صورة ابتعتها من مزادات القصور ، بثلثمائة جنيه .. إنها لا تستحق غيرك .

— متشكرة .. لا داعى .. لأن تكلف نفسك ....

ورد عبد الرحيم فى لهجة تأنيب :

— وبعدين !! لقد أصبحت منذ الآن بطلة أفلامى ، وأنا مسئول عن كل شىء عندك .

— حتى أثاث بيتى ؟!

وهتف إبراهيم وهو يجلس على مقعد عال أمام البار وقد أخذ يفرغ من زجاجة الويسكى فى كأس :

— حتى ملابسك .

وصاح عبد الغنى وهو يلتقط بضع حبات من الفستق :

— مسئول عن خلعها .. أم لبسها ؟

وعلت قهقهات من هنا وهناك ، ولم تجد « هدى » بداً من أن تشارك فى القهقهة .

وتساءل عبد الغنى وهو يخطو ، بساقيه الرفيعتين وشعره المنفوش إلى خارج القاعة ويدور بعينيه كأنه يبحث عن شىء :

— أين علية ؟

وأجابت هدى :

— ستحضر بمجرد أن تنتهى من دورها .. وسيأتى معها شكرى وعبد الله وحسين .

وصاح عبد الغنى :

— كل هؤلاء سيحضرون ؟. نحن نريد « علية » فقط .

ورد على من فوق البار :

— ياغبى .. « علية » وحدها لا تساوى شيئاً .. لا بد لها من تحت يسندها .

وأجاب عبد الغنى ضاحكا :

— سأسندها أنا .

ودق الجرس وكان الطارق .. بقية الضيوف .. ألفريد رزق الله الموزع ، وزوجته وابنته الكبرى .

وتلقتهم « هدى » بالترحاب ، وتوزع الثلاثة فى الحجرات . الأب على البار .. والزوجة على مائدة اللعب ، ووقفت الابنة الكبرى تدير جهاز التسجيل وهى تصيح :

— ما لكم تجلسون هكذا كأنكم فى معزى ؟!

وعلت من الجهاز موسيقى التشاتشا .. وصاحت جانيت ذات العيون السود والجسد الطويل والنحيل . وقد بدت كأنها صورة مصغرة من أبيها :

— هل من راقص ؟

وصاح إبراهيم .

— قم يا عبد الغنى .

وقبل أن ينهض عبد الغنى جذبته جانيت من يده ، وأخذت تدور به فى حركاتها النطاطة فى أنحاء الغرفة .

وأقبل « السفرجى » وسط هذه العاصفة من الموسيقى والرقص والقهقهة يسائل « هدى » هامساً هل سيقدم الطعام .

ونظرت « هدى » إلى الساعة وكانت قد بلغت الثانية عشرة :

— سأخبرك عندما يحضر بقية الضيوف .

وعاد الرجل إلى المطبخ ليجد « أم حبيب » جالسة على مقعدها تفرك عينيها وتسائله :

— ماذا قالت لك ؟

— قالت انتظر حتى يحضر باق الضيوف .

ونهضت « أم حبيب » تتحامل على ساقيها قائلة فى يأس :

— انتظر أنت حتى تقدم الطعام فى الفجر إن شاء الله .. سأذهب لأنام .. حتى أستعد لإيقاظ .. عفريت الصباح الذى يأتى من النجمة .. إننا نعيش مع مجانين .. ربنا يهديهم .

وقبل أن تأوى العجوز إلى الفراش .. دق جرس الباب ، وأقبلت « علية » ، وشكرى .. وبقية أفراد التخت .

وعلت ضجة عند وصولهم .. كان مصدرها الأول عبد الغنى الذى أقبل عليها مصفقاً بكلتا يديه صائحاً :

— أشرقت الأنوار .

وحاولت « علية » أن تفلت منه ، ولكنه حاصرها فى ركن الغرفة قائلا :

— لا يمكن .. بالحضن .

وفتح ذراعيه .. وضمها إليه .

واتجهت « هدى » إلى المطبخ وهى تقول :

— تفضلوا .. إلى المائدة .

وجر « شكرى » مقعداً وجلس أمام المائدة وهو يقول :

— أكاد أموت من الجوع .

وكانت « علية » قد أفلتت من ذراعى عبد الغنى ، وأقبلت على المائدة تقول :

— إذا أكلت .. فلن أستطيع الرقص..

ورد عليها شكرى :

— كلى قليلا .

— لن أستطيع .. لأنى إذا بدأت الأكل .. لا أترك المائدة إلا وقد أعجزتنى الحركة .

— إذن لا داعى للأكل .

— ولكنى مثلك أكاد أموت جوعاً .

وأقبل عليها عبد الغنى يصيح :

— كلى .. ولا يهمك .. سأرقص أنا بدلا عنك .. اجلسى هنا بجوارى .. حتى أطعمك .

وأقبلت « هدى » .. وقد وضعت الابتسامة العريضة على شفتيها .

ونظرت إلى المائدة ولم يكن المدعوون قد انتظموا عليها بعد .. كان بعضهم ما زال ملتفاً حول البار والبعض فى الشرفة الزجاجية .. يتسامرون حول مائدة صغيرة وضعت عليها الكئوس ، والبعض الآخر قد التفوا على مائدة اللعب حول مدام ألفريد .

وصاحت « هدى » تدعو المدعوين إلى المائدة بقولها :

— هيا يا جماعة .

وألقت « مدام ألفريد » ورقة « كوتشينة » من يدها قائلة :

— سننتهى من الدور حالا .

ونظرت « هدى » حولها فلم تجد عبد الرحيم .. فصاحت متسائلة :

— أين عبد الرحيم بك ؟

وغمزت « مدام ألفريد » بعينيها وهمست لعبد الله عازف الكمان :

— هذا هو بيت القصيد .

وأجاب عبد الله هامساً :

— أحقيقة تركت رياض عبد الدايم ؟

— أجل .

— مغفلة .. لماذا تركته ؟

— هو الذى تركها .

— لم ؟

— لم يقبل أن يظل معها هى وعشيقها الجديد .

— عشيقها الجديد ! مَنْ ؟
— سامى كرم .
— الصحفى ؟!
— الصحفى .. والسياسى .. ورئيس وزراء المستقبل .
— وماذا لها عليه ؟
— يحبها .
— وهى ؟!
— يقال إنها تحبه .
— إذن فماذا تريد من عبد الرحيم ؟
— بديلا لرياض عبد الدايم .
— وهل وقع ؟

وبدا « عبد الرحيم » خارجاً من غرفة الجلوس الداخلية ، واقترب من « هدى » ووضع ذراعه فى ذراعها ثم سار بها إلى المائدة وجلس بجوارها .

١٨

عقود العشق !

اجتمعت الثلة حول المائدة .. وبدأ « عبد الرحيم » يفرغ من زجاجة الويسكى التى وضعها أمامه فى كأس « هدى » .. ومدت « هدى » يدها تدفع الزجاجة بعيداً عن كأسها قائلة :

— كفى .. هذه كأس مضاعفة .

ولكن عبد الرحيم أصر على أن يستمر فى إفراغ الزجاجة قائلا :

— هذه نصف كأس .. انتظرى حتى أتمها لك .

وبدأ الخادم يدور حول المدعوين بالطعام .. وتعالت النكات والضحكات .

واحتسى عبد الرحيم كأسه الأولى .. ونظر إلى « هدى » فإذا بكأسها مازالت مليئة .. فقال مؤنباً :

— ما شاء الله .. أتشمين الكأس .. لماذا لا تشربين ؟

وابتسمت « هدى » قائلة :

— أنت تعرف أنى لا أتحمل الويسكى .

— اشربى من أجلى .

ورفع كأسه بيده قائلا :

— فى صحة بطلة أفلامى .

ورفع إبراهيم يده بكأسه معقباً :

— فى صحة ممثلتى الأولى .

ومد عبد الرحيم ذراعه وضم « هدى » إليه .

وتململت « هدى » .. وخلصت نفسها من ذراعه فى سكون .. وبدا على شكرى الامتعاض .. وهو يرقب حركات عبد الرحيم .

وعاد عبد الرحيم يلح على « هدى » قائلا :

— اشربى يا هدى .. غير معقول أن نكون ضيوفك وتتركيننا نشرب وحدنا !؟

ورفعت « هدى » يدها بالكأس إلى شفتيها .

ولم تكن « هدى » تفرط فى الشراب .. ولا كانت تكرهه .. ولكنها كانت تحب أن تشرب بمزاج .. كأساً .. أو كأسين .. وليس أكثر من ذلك .. وكانت تحس من الكأس أو الكأسين تأثيراً منعشاً مبهجاً .

ولم تكن تحس وقتذاك رغبة فى الشراب .. فقد كانت ابتسامتها المشدودة على شفتيها تشد معها أعصابها ، وكانت تعتبر نفسها فى مهمة دقيقة قاسية لا بد أن تنتهى منها .

كانت حريصة على أن ترضى عبد الرحيم .. دون أن تفرط معه فيما يبعثها على الإحساس بأنها قد أساءت إلى حبيبها .

ولم تكن المسألة هينة .. لا سيما وهى تحس بفرط الضيق من كل ما يحيط بها من جو وأشخاص .

ولم تكن بطبيعتها تحس بلهفة على هذه الأجواء ، ولكنها كانت تستطيع احتمالها .. كشىء يلهيها ويملأ فراغها .

أما الآن .. وليس فى ذهنها أو فى قلبها أو فى وقتها قيد أنملة لم يملأه حبيبها .. أما الآن .. وهى تبصره فى ما ترى وتسمع .. فى كل همسة تطوف بمسامعها ، فقد أحست أن هذا الجو يجثم على صدرها ويكتم أنفاسها .

وعندما رفعت الكأس إلى شفتيها .. تخيلت كل هذا الضجيج الذى يحيط بها قد خفت .. وتخيلت « سامى » يجلس بجوارها فوق قمة جبل أو على شاطئ بحيرة .. وسرت إلى مسامعها موسيقى رقيقة حالمة .. ومالت برأسها

كأنما تسندها إلى صدره .

ورشفت من الكأس رشفة طويلة وهى مغمضة العينين ، ثم هبطت بالكأس على المائدة وأطلقت زفرة طويلة .

وانطلقت القهقهات من حولها لتوقظها من حلمها البعيد ، وصاح عبد الغنى :

— حريفة .. فى الشرب والله .. تعرفين كيف تستمتعين بكأسك .

وملأت النشوة « عبد الرحيم » ومد يده بالزجاجة يعاود ملء الكأس وهو يقول :

— اشربى .

وأحست « هدى » أن الكأس تبعدها عن كل هذه السخافات التى حولها وتجعل المهمة الثقيلة أخف وطأة .

ومرة ثانية رفعت الكأس إلى شفتيها ورشفت منها رشفة أطول ثم هبطت بها إلى المائدة .

وأحست بشدة أعصابها تخف .. وبالبسمة المتوترة التى علت شفتيها تسترخى .

وضحكت .. وضحك الكل من حولها .

وانتهى الطعام .

ونهضت « الشلة » لتتجه إلى حجرة الجلوس .. واسترخى الجميع على المقاعد المنخفضة التى تحيط بالحجرة كلها ، وطاف الخادم بفناجين القهوة .

وقال عبد الرحيم وهو يمد ساقيه ويحاول أن يحيط « هدى » بذراعيه :

— ألا تنوين أن تسمعينا شيئاً ؟

— طبعاً .. ماذا تريدون أن تسمعوا ؟

وصاح إبراهيم :

— أسمعينا : « شجون » .

ورد عليه عبد الغنى :

— لا نريد أحزاناً .. أنشدينا شيئاً مفرحاً .. ترقص عليه « علية » .

وأجابت علية :

— أنا لا أكاد أحرك أطرافى .

— لا ضرورة لتحريك أطرافك .. يكفينا جداً .. أن تحركى أردافك .

وانطلق يقهقه على نكتته .. وقهقه الجميع بالتبعية .

وبدأت « هدى » الغناء .. وأمسك شكرى بالعود .. وعبد الله بالكمان ، وأمسك آخر بالناى ورابع بالدف .

وأصر عبد الغنى على أن ترقص « علية » .

وأخذ المكان يضج بخليط مضطرب من الأصوات والآهات والدقات .

وسرت نشوة السكارى .. بين المدعوين .. وانطلقت الضحكات على كل شىء .. وعلى لا شىء .

ووقفت « علية » وسط الحجرة رافعة ذراعيها مادة إحدى ساقيها .. وأخذت تحرك وسطها فى تثاقل وبطء وهى تغمز بعينيها ضاحكة ، وقد ركع أمامها عبد الغنى مصفقاً بيديه مطلقاً من حجرته آهات طرب مزعجة .

وضاع صوت « هدى » وسط صرخات الحناجر ودقات الأقدام وصفقات الأكف .

وصاح عبد الرحيم محتجاً وهو يضع زجاجة الويسكى بين قدميه :

— يا غجر .. هذا ليس طرباً .

وصاح عبد الغنى :

— لا نريد طرباً .. نريد رقصاً .. نريد هز وسط .

ثم وقف بجوار « علية » ، وأخذ « يطرقع » بأصابعه ويدب بقدميه ويهز وسطه .. واقترب من « علية » يريد ضمها ولكنها أفلتت منه وانطلقت إلى

الحجرة الأخرى .

واتجه عبد الغنى إلى « هدى » .. مترنحاً مصفقاً بيديه .

وكانت « هدى » قد كفت عن الغناء وأخذت تشاهد المهرّج ذا الساقين الطويلتين والشعر المنفوش وهو يتمايل راقصاً .

ولم تتمالك نفسها من الضحك .. وكانت بضعه الكئوس التى احتستها قد أرخت أعصابها ، وأزالت توترها .. وأشعلت فى باطنها وهج الحب .. وزادت وحشتها إلى الحبيب الغائب ، وباتت تتوهمه فى كل شبح .. وتسمع نداءه فى كل همسة .. وتمنت لو استطاعت أن تحدثهم جميعاً عنه وتخبرهم كيف يحبها .. وكيف يضمها إليه .. ويريحها على صدره .

واقترب منها « عبد الغنى » ومد يده فأمسك يدها .. وصاح فى لكنة المخمور :

— نريد رقصة .

ولم تكد تنطلق صيحته حتى صاح الجميع :

— أجل .. نريد رقصة .. نريد هدى .

وصاحت هدى .. ضاحكة :

— أنا أرقص !؟

وتعالت الصيحات :

— أجل .. نريد هدى .

— ولكنى لا أعرف الرقص .

وأقبلت « علية » تتمايل وهى ترفع أصبعها مشيرة إلى هدى :

— بل ترقصين خيراً منى .. قومى يا هدى .

وقفز إليها « عبد الرحيم » فى نشوة .. وتمايل بجسده الضخم قائلا :

— قومى يا هدى .. الجمهور كله يريدك أن ترقصى .

وعاد الجميع يصفقون ويدقون بأقدامهم :

— نريد هدى .. نريد هدى .

وفى غمرة الضجيج جذبها عبد الغنى من يدها فأوقفها .. واقتربت منها « علية » ولفت وسطها بشال عقدته على جانبها .

ونظر إليها شكرى نظرته الولهى وأخذ يحرك أصابعه على القانون وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وتساءل :

— ها .. يا هدى .. نبتدىء ؟

ودون أن يسمع إجابتها .. بدأ يدق موسيقى « زينة » .

وابتسمت « هدى » .. واستخفتها الموسيقى .. والصيحات المجنونة الملحة من حولها .. وبدأت ترقص .

كانت رشيقة الحركات .. حلوة اللفتات .

وأحست بإحساسها يرهف .. ومشاعرها تتأجج .. وهى تتحرك بخفة الفراشة فى الدائرة الضيقة التى أحاطت بها شلة السكارى ، وأغمضت عينيها وتمنت لو تلقفها سامى ليريحها على صدره .

وضج الجميع بالإعجاب .. وعادت « هدى » لتستقر فى مكانها متلاحقة الأنفاس .

وصاح عبد الغنى وهو يقذف بالوسادة الصغيرة إلى السقف :

— أين كنت تخفين كل هذه المواهب .. يا ساهية !!

وصاح إبراهيم زكى وهو يفرغ بقايا الكأس فى جوفه :

— سأعلن غداً عن مولد نجمة .

وضحك عبد الرحيم وقال فى اعتزاز وهو يمد ذراعه ليضم « هدى » إليه :

— نجمتى أنا .

ولم يبد الارتياح على وجه « علية » وهزت كتفيها وقالت هامسة فى سخرية :

— « الكعكة فى يد اليتيم عجبة » .

وسمعها عازف الناى فهمس ضاحكا :

— يتيم .. ليتنا نتمتع باليتم ليلة .. إن لديه مخزن كعك .

ولم يعجب الحال « علية » فالتفتت إلى من حولها قائلة :

— أتنوون إضاعة الليلة هكذا .. دعونا نشد بضعة أنفاس .

ورد عليها أحدهم :

— أمعك سجاير معمرة ؟

وضحكت « علية » قائلة :

— معى العدة بحالها .. هيا بنا .

وأخذ أفراد التخت يتسللون وراء « علية » إلى الشرفة الزجاجية .. ونهضت « مدام ألفريد » إلى مائدة اللعب وقد أحاطت بها ثلة المقامرة .

والتفت عبد الرحيم إلى « هدى » ، ورمقها بنظرة فاحصة ، تتسلل إلى ما وراء الثياب ، وألقى برأسه على مسند المقعد وقال فى استرخاء :

— ما رأيك فى أن نتحدث قليلا فى العمل ؟

وقالت « هدى » وهى تحس أنها توشك أن تخوض معركة :

— أمرك .

واستدارت لتواجهه فى جلستها .

وبدت الحيرة والتردد على وجهه ونظر حوله فى ضيق :

— أتظنيننا نستطيع التحدث فى هذا الضجيج !؟ أليس عندك مكان أهدأ .. نخلو فيه بأنفسنا حتى نستطيع التحدث فى هدوء !

وكانت « هدى » قد أصرّت على أن تسير إلى نهاية الشوط .. فى المجال الذى حددته لنفسها ، والذى لا يدخل فيه أى احتمال لخيانة حبيبها خيانة حقيقية .

ونهضت ببساطة .. وهى تقول بصوت عال :

— معك حق .. لا أظننا نستطيع أن نبرم عملا فى هذا الضجيج .. هيا بنا إلى حجرة أهدأ .

وغادرت هدى الغرفة .. ونهض عبد الرحيم وراءها يسحب جسده الثقيل المخمور .. ولم ينس أن يحمل فى يده زجاجة الويسكى القابعة بين قدميه .

وقال عبد الغنى معلقاً على الزجاجة ، وهو يضحك :

ــ شىء .. لزوم الشىء .

وضحك البعض .. وتغافل البعض الآخر .

واجتازت « هدى » الممر الطويل .. ودخلت إلى الحجرة المجاورة لحجرة النوم .. ذات النافذة الزجاجية العريضة المطلة على النهر ، والتى تبدو منها أضواء الجبل مترنحة من خلال أوراق الشجرة المائلة على النافذة .

نفس الحجرة التى تعوّدت أن تستقر فيها على حجر سامى عندما يجلس على مقعده الكبير المواجه للنافذة .

ومدت « هدى » يدها لتضغط على زر النور ، ولكن عبد الرحيم قال لها :

ــ لا داعى للنور .

وكان نور مصابيح الطريق يتسلل إلى الحجرة من النافذة فأشار إليه قائلا :

ــ هذا النور يكفى .. إنه يهدىء الأعصاب .

ولم تعترض « هدى » ، ولكن أنفاسها بدأت تتلاحق .. إنها لا تعرف المدى الذى ينوى صاحبنا الوصول إليه .. ولكنها تعرف مداها .. وهى تستطيع أن توقفه عنده .

ومع ذلك كانت تحس بضيق .. وكأنها تحمل على كتفيها عبئاً ثقيلا .

كل هذا الذى تفعله بغيض إلى نفسها .. إنها حقيقة لم تخن « سامى » ..

ولكن هذا التصرفات والأوضاع .. لا يمكن أن تكون مريحة أو مقبولة أو سليمة .. فى عملية حب مخلص جاد .

و « سامى » لا يمكن أن يرضاها .. بل هى نفسها لا تقرها ، ولكنها تحس أنه لا بد لها من السير فى طريقها الملىء بالأوحال والمزالق .. ولا بد لها أن تحذر هذه المهاوى التى تحيط بها .

وجلست « هدى » على أحد المقعدين الكبيرين .. وجلس عبد الرحيم على المقعد الآخر .. وزحف إليها حتى أضحى ملاصقاً لها ثم مد يده فاستقر بها على يدها .

وسحبت يدها بخفة من أسفل يده .. وأزاحت مقعدها قليلا إلى الوراء حتى تبعد ركبتيها عن ركبتيه .

وقالت محاولة أن تقوده إلى الموضوع مباشرة :

ــ هل حددت موعداً لبدء التصوير ؟

وبدا السؤال مفاجئاً لتفكيره فردد وكأنه لا يدرى شيئاً عن الموضوع :

ــ التصوير !!

ولكنه لم يلبث أن تدارك الأمر .. واستطرد قائلا :

ــ أجل .. أجل .. لا أظننا سنتأخر كثيراً .

ــ لعل الدور يلائمنى .

ــ جداً .

ــ إذن نتحدث فى التفاصيل .

ــ لا أظننا سنختلف أبداً .

ــ أعرف هذا .. ولكنى أفضل أن يكون كل شىء واضحاً .

ــ ليس بيننا تكليف .. سأنفذ كل ما تريدين .. ما هى طلباتك ؟

ــ لا أريد أكثر من أجر معقول .. ومدة محددة للعمل حتى لا أضيع عملى هنا .

ومرة أخرى مد يده إلى يدها .. وعاد يزحف بمقعده .. وقال فى صوت منحه ما استطاع من رقة ونعومة :

ــ دعيك من عملك هنا .. إنك ستبقين فى مصر بصفة دائمة .

ــ حتى ولو لم يكن لدىّ عمل ؟

ــ لا يهم العمل .. إنك ستبقين معى .

— معك !؟ كيف ؟

— سأفرش لك شقة فاخرة على النيل .. وسأمنحك ثلثمائة جنيه شهرياً ..
وكل ما تطلبينه سيكون تحت أمرك .

وأحست « هدى » بشيء يلتوى فى أمعائها .. وداخلها نوع من اليأس
جعلها توشك أن تختنق .. بالمدى الذى يريد أن يصل إليه الرجل .. ولكنها رأت
أن تحاول محاولة أخرى .. تجعله لا يتعدى الحدود التى رسمتها لنفسها .

قالت فى لهجة حاولت أن تكسبها ما استطاعت من هدوء :

— أهذا كله سيوضع فى العقد ؟

ورفع حاجبيه فى دهشة .. ثم انفجر ضاحكا وتساءل :

— أى عقد ؟

— عقد الفيلم .

— هذا شيء ليس له علاقة بالفيلم .

— عقد الزواج إذن ؟

— زواج ؟.. ألا تعرفين أنى متزوج .

— مقابل أى شيء إذن ستفرش لى الشقة وتمنحنى ثلثمائة جنيه ؟

— مقابل .. مقابل ...

وتردد الرجل ثم قال ، وهو يرفع كتفيه :

— مقابل أن نكون أحباء .

ونظرت إليه وتساءلت :

— هذا إذن .. عقد عشق .

— سميه كما تشائين .

— كنت أظن أن أول ما يتضمن عقد العشق .. هو العشق فعلا .

وابتسم الرجل ابتسامة شابها البله ، وزاد اقترابا منها وقد أخذ لعابه يسيل ..
وقال فى صوت خافت :

— وأنا أعشقك يا هدى .. عشقتك منذ رأيتك أول مرة على المسرح ..
تغنين .. أغنية .. أغنية ..

وبدا أنه قد نسى الأغنية وقاطعته « هدى » لتوفر عليه مشقة التذكر .. قالت
فى هدوء :

— وماذا عنى ؟

— بالنسبة !!

— لمسألة العشق هذه .. ألا ضرورة لوجودها من جانبى ؟

— ستأتى مع الوقت .

— وإذا كنت مرتبطة بعقد عشق آخر ؟

— افسخيه .

— هكذا .. ببساطة !

وزاد الرجل اقترابا منها حتى كادت تحس سخونة أنفاسه .

وقال وهو يضع كفه الثقيلة على ذراعها :

— سأعوضك عن كل شيء .. إنى أحبك .. وسأجعلك تعيشين فى القاهرة
كملكة .

وزحفت « هدى » بمقعدها إلى الوراء ، وهى تحس أنفاس الرجل تلفح
وجهها .. وسألته فى يأس :

— والفيلم ؟

— دعيك من الفيلم .. إننى سأغنيك عن كل شيء .

— ولكنى أفضل أن أعمل .

— ليكن .. ستتاح أمامك فرص العمل فى القاهرة . وسيقبل عليك
الملحنون .. والإذاعة .

— أكل هذا متوقف على عقد العشق الذى أمضيه معك ؟

— إنى سأمنحك كل شيء .. ولا أريد منك أى شيء .

— أكثر من أن أستقر فى شقة معك فى القاهرة ؟

— ستكون ملكك أنت .

— على أن أكون أنا ملكك أنت ؟

— أنا أحبك .

واقترب منها ، وقد أخذت أنفاسه تتلاحق .. وبدا الاحمرار فى عينيه .. ونهض من مقعده وهمّ بالارتماء عليها ، ولكنها نهضت واقفة ومدت ذراعيها تدفعه عنها فى حزم قائلة :

— أظن من الخير أن نعود إليهم ؟

— لحظة واحدة .. إننا لم نتفق على شىء .

— ولا أظننا سنتفق ؟

— إنى على استعداد لكل ما تريدين .

— ولكنى لست على استعداد لما تريد .

— أؤكد لك أنى سأسعدك .. إنى أحس هناك بالوحدة وأحتاج إلى إنسانة مثلك .. هدى ..

واتجهت هدى إلى الباب ، فمد يده وجذبها من ذراعها .. ولكنها تملصت منه فى عنف وقالت :

— كن عاقلا يا عبد الرحيم .. لا داعى للفضائح .

وغادرت الحجرة .. وملء نفسها اليأس .. وعلى شفتيها شدت الابتسامة العريضة لتواجه بها بقية ضيوفها المخمورين .

١٩

باب الصلح

تقلبت « هدى » فى فراشها وأزاحت الغطاء عن كتفيها وفتحت عينيها فى مشقة لترى شعاع الضوء يتسرب من شيش النافذة ، ولم تستطع أن تعرف بالضبط كم ساعة طواها النهار خارج غرفتها المظلمة ، ومدت يدها فجذبت الساعة الموضوعة على الكومودينو فوجدت عقاربها قد تجاوزت العاشرة .

وجذبت جسدها إلى أعلى واتكأت بظهرها على مسند الفراش وأحست بتخاذل أطرافها وصداع يطبق على جبينها ، وببوادر وخز فى جنبها .

وبدا لها كأن نوبة المرارة التى مضت مدة لم تهاجمها توشك أن تعود إليها .. وتملكها الخوف .. ولكنها ما لبثت أن طردت الخاطر من ذهنها وأقنعت نفسها أن ما بها لا يدو أن يكون من مخلفات السهرة الطويلة الصاخبة ، بما فيها من إفراط فى الطعام والشراب .

ودار فى ذهنها شريط سريع لحوادث السهرة ، بكل ما فيها من ضجيج وتهريج .. وذكرت خاتمتها الهازلة .. والعرض الكريم الذى عرضه عبد الرحيم .. الشقة الفاخرة على النيل .. والمرتب الشهرى الضخم .. نظير أن تكون أمة فى مجموعة الإماء التى يقتنيها .

وأطلقت من أنفها نفخة مريرة ساخرة .

لشد ما أحسنت الظن بنفسها .. وبالغير .

لقد خيل إليها أنها تستطيع .. أن تجر الصيد بطعم من ابتسامة رقيقة أو كلمة مازحة .

كانت تتصور أنها قادرة على أن تقطف الورد دون أن يمس الشوك أصابعها .

كانت تعتبر المسألة لعبة سهلة .. ستخرج منها بعد أن تنال غرضها .. خروج الشعرة من العجين .. وأنها لا تحتاج كي تسوى أمورها ، إلى ارتكاب خيانة .. أو الارتباط بعلاقة .

كانت تراها قفزة سهلة .. على أطراف الأصابع .. لا تلوّث الذيل .. ولا تخدش الأطراف .

ولكن تجربة الأمس أقنعتها .. أنها كانت واهمة .. وأنها إذا أرادت أن تصل .. فلا بد أن تقطع الطريق كله .. خوضاً فى الوحل .. وأنه لا يوجد فى الوفاء والخيانة بين بين .

وعاودتها شكة الألم فى جنبها .. وزادت طرقات الصداع على جبينها .. وتملكها إحساس الخارج من شوط خاسر .. وأخذت أسباب الضيق تمسك بخناقها .. ومن بينها ذلك الخطاب الملقى على « الشفونيرة » والذى تطلب فيه أمها أجرة السفر من بيروت إلى « ريو دى جانيرو » لكى تزور أخاها فى المهجر .

ولم تعرف كيف يمكنها أن تدبر كل تلك المبالغ المطلوبة منها .. إنها المرة الأولى التى تشعر بالضيق المالى يحكم حلقاته حولها .. لم تشعر من قبل أن النقود يمكن أن تسبب للإنسان ضيقاً .. لأن النقود كانت دائماً موجودة ، وهى تكره أن تمد يدها مرة أخرى « لسامى » ، وتكره أكثر من هذا أن تطرق باب « رياض » ، بعد أن أعلن قطيعتها .. وبعد أن وضع نفسه فى كفة و « سامى » فى كفة .. وصمم على أن تختار بينه وبين « سامى » .. وباتت عملية خداعه مستحيلة بعد أن راح يرقبها ويحصى حركاتها وسكناتها .

ولقد تعوّد دائماً أن يعود إليها ، بعد كل خصام ، راضياً صافحاً .. ولكن هذه المرة قد أخذ القطيعة مأخذ الجد .. ربما لأنه يشعر أن أسبابها أعمق وأخطر .

لم يحاول أن يحدثها مرة واحدة بالتليفون ، اللهم إلا هذه التليفونات

الصامتة التى لا يفتأ يدقها بين آونة وأخرى .

وأطلقت « هدى » زفرة طويلة ثم ألقت الغطاء من فوق جسدها وغادرت الفراش .

وقبل أن تتجه إلى الحمام سمعت دق جرس التليفون فى الخارج .

واتجهت إلى باب الحجرة وفتحته .. ووقفت فى أول الممر . واستمر الجرس يدق ، وسمعت خطوات « أم حبيب » المتثاقلة تقترب .. ثم بدا شبحها فى آخر الممر ينحنى على السماعة .

ورفعت « أم حبيب » السماعة وتساءلت :

— آلو .. من حضرتك .. إنها نائمة .

وقبل أن تضع « أم حبيب » السماعة صاحت بها هدى :

— من يا أم حبيب ؟

وعاودت « أم حبيب » الحديث فى السماعة :

— دقيقة واحدة يا ست هناء .. لأرى ما إذا كانت قد استيقظت .. دقيقة واحدة .

ووضعت السماعة على المنضدة الصغيرة بجوار التليفون ، ثم اقتربت من هدى قائلة :

— ست هناء تسأل عنك .

واتجهت « هدى » إلى التليفون قائلة :

— سأرد عليها .. قولى لإبراهيم يحضر الشاى .

وحملت الجهاز إلى منضدة الطعام ورفعت السماعة قائلة وهى تتجه إلى المقعد وتستقر عليه :

— أهلا .. وسهلا .. صباح الخير يا هناء .

— صباح الخير يا هدى . أخيراً استطعت العثور عليك .

وتضاحكت « هدى » قائلة :

— أفهم من هذا أنك حاولت الاتصال بى ؟
— ما يقرب من مائة مرة .. حتى كدت أيئس من العثور عليك .
— ولكنى موجودة فى البيت .
— جائز .. ولكن تليفونك لا يرد أبداً .. وفى الأوقات التى يسمح بالرد .. يقال إنك نائمة .
— من الذى يقول ؟
— أم حبيب .
— إن هذا العذر أقرب الأعذار إلى شفتيها .
— لقد قالت لى الآن أنك نائمة .
— إنى فعلا لم أستيقظ إلا على دقات التليفون .
— أمفروض علىّ إذن أن أعتذر عن إيقاظك ؟
— بل مفروض علىّ أن أعتذر عن النوم حتى هذه الساعة .. لقد فرحت جداً عندما علمت أنك على التليفون . وحشتينى يا هناء .
— أحقاً تقولين !؟
— طبعاً .. لماذا تسألين هذا السؤال ؟
— لأنى ظننت أنك نسيتينى .
— أنا أنساك ؟.. إنك فى خاطرى دائماً .
— ومن أجل هذا لا تسألين علىّ ولا تزوريننى .
— لقد انشغلت خلال المدة الأخيرة بشكل غير معقول ، كان هناك مشروع فيلم .. وقد حضر المنتج من القاهرة ومعه المخرج وثلة كبيرة واضطررت إلى أن أقبل دعواتهم وأردّها .. وأنت تعرفين متاعب هذه المجاملات .
— وإلى أى شىء انتهيتم ؟
— لا شىء بعد .
— أما زلت مشغولة بهم ؟

— إلى حد ما .
— أيمنعك هذا الحد من زيارتى إذا دعوتك ؟
— أتظنينى فى حاجة إلى دعوة لزيارتك ؟
— أخشى أن نكون قد وصلنا إلى هذا .
— يا عبيطة . إنى أعتبر بيتكم بيتى ، وأعتبرك أختى .
— أفهم من هذا أنك فى غير حاجة إلى دعوة لحضور عيد ميلادى .. لأنك ستحضرين من تلقاء نفسك .
— عيد ميلادك ؟ متى ؟
— اليوم .
— اليوم .. اليوم .. كل سنة وأنت طيبة .. لماذا لم تخبرينى قبل هذا ؟
— حاولت .. ولم أستطع .
— على أية حال .. إنى آسفة .. لأنه كان يجب علىّ أن أذكر عيد ميلادك دون أن يذكرنى به أحد . ولكن ذاكرتى أصبحت عديمة الفائدة .. كل سنة وأنت طيبة يا هناء .. إن شاء الله السنة القادمة تكونين ...
وترددت « هدى » برهة ثم قالت ضاحكة :
— ما هى أعز أمانيك .. لكى أدعو الله أن يحققها لك ؟ أن تكونى فى أحضان العريس ؟
وردت هناء ضاحكة :
— لقد جاوزنا هذه الأمنية .
— ما هى أمنيتك إذن ؟
وضحكت هناء ضحكة قصيرة وقالت :
— أن تحضرى عيد ميلادى .
— فقط !! هذا منتهى التواضع فى الأمانى .
— ستحضرين إذن ؟

ومضت فترة تردد .. برز سامى خلالها فى ذهن « هدى ».لقد اعتذرت بالأمس عن لقائه من أجل دعوة عبد الرحيم وثلته .. وهى تعرف كيف تسبب هذه الاعتذارات ضيقه ، وتثير وساوسه .. ولا تدرى كيف يمكن أن تعتذر له اليوم مرة أخرى بأنها مدعوة لاحتفال آخر .

ثم هى نفسها فى أشد الشوق إليه .. وإلى الاسترخاء فى حجره .. والاستلقاء على صدره .. والحديث إليه ، ومناقشة وساوسه .. والإنصات إلى كل ما يوجهه إليها من لوم أو عتاب ، أو مناجاة ، أو مزاح .

إن أكثر ما يطمس فى نفسها معالم سهرة الأمس بكل ما فيها من ضيق ومرارة وفشل .. هو أنها ستلقاه اليوم .

إن مجرد التفكير فى لقائه .. كان كفيلا بأن يطرد من قلبها كل أنواع الهموم والمتاعب .. وأن يبدد يأسها ، ويمحو تشاؤمها .

وهى تنتظر لقاءه .. فى لهفة الطفل ، وظمأ الصادى .

ومع ذلك تحس أنها لا تملك أن ترفض ببساطة دعوة « هناء » .. لا سيما بعد أن جعلت الفتاة من حضورها أمنية عيد الميلاد .

واستغرق ذلك التفكير منها هنيهة صمت .. وكان المفروض أن يأتى الجواب قاطعاً مؤكداً بأنها ستأتى .. وتملك « هناء » إحساس بالخذلان ، وقالت وكأنها تعتذر عن دعوتها :

— لعلى لم أضايقك بالدعوة ؟.

وأحست « هدى » بمدى ما بلغته من قلة ذوق مع الفتاة فأسرعت تقول معتذرة :

— كيف تقولين هذا يا هناء !؟ أنت تعرفين أنه ليس أحب إلىّ من صحبتك .. ولكنى فقط أفكر فى هذا الموعد الذى ارتبطت به .. إنى لا أدرى كيف ألغيه .. لو كنت أعرف أن اليوم عيد ميلادك لما ارتبطت .

— متى هذا الموعد ؟

ومرة أخرى بدت الحيرة فى صوت « هدى » وترددت برهة قبل أن تقول :

— الواقع يا هناء أنه يستغرق كل السهرة .

— إذن اذهبى إليه برهة واعتذرى بأى شىء .. ثم تعالى إلينا .

وحاولت « هدى » أن تفكر ، ولم تمنحها « هناء » فرصة التفكير وقالت فى إصرار :

— ستحضرين ؟

— سأبذل كل جهدى .

— إذا بذلت كل جهدك فستحضرين ، وسأخبر أبى أنك حاضرة .

وكانت المرة الأولى التى تذكر «هناء» سيرة أبيها.. ولم تتخيل «هدى» قط أن « رياض » يمكن أن يكون له صلة بالدعوة .. بل خيل إليها أنه سيحاول الابتعاد عن الدار حتى يتجنبها . وقبل أن تسترسل « هدى » فى مزيد من الاستنتاجات عادت هناء تقول :

— لقد ألح أبى فى دعوتك .. ولا أظنك ستخذليننا .

وأحست « هدى » كأن باباً موصداً قد فتح أمامها .. ولم تشك فى أن « رياض » يحاول فتح باب الصلح .. وبدت لها حماقة كبرى أن توصد الباب الذى فتح .. بعد الشوط الخاسر الذى قطعته مع عبد الرحيم وثلته .

ودون تردد أجابت هدى :

— سأحضر يا هناء .. متى تريديننى ؟

— الساعة التاسعة .

— ربما أتأخر عن ذلك ، فلا بد أن أنهى دورى فى المسرح ثم أذهب لأعتذر عن الموعد .. وآتى إليكم بعد ذلك .

— كما تشائين .. المهم أن تأتى .

وأكدت لها « هدى » أنها ستأتى .. ثم بادلتها تحية الوداع ووضعت السماعة ، وأخذت ترشف فنجان الشاى ، وقد شرد بصرها فى السحب الملبدة

التى بدت وراء زجاج الشرفة .. كأن الضيق ما زال يطبق على صدرها ، والألم
الذى يوخز جانبها قد أخذ يتزايد .. و لم يفلح الحديث التليفونى الذى منحها أملا
فى فك أزمتها .. والذى كان خليقاً به أن يمنحها بعض الإحساس بالراحة ، ويزيل
بعض هذا الضيق الذى يطبق عليها .. لم يفلح هذا الحديث فى إزالة ضيقها .. بل
على النقيض .. زاد نفسها انقباضاً .. فقد كان مجرد إحساسها بأن النتيجة
المباشرة لكل ما حدث هى حرمانها من لقاء « سامى » كفيلا بأن يمحو فى باطنها
كل إحساس بالأمل أو بالفرحة .

كانت أشبه بالطفل .. الذى لا يمكن أن تقنعه بالرضاء عن حرمانه من
حلواه .. لأنه سيشقى من تلف أسنانه .. أو من وجع معدته .. وبهذا الشعور
الكاره للحرمان ، وبدأت تفكر فى طريقة ما للقاء « سامى » .. ورغم أنها كانت
تضيق باللقاء الخاطف .. الذى يجعلها دائماً تحس أنه سيتركها بين لحظة
وأخرى .. إلا أنها لم تجد له بديلا هذه الليلة .. إنه خير بكثير من أن تحرم من لقائه
ليلتين متواليتين .

ونظرت إلى الساعة فى يدها فإذا بها قد جاوزت العاشرة والنصف .. وكان
المفروض أن يحدثها « سامى » فى مثل هذا الوقت .. بمجرد أن يصل إلى
مكتبه .. ولقد تعمدت أن تستيقظ قبل أن يطلبها ، رغم تعبها من سهرة
الأمس .. ورغم حاجتها إلى مزيد من الرقاد .. لأنها تكره أن يطلبها فيجدها
نائمة .. حتى لا تبعث فى نفسه الشك فى أنها تمادت فى السهر .

ودق جرس التليفون فرفعت السماعة إلى أذنها فى لهفة ، وأحست بثلاثة
أرباع ما بها من ضيق ويأس يتطاير وهى تسمع صوته يحييها فى لهجته المحببة
الحنون :

— صباح الخير .

وردت عليه فى شوق ولهفة :

— أهلا .

— كيف حالك ؟

— متعبة قليلا .

— من سهرة الأمس ؟

— لا أظن .. لم يكن بالسهرة ما يتعب إلا حرمانى منك .

— ولكن تبدين من صوتك مجهدة ؟!

— لأنى أحس بمقدمات نوبة مرارة .

وبدا الانزعاج فى صوته وتساءل :

— وماذا ستفعلين ؟

— لا شىء .. سأحاول أن أستريح قليلا .. وأغلب ظنى أنها ليست سوى نوبة خفيفة .. لقد مضت مدة طويلة دون أن أصاب بها .

— أشربت بالأمس كثيراً ؟

وترددت وهى تهم بأن تكذب :

— أبداً .. كأس واحد اضطررت أن احتسيه بعد أن ألحوا علىّ وأصروا أن أشاركهم .

وقاطعها « سامى » بصوت أشبه « بالزومان » أو الهمهمة ، منه بالكلام المفهوم .. وكانت تعرف أنه وسيلته المقتضبة للتعبير عن ضيقه .

ومضت برهة صمت قبل أن تتساءل « هدى » فى قلق :

— أضايقك هذا ؟

ورد فى يأس :

— ضايقتنى السهرة كلها .

— إنها ضايقتنى أكثر منك .. ولكنك تعرف ضرورة أن ...

— أعرف .. أعرف .. ولست أملك إلا التسليم بها . مادمت لا أملك تعويضك عنها .. ولكنى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الضيق .

— أؤكد لك أنى لا أفعل فيها ما يسيئك .

وصحب رده بزفرة ضيق قائلا :

ــ أرجو هذا .

وأحست « هدى » بأن صدره يضيق .. وأنه لا يتحدث بطريقته الطبيعية فى الحديث معها .. ورغم أنها لم تكن تتوقع غير هذا .. ورغم أنها تعوّدت منه هذا الضيق عقب هذه الدعوات .. إلا أنها سألته فى عتاب وهى تحس بفرط حاجتها إلى حبه وتدليله :

ــ ما بالك يا سامى ؟! أنت تعرف أنى مكرهة على هذه الدعوات .

ــ وأنا لم أقل شيئاً .

ــ ولكنك غير طبيعى .

ــ وماذا تريدين منى أن أفعل ؟

ــ حدثنى كما تفعل دائماً .

ــ أحدثك كما أفعل .. وأنت تشغلين التليفون لمدة نصف ساعة ؟

ــ كيف ؟!

ــ طلبتك عشر مرات وأنا أجد السكة مشغولة .

ــ أنا متأسفة جداً .. كانت « هناء » تحدثنى .. وأطالت الحديث وأنا لا أدرى كيف أنهيه .

وأحس « سامى » بلسعة شك فسأل فى شىء من السخرية :

ــ هناء .. أم أبوها ؟

ــ أقسم لك أنها هى .. وقد دعتنى إلى عيد ميلادها .

ــ متى ؟

وأحست أنها مازالت تحمل لسامى مزيداً من أنباء السوء . وأسباب الضيق .. وصممت أن تلقى بها مرة واحدة وتتخلص فأجابت :

ــ اليوم .

ــ وستذهبين ؟

قالها « سامى » وهو واثق أنها لن تذهب .. فهو يدرى أنها لا تضيق بشىء ضيقها بأن يطول غيابه عنها .

وردت « هدى » فى تردد وخوف :

ــ حاولت جهدى أن أعتذر .. ولكنها ألحت .. وقد اضطررت أن ...

ولم يدعها « سامى » تتمم حديثها وهو يحس أن صبره . قد نفد ، وأن غضبه وضيقه قد غلب هدوءه وقدرته على التحكم فى أعصابه فقاطعها قائلا :

ــ افعلى كما تشائين .. وسأفعل أنا ما أشاء .. إنى مدعو للعشاء غداً .. وبعد غد سأسافر إلى حلب .. و ...

ولم تطق « هدى » قوله ، ولم تصبر عليه حتى يتم حديثه فانفجرت قائلة :

ــ سامى .. لا تكن كالأطفال .. إنى أفعل كل ما أستطيع لكى أراك .. ولا شىء أحب إلى نفسى فى هذه الحياة أكثر من لقائك .. فلماذا تفعل هذا ؟!

ــ أنا الذى فعلت .. ألم تقولى إنك لن تستطيعى لقائى ؟!

ــ لم أقل هذا .

ــ ولكنك قلت إنك ذاهبة إلى عيد ميلاد هناء .

ــ ولكننا نستطيع أن نلتقى قبل هذا .

ــ متى ؟..

ــ يمكنك أن تأتى إلىّ فى الخامسة أو السادسة .

ــ ولكنك تعرفين أنى أكون مشغولا فى مكتبى فى ذلك الوقت .

ــ اترك المكتب مرة من أجلى .

ــ أنت تعرفين أنى أتركه كثيراً من أجلك .

ــ إذن تعال اليوم فى السادسة .

ــ سأحضر .

وأحست « هدى » لأول مرة .. أن الضيق الملبد فى صدرها قد انقشع ، وأحس « سامى » أن الهم الذى استبد برأسه قد تبدد .

وسادت برهة صمت حاول كل منهما خلالها أن يلم فرحته .
وقطعت « هدى » الصمت منادية :
— سامى .
ورد « سامى » فى عناد الأطفال .. كان مازال غاضباً :
— نعم .
— أما زلت غاضباً منى ؟
— ولماذا أغضب ؟!
— إذن ابتسم .
ولم يملك « سامى » إلا أن يضحك وأجابها :
— أنت كالأطفال .
— أنا !!
ومدت شفتيها داخل السماعة كأنما تحاول أن تصل إلى شفتيه وهمست قائلة :
— قل إنك تحبنى !!
وأجاب « سامى » فى صوته الذائب .. وقد نسى كل ما حوله .. إلا أنه يحبها :
— أحبك .. أحبك .. أحبك .
وهتفت به هدى :
— أعبدك .
ثم أردفت فى لهجة متوسلة :
— أرجوك .. لا تغضب منى .. ولا تضق بى .. لأننى لا أطيق التفكير فى بعدك .. لقد بت كل ما لى فى هذه الحياة .

٢٠

احتمال فراق

وضع « سامى » السماعة ، وأزاح مقعده إلى الخلف ومد ساقيه وفرد ذراعيه .. وتمطى وتثاءب .. وكان يحس دائماً خلال حديثه لهدى كأنه فى خلوة بها .. ويصيبه من حديثها نفس الاسترخاء والراحة التى يحس بها بين أحضانها .

ودق الباب فلم أطرافه ومال بجذعه على المكتب ، وقال : « ادخل » .. فانفرج الباب وبدت من خلاله « فايزة » بجسدها الطويل ، وشعرها الذهبى ، ووجهها الرقيق الذى كسته قناعاً من الجمود تحاول جهدها أن تخفى به انفعالاتها .. وتبدو به فتاة عمل جامدة .. مجرد سكرتيرة .. لا تعنيها إلا الأوراق التى بيدها .

واقتربت بأوراقها حتى وقفت بجواره وتساءلت وهى تمد يدها بملف الأوراق :
— أتنوى مراجعة المقالات قبل أن أسلمها للمطبعة ؟
وتناول « سامى » الملف وألقى نظرة سريعة على مجموعة المقالات التى به ثم قال لفايزة :
— سلميها للمطبعة .. وأحضرى لى التجارب بمجرد أن تجهز .
— سأضعها على مكتبك عندما تحضر بعد الظهر .
— أفضل أن أراها قبل أن أغادر المكتب لأنى سأكون مشغولا بعد الظهر .
— ألن تحضر اجتماع المحررين فى الساعة السابعة ؟
— سأجتمع بهم الآن .

وبدا التردد على وجه « فايزة » ، ثم قالت :

ــ ولكن معظمهم غير موجود .

ــ لا بأس .. سأجتمع بالموجودين منهم .

وتناولت « فايزة » الدوسيه وهمت بالخروج .. وأحس « سامى » بما بها من جمود .. أو ضيق .. وبدا لنفسه مسئولا إلى حد ما عن هذا الذى أصابها .. فقد كانت الأيام تمر به دون أن يجد من وقته أو من مشاعره .. فسحة يتبادل معها تلك الأحاديث الرقيقة الخاصة التى تعوّدا أن يتبادلاها .

واستوقفها قائلا وهو يتضاحك :

ــ مالك متعجلة كأنك قطار سكة الحديد ؟

ــ أبداً .. إنى أريد فقط أن أسلم المقالات للمطبعة .

وتوقفت « فايزة » .. وهى تحس بخيط من نشوة وهى تجده يحاول استبقاءها .

وعاد « سامى » يقول ملاطفاً :

ــ كيف حالك ؟

ــ الحمد لله .. كل شىء على ما يرام .

ــ لم أعد أسمع منك آراءك فى مقالاتى .. لعلك كففت عن قراءتها ؟

ــ غير معقول .. إنى أقرأها على الأقل بحكم عملى .

ــ فقط ؟

ــ أقول على الأقل .

ــ وعلى الأكثر ؟

وضحكت « فايزة » .. وأحست فجأة بأنها تود أن تضمه إليها وتقبله .. قاتل الله الحياء والتقاليد التى تمنعنا عن مباشرة خواطرنا اللذيذة المفاجئة .

ولم تملك إلا أن ترمقه بنظرة طويلة قائلة :

ــ أنت تعرف كم أحب كتابتك .

ــ حتى الآن ؟

ــ دائماً .

ــ وحتى لو أسأت الكتابة ؟

وابتسمت « فايزة » وهى تحس بمدى قربه من قلبها وأجابت :

ــ أنت لا تسىء أبداً .

وأحس « سامى » بالكثير من الراحة .. راحة الضمير التى كان يحس بفرط الحاجة إليها .

وخرجت « فايزة » .. ومد « سامى » يده إلى المكتب فجذب مجموعة من الأوراق البيض وتناول القلم .. ووضع طرفه على بداية الصفحة الأولى .. محاولا كتابة الافتتاحية .. حتى لا يزحم نفسه بها فى المساء .

ولم يحس بشىء معد فى ذهنه .. فوضع القلم وأخذ يقلب صحف الصباح لعله يستوحى منها فكرة .. أو يرد على مقال .. ولكن لفتت نظره صورة لهدى فى إحدى صفحات الفن .. فأخذ يقرأ التعليق المكتوب أسفلها « هدى نور الدين .. وارتباطات جديدة » .

وتوقف أمام الصورة برهة .. ثم استمر فى قراءة بقية التعليق ولم يكن فيه شىء جديد أو مثير .. بل كان شبيهاً بكل ما يكتب عن « هدى » وعن غير « هدى » من الفنانات .. من أن إحدى شركات الأفلام عرضت عليهن الاحتكار لمدة بضع سنوات نظير بضعة آلاف من الجنيهات للقيام بأدوار البطولة فى بضعة أفلام .

وكاد « سامى » يمر على الخبر مرّ الكرام .. لا سيما وهو يعلم أن لدى « هدى » مشروع ارتباط بأحد الأفلام ، ولكنه توقف أمام جملة فى آخر الخبر جاء بها :

« ويشيع بعض الخبثاء أن صاحب الشركة يحاول أن يغرى المطربة الحسناء بعرض احتكار فى مجال آخر .. وما زالت المطربة تفكر فى العرضين اللذين يحاول المنتج الكبير ربط أحدهما بالآخر .. وأنه يتحتم على الفاتنة أن تقبل العرضين

معاً .. أو ترفضهما معاً » .

وقذف « سامى » بالصحيفة فى ضيق .

سخافة .. وقلة أدب .

هؤلاء الصحفيون يمارسون خفة الدم والبلطجة على حساب الفنانين .

إن نصف أخبارهم مختلقة مكذوبة .

ولكن النصف الآخر صحيح .

بل الواقع أن معظم ما يشيعونه ويكذبه الفنانون .. تثبت الأيام صحته .

ينكر أحدهم أنه على علاقة بزوجة الآخر .. وتثور الزوجة الفنانة لأن شرفها قد خُدش .. ويهدد الزوج بقتل الصحفى صاحب الخبر .

ولا تمر بضعة أيام .. حتى يطلق الزوج زوجته .

وبعد بضعة أيام أخر .. تتزوج العشيق .

أترى الخبر .. من هذا النوع ؟

ولِمَ لا !؟ إن بعض هؤلاء المنتجين .. يمارسون الإنتاج على أنه وسيلة لصيد الفنانات .. وجائز جداً .. أن يكون المنتج المذكور .. من النوع الصائد .

ولكن « هدى » .. لا يمكن أن تكون صيداً .

ووجد « سامى » أفكاره تسوقه بطريقة صبيانية .. إلى مواطن الشكوك والريب .. فمد يده إلى السماعة ليطلب « هدى » .. حتى تقضى بنفسها على تلك الأوهام التى دفعها الخبر إلى نفسه .

ولكن جرس التليفون كان أسبق من يده .. وخيل إليه أن « هدى » قد قرأت الخبر ، وأنها تريد أن تزيل منه ما يحتمل أن يكون قد تركه فى نفسه من ضيق وأن تؤكد له أنه سخافة .

ورفع السماعة ففوجىء بصوت رجل .. واستطاع بسهولة أن يميز فى الصوت نبرات عبد الوهاب رئيس الحزب ، وحياه سامى فى ترحاب :

— أهلا وسهلا .. صباح الخير .

— كيف حالك يا سامى ؟! ما هى أخبار الجريدة ؟

— كل شىء على ما يرام والحمد لله .

— كنت أريد أن أراك اليوم فى المساء وسأكون فى مقر الحزب بين السابعة والثامنة .

بدا الموعد المفروض مفاجأة غير سارة لسامى ، ولم يعرف كيف يعتذر .. ولا بأى شىء يتخلى عنه .

ولم يطل به التردد حتى قال :

— كنت مرتبطاً بموعد فى ذلك الوقت .. فإذا كان حضورى محتماً فى تلك الساعة .. فسألغى الموعد .. وإذا أمكن تبكيره أو تأجيله فإنى ...

وقاطعه عبد الوهاب قائلا :

— اسمع يا سامى .. ماذا تفعل الآن ؟

— كنت أحاول كتابة الافتتاحية .

— إذا لم يكن لديك شىء آخر فتعال إلىّ فى البيت .

— سآتى حالا .. مسافة الطريق .

وغادر « سامى » مكتبه قائلا لفايزة :

— سأذهب إلى « عبد الوهاب بك » فى البيت .. وإذا احتجت إلىّ فى أمر هام فاتصلى بى هناك .. وإذا اتصل بى أحد فقولى له إنى سأعود فى الساعة الواحدة .

وسارت العربة « بسامى » وسط سيل العربات المتدفق فى الطريق .. وقد أخذ ذهنه يتأرجح بين وساوسه فى « هدى » .. وتخميناته فيم يطلبه « عبد الوهاب بك » من أجله . وعبرت العربة نهر بردى ، ثم لفت يساراً بعد مبنى البريد متجهة إلى سوق الحميدية ، حتى وصلت إلى بيت « عبد الوهاب » وراء السوق .

وكان البيت أحد قصور دمشق القديمة .. ذات الجدران السميكة ،

والأسقف العالية . وعبر « سامى » الممر المعتم إلى الحديقة التى تتوسط البناء ، والتى تناثرت فيها أشجار الليمون ، وقامت وسطها « البحرة » أو النافورة .

وارتقى « سامى » السلم الرخامى إلى الدور الثانى ، واتجه إلى حجرة المكتب المطلة على الحديقة يسبقه الخادم معلناً عن وصوله .

وعبر الباب ليجد « عبد الوهاب بك » قد استقر بالجلباب والعباءة الصوف « والطاقية » فوق الأريكة الملاصقة للنافذة المطلة على الحديقة ، وقد وضع على حجره كتاباً ضخماً يقلب أوراقه .

وبدا الرجل العجوز — وقد كلل الشيب رأسه وملأت الغضون وجهه الأبيض — وقوراً مهيباً .. وكان « عبد الوهاب » أحد أبطال الثورة السورية .. وأحد المكافحين الذين قادوا الحركة التحريرية واستمروا فى نضالهم دون أن تشوب صفحتهم الناصعة شائبة .

وكان « سامى » يحبه ويحترمه ويؤمن به .. وإن كان يحس فيه نوعاً من الطيبة والتسامح يطمع فيه خصومه .. ويحس منه كذلك شيئاً من التساهل .. تساهلا لا يصل إلى حد التسامح فى الحق ، ولكنه يسمح بالتساهل فى الوسائل .

ونهض الرجل للقاء « سامى » وشد على يده فى حرارة وضمه إليه ضمة الأب ، ثم اتخذ مجلسه على الأريكة سائلا إياه أن يجلس .

ودار الحديث بينهما عن أخبار السياسة .. وعن تهديد الأتراك للحدود .. وعن مشروع أيزنهاور الذى تحاول أمريكا أن تصد به الشيوعية عن البلاد العربية .. بعد فشل حملة السويس .

وهز عبد الوهاب رأسه ورفع حاجبه فى دهشة قائلا :

— أحياناً أرى فى تصرفات هؤلاء الأمريكان حماقة .. تبعثنى على الشك بأن ساستهم يعملون لحساب الاتحاد السوفيتى .. لقد وقفوا موقفاً مشرفاً فى حملة السويس .. وكان يمكنهم أن يستغلوا موقفهم ويواصلوا كسب العرب إلى جانبهم .. وأن يمدوا إليهم يد المعونة غير المشروطة .. وأن يفرضوا على إسرائيل

قرارات الأمم المتحدة .. ولكنهم بدلا من أن يفعلوا هذا .. إذا بهم يخرجون علينا بهذا الخبل الذى يسمى مشروع أيزنهاور .. والذى يريدون به حمايتنا من خطر الشيوعية الذى لا يوجد إلا فى أذهانهم .. ويأبون إلا فرض حمايتهم علينا بدل أن يمدوا لنا يد الصداقة .

ورد « سامى » ، وهو يضحك قائلا :

— غير معقول أن يفعل الأمريكان هذا .. والصهيونية تسيطر على كل وسائل الدعاية .. ويندسون فى كل أجهزة الحكم .. إنى لا أتوقع خيراً من أمريكا .. لأنى لا أتصور الشعب الأمريكى يمكن أن يكون مسئولا عن السياسة الأمريكية .

— إنهم يدللون بصداقتنا مع الاتحاد السوفيتى على ارتمائنا فى أحضان الشيوعية .. وبدلا من أن يمدوا يد العون إلينا ليكسبوا صداقتنا .. يمدون سلاحهم لحمايتنا من الشيوعية .

— إن الشعب العربى يعرف كيف يحمى نفسه من كل أنواع الاستعمار .. وإذا كان قد حمى قناة السويس من عدوان الغرب .. الكائن الملموس .. فلا أظنه سيعجز عن حماية نفسه من الخطر الموهوم .

وتقدم الخادم بالقهوة .. وسادت فترة صمت ارتشف كل منهما بضع رشفات من فنجانه .

ووضع « سامى » فنجانه ثم قال معلقاً على آخر ما قيل :

— على أية حال إن تضامننا العربى يستطيع أن يقاوم كل ما يوجه إليه من مؤامرات العدوان .

ورفع « عبد الوهاب » شفتيه عن الفنجان وأجاب وهو يعتدل فى مجلسه وكأنه ينوى أن يدخل فى موضوع هام :

— إن هناك مشروع تضامن أوسع .. لا شك أنه سيسند تضامننا العربى فى كفاحه .. ويؤيده فى نضاله .

وهز « سامى » رأسه متسائلا عما يعنيه عبد الوهاب .

وعاود « عبد الوهاب » حديثه بعد أن رشف آخر رشفة من فنجانه ووضعه أمامه على الصدف الصغيرة :

— لقد زارنى الأخ « على عبد الحافظ » وكان قد حضر بالأمس من القاهرة .. وأخبرنى أنهم يعدون لمؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الإفريقية فى القاهرة .

— على غرار مؤتمر باندونج !؟

— أجل ولكن على مستوى شعوب ، وستمثل فيه جميع الشعوب التى لم تنل استقلالها ، والتى لم تستطع الاشتراك فى مؤتمر باندونج .. وستعقد اللجنة التحضيرية فى القاهرة خلال الأسابيع القادمة .. وقد طلب منى أن أرسل إنساناً يعتمد عليه لحضور هذه اللجنة .

وأحس « سامى » بما ينوى « عبد الوهاب » قوله .. وبدأ ذهنه يشرد فى اتجاه آخر .

إنه سيطلب منه الذهاب إلى القاهرة .. وهو لا يعرف كم ستطول مدة هذه اللجنة ، ربما طالت حتى انعقاد المؤتمر ذاته .

وهدى !!

هل سيتركها طول هذه المدة ؟!

إنها المرة الأولى التى يفترقان فيها منذ بدأت علاقتهما .. وهو يعرف كيف تضيق لغيابه يوماً أو يومين .. وكيف تبدو لهفتها عليه بعد الغيبة .. كأنها أم يعود إليها طفلها .

وأحس بالضيق يتملكه .. وحاول أن يعيد ذهنه من شروده ليتتبع حديث « عبد الوهاب » .. واستطاع أن يلتقط « عبد الوهاب » وهو يقول :

— وقد رأيت أن الوحيد الذى نستطيع الاعتماد عليه فى مثل هذه اللجنة هو أنت ، لأننى لا أريد أن يستغل الآخرون الموقف للدعاية لأنفسهم .

وساد الصمت ، وكان على « سامى » أن يقول شيئاً .. ولكنه أطبق شفتيه .. وعاد ينطلق بذهنه إلى « هدى » .

واستدعاه « عبد الوهاب » من شروده متسائلا :

— ما رأيك يا سامى ؟

وقال « سامى » وقد بدا عليه الوجوم :

— إنى على استعداد دائم لكل ما تطلبه .. وأنا أحب فعلا أن أحضر هذه اللجنة .. على الأقل لإسماع الرأى العام صوت قضيتنا .. ولكن أخشى ألا تمكننى الظروف .

وقاطعه « عبد الوهاب » متسائلا فى دهشة :

— أية ظروف ؟

— إن أمى مريضة ، وأنا أحب أن أكون إلى جوارها فى ...

و لم يكن « سامى » كاذباً فى قوله .. أو على الأصح كان نصف كاذب .. فقد كانت أمه حقيقة مريضة .. ولكن مرضها لم يكن مرضاً طارئاً .. ولا كان يستدعى فعلا دوام وجوده بجوارها .. كان لديها المرض الطبيعى لجميع الأمهات ، السكر ، والضغط .. و ... و ... إلخ .

و لم يملك عبد الوهاب إلا أن يبدى أسفه الشديد قائلا :

— سلامتها .. أهناك شىء مزعج !؟ لماذا لم تنبئنى !؟

— لم يكن الأمر يستحق القول .. فالعلاج مستمر .

وصمت « عبد الوهاب » برهة ثم قال :

— بلغها سلامى .. وأرجو أن نسمع عنها دائماً أنها فى أحسن حال .

— شكراً .

— على أية حال .. إن اجتماع اللجنة ما زال أمامه بضعة أسابيع .. أرجو أن تكون السيدة الوالدة قد تحسنت خلالها وأن تتمكن من الذهاب !

وقال « سامى » وقد أطرق برأسه :

— وإذا لم تسمح الظروف ؟

— ترشح لى بضعة أسماء تثق فيها لأختار واحداً منها .

ونهض « سامى » مودعاً .. وهو يحس بشىء يطبق على صدره .

أهو احتمال فرقة « هدى » وإيلامها ؟

أم هو نصف الكذبة التى قالها ؟

أم هو ترجيحه « هدى » على عمله ؟

أم هو خليط مشوش مضطرب من كل هذا ؟

٢١

نوبة شك

وقف « سامى » أمام شقة « هدى » ، ودق الجرس دقة قصيرة كعادته ، ووقف ينتظر ، ومضت برهة دون أن يستمع لوقع خطوات تقترب لتفتح ، فمد يده إلى الجرس ودقه دقة طويلة .. ومضت برهة أخرى أحس بعدها بالقلق ، وأخذ الشك يساوره فى أن تكون « هدى » قد خرجت لسبب ما .

وعاد يدق ، وقد أصابه الضيق وداخله اليأس ، ورفع يده عن الجرس وبدأ يفكر فى العودة عندما سمع أقداماً تعدو نحو الباب .. ثم بدت « هدى » بثوبها الرمادى الفضفاض ، وقد فتحت الباب ووقفت أمامه تلهث ، وتساءلت وهى تحاول أن تلتقط أنفاسها :

— أمضت بك مدة وأنت تدق الجرس ؟

ورفع « سامى » كفيه فى يأس وأجاب :

— نصف ساعة .

— غير معقول !؟

— على أية حال .. لقد كدت أيأس وهممت بالعودة .

وصاحت به فى فزع :

— تعود !! أمجنون أنت ؟!

— ماذا أفعل إذا لم يفتح لى أحد ؟

— استمر فى الدق حتى يفتح لك .

— حتى ولو لم تكونى موجودة ؟!

— ما دمت أعرف أنك آت فلن تستطيع قوة أن تحملنى على ألا أكون موجودة .

وأغلقت الباب .. ثم ارتمت بين ذراعيه متمتمة :

— الحمقاء الغبية .. خرجت دون أن تخبرنى .. ودخلت الحمام وأنا أظنها موجودة .. وأنها ستفتح .. وعندما طال دق الجرس شككت فى أنها تكون قد خرجت .. وخطر ببالى أنك قد تنصرف فعلا .. فجن جنونى .. إياك أن تحاول الانصراف كما حاولت اليوم .. مفهوم ؟

وأجاب وهو يغلق فمها بشفتيه :

— مفهوم .. مفهوم .

وضمها إلى صدره بشدة وهو يتحسس ظهرها بكفيه .. وأحس بجسدها ينساب فى طراوة أسفل الثوب ، وانكمشت فى صدره انكماشة قطة تتلمس الدفء فى يوم قر .

وهمس بها وهو يجذب جسدها إلى جسده ويحس بصدرها مضغوطاً على صدره ، وأسنانها تصطك بأسنانه :

— آسف لأنى قطعت عليك حمامك .

— لم أكن قد بدأته بعد .

— إذاً أنتظرك حتى تنتهى منه .

— كلا .. إن الحمام موجود فى كل وقت .

وجذبته من يده واتجها إلى الداخل ، وقبل أن يعبر الصالة لمح البار .. وأدرك من النظرة الخاطفة التى ألقاها عليه أن ثمة تغييراً حدث فى منظره العام .. زجاجات رفعت وزجاجات وضعت وزجاجات أفرغت .

وأحس بلسعة الشك تعاوده ، وتعكر صفو نشوته .. وتوقف قليلاً ثم قال فى نغمة ساخرة متبرمة :

— يبدو أن « العربدة » كانت على أشدها ليلة أمس ؟

وجرته من يده قائلة :

— كان المفروض أن يشربوا .

— طبعاً .. من غير المعقول أن يعربدوا دون شرب .

— لم يكن الأمر كما تحاول أن تصوره ، لقد كانت دعوة عشاء .. وشرب الضيوف كما يشرب كل الناس على الموائد .

— على أية حال أرجو أن تكونى قد أبرمت العقد وانتهيت منهم .

وأطلقت « هدى » تنهيدة وقالت وهى تجلس على ركبتيه فوق المقعد الكبير .

— ليس بعد .

— لعل الأمر لا يحتاج إلى ولائم جديدة !

— لقد كرهتهم .. وكرهت دعواتهم .

— لماذا ؟

— دعك منهم الآن .. سأقص عليك التفاصيل فيما بعد .

ومدت يدها إلى رباط عنقه تحاول فكه قائلة :

— أتنوى أن تجلس هكذا بملابسك الكاملة ؟

وقال فى نوع من الغضب والعناد :

— أجل .

ونهضت من فوق ركبتيه ثم انحنت أمامه فى أدب وقالت ساخرة :

— تشرفنا يا سعادة البيه .. أنحضر قهوة ؟

ونظر إليها بطرف عينيه ثم أجابها :

— أتمزحين ؟

— بل أتكلم جادة .. ما دمت تجلس هكذا كالضيف .

— أتريديننى أن أخلع ملابسى .. لبضع دقائق ؟

وتساءلت فى فزع :

— بضع دقائق !؟ أتنوى الخروج بعد بضع دقائق ؟

— ألم تقولى أنت أنك ستخرجين مبكرة من أجل عيد ميلاد صديقتك ؟

— أجل قلت .. ولكنى لم أقل أنى سأخرج بعد بضع دقائق .. إننا نستطيع أن نجلس حتى التاسعة .. لقد وضبت شعرى بعد الظهر لكى لا أضيع وقتنا الآن .. وسأبدأ فى ارتداء ملابسى فى الثامنة والنصف وستبقى معى حتى أنتهى منها ونخرج معاً .

— إذن فأنت لم تستريحى طوال اليوم .

— تقريباً .

— وستذهبين إلى المسرح لتقومى بدورك ثم تذهبين إلى « هناء » لقضاء بقية السهرة ؟

— أجل .

— هذا غير الإرهاق الذى لقيته فى سهرة الأمس ؟

— لا تذكرنى بها .. لقد كانت ليلة مزعجة .

— وبعد هذا تشكين من تعب المرارة .. ألم تقولى إنك سترقدين فى الفراش لكى تستريحى ؟

— لا أظنها كانت نوبة مرارة .. فقد انتهى الألم بمجرد أن سرت فى البيت وباشرت أعمالى المعتادة .

— ولكن كان يجب ...

وقاطعته قائلة وهى تجذبه من يده :

— أتنوى أن نضيع ليلتنا فى ما يجب وما لا يجب .. قم اخلع الجاكتة والكرافتة والحذاء .. فإنك تشعرنى بثيابك هذه أنك توشك أن تخرج بين لحظة وأخرى .

ونهض « سامى » وخلع الجاكتة والكرافتة .. وتناولتهما « هدى » واتجهت إلى حجرة النوم فأخرجت من دولابها مشجباً علقتهما عليه ووضعتهما وسط ثيابها .

وكان يتملكها دائماً إحساس ممتع وهى تعلق له بدلته .. وكانت تتعمد أن تدسها بين ثيابها .. كأنما تحاول أن تقنع نفسها أنه يعيش معها ويشاركها كل

مكان فى بيتها وفى حياتها .

واتجه « سامى » إلى المطبخ ليشرب .. وفتح الثلاجة ليخرج زجاجة الماء .. ولم يكن فى الواقع بحاجة إلى الشرب بقدر ما كان فى حاجة إلى فتح الثلاجة .. فقد أصبحت الثلاجة إحدى وسائله فى معرفة سلوك « هدى » .. وكانت « هدى » تعرف هذا وتطرب له .. كانت تحب كل ما فيه حتى سخافاته ، بل كانت تحب سخافاته أكثر من نبوغه .. فقد كانت تعتبر نبوغه ملكاً مشاعاً للغير .. أما سخافاته فشىء خاص بها .. وكانت تكره أن يخفى فى صدره شكاً يضايقه .. مهما كان سخف أسبابه .

كان يحاول أن يستنتج من نوع الطعام وكميته .. ما إذا كانت قد استضافت أحداً .. أو أضافها أحد .. فلم تتناول الغداء فى البيت .. وكان أكثر ما يضيق به زجاجات الصودا المرصوصة على الأرفف داخل باب الثلاجة ، كانت دليله على أن شخصاً ما قد زارها وتناول الويسكى .. وشارب الويسكى لا يمكن أن يكون ضيفاً عابراً .

وفتح « سامى » الثلاجة كعادته .. وتناول الزجاجة ورفعها إلى فمه وعيناه تفحصان الرفوف التى ازدحمت بالأطباق المليئة ببقايا وليمة الأمس .. ولفت نظره من بين الأطعمة ثمار المانجو التى حشدت فى الدرج السفلى .. وصندوق البطارخ الموضوع على الرف الذى فوقه .

ووضع الزجاجة واستدار ليواجه « هدى » تقترب من باب المطبخ وقد بدت على وجهها ابتسامة تشعر بأنها قد أدركت كل ما يجول بخاطر « سامى » من وساوس .. ولم تنتظر حتى يبادها الاتهام بل قالت ببساطة :

— عبد الرحيم أرسل إلىّ بالأمس قفصاً من المانجو وصندوقاً من الويسكى .. وإبراهيم زكى أرسل البطارخ .

ولم يرد « سامى » بل أطلق هذا الصوت من الزومان والهمهمة .. الذى يعبر به عن ضيقه المكتوم .. واتجه إلى حجرة الجلوس فاستلقى على المقعد وشرد

ببصره من النافذة .

وأحست « هدى » بما يعانيه .. ولم تكن تتوقع منه بالطبع أى ترحيب بالهدايا .. ولكنها لم تتوقع أيضاً أن تصيبه بمثل هذا الضيق .

وهبطت « هدى » على ركبتيها بجوار المقعد شبه راكعة ومدت ذراعيها تحيطه بهما وأسندت رأسها على كتفه وتساءلت هامسة :

— ماذا يضايقك ؟

— لا شىء .

— لماذا لا تضمنى ؟

ومد « سامى » ذراعه وأحاطها به فى غير اكتراث .

وهمست « هدى » وهى ترفع إليه بصرها :

— أهكذا تعوّدت أن تضمنى ؟!

ولم يجب « سامى » بل أطلق زفرة ضيق ملل .. ملأت « هدى » بالخوف .. فتركت مكانها على الأرض وقفزت لتستقر على حجره وتضمه إليها هاتفة :

— سامى .. قل ماذا بك ؟

ولم يجب « سامى » فعادت تتوسل إليه :

— يا حبيبى .. ليس هناك أبداً ما يستحق منك كل هذا الضيق .. لقد تعوّد هؤلاء الناس على أن يرسلوا أمثال تلك الهدايا .. وغير معقول أن أرفضها .. أو أقذف بها من النافذة حتى لا تراها .. قل ماذا يضايقك فى ذلك ؟

ونظر إليها « سامى » .. وأحس بما أصابها من خوف ولم يعرف ماذا يقول .. لقد كان الضيق يمسك بخناقه .. ولم يكن يحس برغبة فى المناقشة أو قدرة عليها .

وعادت « هدى » تتوسل إليه :

— قل لى أى شىء .. ولكن لا تجلس هكذا صامتاً .

وكره « سامى » أن يؤلمها أو يعذبها وقال وهو يرفع كفه ليعتصر جبينه :

— إذا كانوا هم تعوّدوا على ذلك .. وكنت أنت قد تعوّدت عليه .. فأنا لا أستطيع التعوّد عليه .. ولا أظن أى إنسان يستطيع ذلك .

— ولكن أنت تعرف أنه جزء من حياتى ومن عملى .. وأنه لا بد لى أن أدعو هذا وذاك .. وأتقبل الدعوة من هذا وذاك .. وأن أختلط بأهل الوسط كلهم حتى أكون دائماً فى ذاكرتهم عند الحاجة .. فهم لا يذكرون إلا من يعاشرهم ويختلط بهم .

وكان « سامى » يحس أنه ليس من حقه — وهو يعيش معها كضيف — أن يحرّم عليها موارد رزقها وأن يبعدها عن محيط عملها ، ولكنه أحس أن الأمور تختلط عليه وأن الحد الفاصل بين محيط العمل ومحيط اللهو والعربدة مشوش مضطرب .. وأنه لا يستطيع أن يميز المجال الذى يطمئن إليه من المجال الذى يهيج وساوسه ويثير شكوكه .. ولا يستطيع بالتالى وسط هذا الخليط المضطرب من العمل والعبث أن يعرف ما يحرمه عليها وما يسمح لها به .

ومع ذلك فقد أحس أنه فى ضيق .. وأن هذا الذى يحدث — سواء كان جزءاً من العمل أو لم يكنه — شىء مثير مزعج .

ونظر إليها وهو يضطرب بين حبه لها وشكه فيها .. ولهفته عليها .. وغضبه منها .

وقال وهو يزفر زفرة ضيق :

— لم أقل لك أبداً أن تبتعدى عن محيط عملك.. ولكننى لا أطيق أبداً أن أتصوّرك فى سهرة عربيدة حمراء ، وهؤلاء الحيوانات يلتفون حولك ويحيطونك بغزلهم السمج ونظراتهم النهمة .. لا أطيق أبداً هذه الهدايا التى يملأون بها البيت .. والثمن الذى ينتظرونه لها .

— ليسوا هم فقط الذين يحيطوننى بغزلهم السمج .. ونظراتهم النهمة .. بل الجمهور كله يفعل بى ذلك كل ليلة .. أما الثمن الذى ينتظرونه لهداياهم .. فسيطول انتظارهم له حتى يملوا ويكفوا عن إرسال الهدايا .. هذا شىء لا

يغضبك .. بل يجب أن يسرّك .. لأنك واثق أنى بين كل هؤلاء .. لا أحب
سواك .. ولا أعبد غيرك .. إنهم لا يملكون سوى الكلام والنظر .. وأنت تملك
كل شىء .. ألا يرضيك هذا ؟

— فارق أن يعجب بك الجمهور .. وأن تحيط بك ثلة من السكارى فى
بيتك .. وأن يقبض الجمهور ثمن نقوده غناء .. وأن ينتظر الآخرون ثمن هداياهم
أشياء أخرى غير الغناء .

وأحست « هدى » بأنه يخزها بمدية وقالت فى لهجتها المتوسلة :

— لماذا تحاول أن تجرحنى يا سامى !!. أنت تعرف أنى لا أمنح أحداً أكثر من
صوتى .. وأن هؤلاء الذين تتحدث عنهم لا يحيطوننى دائماً .. وأنها كانت رد
دعوة حاولت أن أنهى بها عملا .

— وأنهيته ؟

— تناقشنا فيه .

— والنتيجة ؟

— عرض علىّ عبد الرحيم أن أقوم ببضعة أفلام . وكان هذا يستدعى بقائى فى
مصر مدة طويلة فرفضت .

— عرض عليك العمل فى الأفلام فقط ؟

— ماذا تقصد ؟

— سلى مخبر الجريدة الذى كتب أنه عرض عليك الارتباط به فى الأفلام ..
وفى مجال آخر غير الأفلام .. وأنك ما زلت تفكرين .

وبدا الغضب على وجه « هدى » وتساءلت :

— هل كتبوا ذلك ؟

— أجل ..

— فى أى جريدة ؟

— لست أذكر .. أظنها جريدة الخبر .

— السافل .. المنحط .

— أحدث هذا ؟

ولم تجب « هدى » وبدا عليها الشرود ، وازداد انفعال « سامى » عند ما
أحس شرودها وقال فى حدة :

— لماذا لا تجيبين ؟

وتنهدت « هدى » وقالت فى نوع من الاستسلام :

— لا أحب أن أكذب عليك أبداً .. ولست أحس أنى أخطأت فى شىء ..
لقد سألنى الرجل أن أقيم معه فى مصر .

— طلب زواجك ؟

— لقد كان أسمج من هذا .. لقد طلب منى ببساطة أن أكون عشيقته ..
وأكد لى أنه سيمنحنى شقة مفروشة على النيل .. ومرتباً ثلثمائة جنيه فى الشهر .

وأحس «سامى» كأن كفاً يلطمه وضغط ضروسه قائلا فى سخرية، وهو يحاول
أن يتمالك نفسه :

— كل هذا فى محيط العمل طبعاً ؟

— لا داعى للسخرية .. لقد صددته .

— وسيعيد الكرة بالطبع .. ما دام هناك مجال للعمل والتعاقد والدعوات ،
وما دام لا يرى فيك أكثر مما طلب .

وأحست « هدى » بأنه يضيق عليها الخناق ، وحاولت جهدها أن تقاوم
رغبتها فى البكاء ، وقالت فى صوت مختنق :

— لست أعرف ذنبى فى كل ما حدث حتى أستحق منك كل هذه
السخرية !؟

— إنه ذنب المجال الذى هيأته .. والطريقة التى تتصرفين بها معهم .. لو لم
يجد فيك الرجل مطمعاً .. لما جرؤ على مثل ما عرض عليك .. ولما جرؤ على ما
ينتوى عمله بعد ذلك .

— على أية حال .. لن أعطيه الفرصة حتى لمجرد لقائى أو الحديث معى وسأرفض العمل معه مهما كان عرضه .. أيريحك هذا ؟

وهز رأسه فى قلق .. وبدا كأنه لا يستطيع الخلاص من الشكوك التى تلح عليه .

وعاد يقول :

— وغيره .. وغيره .. من كل هؤلاء المعجبين والمطاردين وأصحاب الأعمال والعروض .

وتساءلت « هدى » فى جزع وضيق :

— لماذا تقول كل هذا !؟ أنت تعرف أنى لا أسىء التصرف أبداً مع أحد .. لأنى أحبك .. أنت تعرف جيداً كل ما أفعل .

ولم يستطع « سامى » أن يضبط أعصابه فانفلت صارخاً :

— كيف أعرف !؟ وأنا لا أراك إلا بضع ساعات فى آخر الليل !!

ولم تستطع « هدى » أن تكبت غضبها فقفزت من فوق حجره وجذبت حقيبتها الملقاة على منضدة صغيرة وأخرجت منها مفتاحاً قذفت به إليه صائحة :

— خذ مفتاح الشقة .. واحضر فى أى وقت تشاء لترى ماذا أفعل .. واطلبنى فى التليفون فى أى مكان أتوجه إليه لتتأكد أنى هناك .. وأنى لا أسىء التصرف .

وانهارت فوق الأريكة ودفنت وجهها فى الوسادة واندفعت فى نوبة بكاء عنيفة .. وهى تصيح بصوتها المتشنج بالبكاء :

— أنت تعرف أنى أحبك .. أحبك .. ولا أستطيع أن أخونك .. حتى لو أردت .. ومع ذلك لا أعرف كيف أرضيك ولا كيف أطمئنك .. وأنت بعيد عنى .

وأحس « سامى » أن دموعها تذيب قلبه .. وكره من نفسه كل ذلك الانفعال والغضب والقسوة .. وترك مقعده ليركع بجوارها أمام الأريكة .. ومد

يده يتحسس شعرها ووجهها ومس شفتيها المبللتين بالدمع بشفتيه .. وضمها إليه . وهو يهمس بها فى رقة :

— لا تبكى .. لم أكن أقصد أن أسيئك قط .. لقد حطم الشك أعصابى .. إنى أحبك .. أحبك أكثر من أى شىء فى هذه الحياة .. « هدى » .. حبيبتى .. كفى بكاء .. لا تحنقى علىّ .. إنى أغار عليك من كل شىء .. لأنى أحبك .

ومدت « هدى » ذراعها فضمته إليها .. وأفسحت له مكاناً بجوارها على الأريكة وهمست به :

— كيف أحنق عليك .. يا أعز إنسان فى حياتى .. أنت حبيبى .. حبيبى .. أتعرف معنى أنك حبيبى ؟!

وضمها إليه ، وهو يهمس بها :

— أعرف .. لأنك حبيبتى .

٢٢

بعد الجلاس

رفعت « هدى » يدها فى حذر لتبصر الساعة محاولة جهدها ألا توقظ « سامى » الذى أغفى فوق ذراعها الآخر ، ووجدت الساعة قد جاوزت الثامنة ببضع دقائق .. فخفضت يدها ببطء وألصقت وجهها بوجهه .. وأخذت تنصت إلى أنفاسه تتردد فى هدوء .. ثم أطلقت تنهيدة طويلة وتركت جسدها يسترخى بجوار جسده .

إنها تستطيع أن تنعم بمزيد من الرقاد بين أحضانه .

تستطيع أن تضيف إلى ملكيتها له .. نصف ساعة أخرى .. أو بتعبير أدق .. تستطيع أن تضيف إلى حياتها الحقة .. زمناً أطول .. فقد كانت لا تحس بأنها تحيا .. وتنعم بحياتها .. إلا إذا أحست بشركته فى هذه الحياة .. وبأن هذه الشركة تتخذ لنفسها المظاهر الطبيعية بين شركاء الحياة .. ومن أخص هذه المظاهر .. الإغفاءة المريحة لكل منهما فى أحضان الآخر .. والاستقرار الهادىء فى البيت بلا عجلة ولا خوف من فراق .. ولم تكن تلك المظاهر لشركة الحياة بمستعصية عليها .. لأنها كانت تستطيع أن تمارسها بين جدران البيت الأربعة كلما سنحت الفرصة بذلك .. وكانت شديدة الحرص على أن تنعم بها لأنها لم تستطع أن تمارس سواها خارج جدران البيت من المظاهر الواضحة للناس .. كالنزهات والسهرات والحفلات .. وكانت تحس بالفراغ الكبير فى حياتها الخارجية .. تحس بضياعها بين الناس .. تحس بالحرمان والوحدة والوحشة مهما بلغ الضجيج من حولها .

ذلك ما جعلها تحرص على ألا توقظه .. وعلى أن تعاود الرقاد فى سكون

بين ذراعيه .. لتنعم بدقائق أخرى من حياتهما المشتركة .. التى لا تستطيع أن تمارسها إلا خفية بين جدران البيت .

ولكن رقدتهما لم تطل فقد ارتطم شىء فوق السقف .. وبدأت تلك الدقات المزعجة التى توهم بأن الساكن العلوى يمارس مع زوجته نوعاً من المصارعة الحرة .. وأنها تدق رأسه أو يدق رأسها .

وتململ « سامى » فى رقدته وفتح عينيه ، ومدت « هدى » شفتيها تقبله فى هدوء كما تقبل الأم ولدها اليقظان ليعاود نومه ، وضمها « سامى » إليه وقبلها فى شوق .. وتساءل :

— يبدو أننى قد نمت ؟!

— أجل .. وكنت أود ألا أوقظك لولا أن « الثور » الذى يقطن الدور العلوى قد بدأ صراعه مع زوجته .

— كم الساعة ؟

— الثامنة والثلث .

— مرة واحدة ؟! لقد أزف وقت ذهابك !

وهمّ بأن يثب من الفراش ولكنها أمسكت به :

— لا داعى للعجلة .. ما زال أمامى وقت كاف .

ونظر إليها « سامى » وهو يعاود الرقاد بجوارها .. ثم مد يده يتحسس شعرها وقد أفسده الرقاد وبلله العرق .. وقال ضاحكا :

— ضاعت التسريحة سدى .

— فداك ألف تسريحة .. فداك رأسى كلها .

وضم رأسها إليه وقبل شعرها قائلا :

— لا أظن شعرك فى حاجة إلى جهد لتصفيفه .. يكفى أن تتركيه يعبث به الهواء .. حتى يجعل منه أجمل الشعور .

وعاود النهوض من الفراش فأمسكت به متسائلة :

— إلى أين ؟

— سأرتدى ملابسى .. أنا أعرف أنك لن تقول لى اذهب .. ولو ترك نفسى لبقيت إلى آخر الليل ، ولكن يجب علىّ أن أتركك تذهبين إلى موعدك

— إذن سأنهض أنا لأرتدى ملابسى وابق أنت حتى أنتهى .. نستطيع أن نت بنصف ساعة أخرى سوياً .

وأجابها « سامى » ضاحكا :

— على أية حال تجربة جديدة .. لأول مرة .. أبقى أنا فى الفراش وتنهضي أنت لارتداء ملابسك .. لا تنسى أن توقظينى قبل أن تخرجى لكى أودعك على الباب كما تفعلين .

وجذب الغطاء على جسده واسترخى فى الفراش .

وبدأت « هدى » فى ارتداء ملابسها .

وأخذ « سامى » يشاهد عملية الارتداء كاملة لامرأة — غير والدته — لأول مرة فى حياته .

ولم تكن العملية بالهينة .. واستطاعت فعلا أن تستغرق نصف الساعة التى بدت له فى أول الأمر نوعاً من المبالغة .

وبدأت العملية بعد أن غسلت وجهها وأسنانها ولفت شعرها بتلك المشابك المعدنية التى جعلت منه حلقات حلقات فوق رأسها ولفته بشبكة سوداء وأخذت ترتدى ذلك الشيء ذى الحمالات الذى سبق أن رآه ملقى وحده على المقعد فى ذلك الصباح والذى أنبأته أنه يسمى « بالسبندر » .. ثم جلست لترتدى الجورب فى حذر وتشده من أعلى إلى حمالات ذلك الشيء السابق ذكره والمدلاة على فخذيها .. ثم وقفت أمام المرآة لتحيط جسدها بمشد طويل ضم وسطها وصدرها وأخذت تزرر مشابكه حتى شد جسدها وجعل منه شيئاً أشبه بأسطوانة الحريق ثم لفته حتى استقرت المشابك خلف ظهرها . واستقر صدرها فى البروزين المنتفخين المعدين له .

ثم بدأت عملية حشر جسدها فى الفستان .. عملية أشبه بعمليات التعذيب .

وأخيراً أخذت فى رسم الوجه .

ونظر « سامى » إلى سطح التسريحة ليجد مجموعة من العلب والأقلام .. لم يستطع أن يميز ما يمكن أن تفعل بكل منها .. فقد كان يعتقد أن أدوات الزينة لا يمكن أن تزيد بحال من الأحوال عن ثلاثة .. أحمر الشفاه وأحمر الخدود والبودرة .

ووثب من فراشه .. ليرى كيف تنتوى أن تستعمل كل هذه الأصابع والعلب .. ووقف وراءها يحملق فى وجهها فى المرآة .

والتفتت إليه « هدى » قائلة :

— عد إلى مكانك .. لا أستطيع أن أرسم وجهى وأنا أراك تحملق فىّ هكذا .

وربت ظهرها العارى قائلا :

— هيا .. هيا .. لا تعطلى نفسك .. إنى أود أن أعرف ماذا ستفعلين بكل هذا ؟!

وبدأت تفرش على وجهها طبقة من الكريم .. ثم طبقة من البانكيك .

وأمسكت بأحد الأقلام السوداء الشبيهة بالأقلام الرصاص ثم أخذت ترسم حاجبيها .

وأمسكت بفرشاة صغيرة .. تمر بها على رموشها .

وأمسكت بقلم آخر .. تخط به على جفنها الأعلى .

ورفع « سامى » كتفيه وهو يحس بالملل واستدار ليرتدى ملابسه .. وهو يقول :

— ما كل هذا الذى أغرقت به وجهك ؟

ولم تجب «هدى» فقد كانت منهمكة فى الحملقة فى وجهها فى المرآة

وأتم ارتداء ملابسه .. وأتمت هى رسم وجهها .. بكل ما فيه من خسنات وخطوط .. و لم يبق إلا رسم شفتيها بالأحمر .. وقبل أن ترفع الأصبع إلى شفتيها هتفت به :

— سامى ..

واستدار إليها واقترب منها متسائلا :

— ماذا تريدين ؟.

ومدت ذراعيها لتحتضنه قائلة :

— قبلنى قبل أن أضع الروج .

و لم يمد ذراعيه ونظر إلى وجهها نظرة فاحصة وقال ببساطة :

— لا أحب وجهك هكذا !

وتساءلت فى دهشة :

— لماذا ؟

ورمقها بنظرة ضيق من أسفلها إلى علاها :

— لا أحب كل هذا الذى فعلته .. لا أحب وجهك المرسوم .. ولا أحب ظهرك العارى ولا ثوبك المشدود إلى جسدك . إنى أحس بأنك مخلوقة أخرى ، لا أملك فيها شيئاً ، بل تملكها جماهير المتفرجين والمعجبين والمغازلين .

وهتفت « هدى » عاتبة :

— سامى .. لا أحب أن تقول لى هذا . إنى ملكك دائماً ، كيفما كنت وأينما كنت .

— لا أستطيع أن أقنع نفسى .. بأنك بهذا الشكل .. ووسط كل هؤلاء الناس .. شىء خاص بى .. إنى أحبك مجردة من كل هذه الأصباغ .. أحب وجهك العارى الحقيقى .. وأحب « روبك » الرمادى الفضفاض .. أحس أنك بهذا الشكل .. ملك لى وحدى .

واقتربت « هدى » منه بعد أن ألقت أصبع الأحمر على التسريحة وضمته إليها

وقبلته وهمست به :

— لا تقل لى هذا .. لا تظلمنى .. لا تدعنى أكره عملى وأكره الناس أكثر مما بت أكرههم .. أنت تعرف أنى ملكك دائماً .. وأنى لم أحب أحداً كما أحببتك .

وهمس سامى :

— آسف .. إنى أحس أن هذا الشكل يبعدك عنى دائماً ولهذا لا أحبه .. لأنى أريدك دائماً بجوارى .

— ضمنى إليك ولا تقل لى إنك لا تحبنى أبداً .. إن هذه الكلمة تفزعنى .

— إنى أحبك .. دائماً .

— إنى على استعداد للتضحية بكل شىء من أجلك .. على استعداد لأن أفعل كل ما تأمرنى به .. على استعداد لأن أخلع ملابسى وأبقى بجوارك إن أردت .

وضمها إليه وهمس بها :

— لم يبلغ بى السخف هذا الحد .. كل ما أريده أن تكونى دقيقة فى تصرفك مع الغير .. وأن تتصرفى دائماً كأنى بجوارك .. وأن تكفى عن لقاء هؤلاء الذين تعرفين أنهم لا يريدون منك غير اللهو والعبث ، كهذا المجنون الذى عرض عليك الشقة والمرتب .

وضحكت « هدى » قائلة :

— لا تخف علىّ . إنى أعرف كيف ألزم الناس حدودهم.أؤكد لك أنه لن يحاول أن يرى لى وجهاً بعد ذلك .

و لم تكد تنتهى من قولها حتى دق الجرس .. وأخذت « هدى » بالدقة ، وبدت على وجهها الدهشة والوجوم .. إنها لم تكن تتوقع أحداً .. اللهم إلا إذا كانت « الخياطة » قد أنهت « الفستان » وأرسلته لها كما وعدت .. أو ربما تكون « هناء » قد خشيت ألا تحضر فأتت لأخذها بعربتها .. أو ربما كان « رياض » نفسه .. قد تعجل اللقاء .

وعاد الجرس يدق .

وتساءل سامى :

— أتنتظرين أحداً ؟

— لا .

— أتنوين أن تفتحى ؟

— إنى حائرة .. فالنور موقد ، ولا بد أن الطارق قد ميز أنى هنا .. ثم هب أ
أصر على البقاء ، ولا بد لنا من الخروج .

واقتربت من زجاج النافذة وحاولت أن تلقى نظرة على العربات أمام الباب

وسألها سامى :

— عم تبحثين ؟..

— عن عربة هناء .. لعلها هى الطارقة .

— هل وجدتها ؟

وهزت رأسها وهى تترك زجاج النافذة .. إنها لم تجد عربة هناء .. ولا عرب
رياض .

من يكون الطارق إذن ؟

وعاد الجرس يدق .

وقالت « هدى » وقد حزمت أمرها وسارت تجاه الباب .

— على أية حال لا بد أن أفتح .. فمن غير المعقول أن يحبسنا هذا الأحمق الذى
يأبى أن ينصرف طوال الليل .

وردت الباب وراءها قائلة :

— لعله لا يكون زائراً سخيفاً .

ووقف « سامى » يرقب الأضواء المتناثرة فى الجبل من وراء الزجاج .. و لم
تطل غيبة « هدى » . حتى فتحت الباب ووقفت تقهقه وهى تضرب كفاً بكف
متسائلة :

— من تظن ؟!

— من ؟

وجذبته من يده قائلة :

— تعال ..

وسارت به إلى حجرة الطعام ثم وقفت تشير إلى لفافة بيضاء كبيرة وضعت على المائدة :

— ماذا تظن هذه اللفافة ؟

— كيف أعرف ؟

— تصوّر هذا الأحمق السخيف .. يرسل هذا الحمل من الجلاس لمجرد أنى قلت أنى أعجبت به عندما تذوقته ذات مرة من المحل الجديد الذى أمام البرلمان ؟

و لم يبد أن « سامى » قد أخذ المسألة بمثل هذا الاستخفاف فقد تساءل فى ضيق :

— من هذا الأحمق السخيف ؟

— عبد الرحيم .

و لم يجب « سامى » بل أطلق نفخة الزومان إياها .. وأخذت « هدى » بالضيق الذى بدا على وجهه وبزومته الصامتة وتساءلت :

— ماذا بك ؟

— أبداً .. ظننت فقط أنك عرفت كيف تلزمينه حده .

— أؤكد لك أنى فعلت .

وأشار « سامى » إلى اللفافة متسائلا فى سخرية خفية :

— وهذه هى النتيجة ؟

— نتيجة سخافته .. لا نتيجة معاملتى .

— وأى شىء يمكن أن يوقف سخافته إذا لم تكن معاملتك قد استطاعت ....

ورفعت « هدى » كفها وقالت فى حيرة :

ــ لست أدرى ماذا كنت أستطيع أن أفعل حتى أوقفه .

وبدت الحدة فى صوت « سامى » وهو يقول :

ــ كنت تعيدين له هذه .

ــ ولكن ما ذنب الصبى الذى حملها .. وإلى أين يذهب بها وهى توشك أن تذوب ؟

ــ يعيدها إلى المحل .

ــ وما الفائدة وقد دفع الرجل ثمنها وانتهى !!

وعاد « سامى » ينفخ فى ضيق متجهاً نحو الباب .. وأسرعت « هدى » فجذبته فى لهفة :

ــ إلى أين ؟

ــ إلى مكتبى .

ــ ولكن هل تعوّدت أن تنصرف دون أن تضمنى وتقول إنك تحبنى ؟

ووقف « سامى » وعلامات الضيق على وجهه وضمها فى برود قائلا :

ــ أحبك .

وبدت علامات اليأس والضيق على وجه هدى وهتفت به :

ــ سامى .. قل لى أى شىء ما زال يضايقك .. يجب أن تضع حداً لكل هذه السخافات . أؤكد لك أنى على استعداد لأن أفعل كل ما تطلبه .. أتحب أن أقذف بها من النافذة .. أم تحب أن أبحث عنه لألعن أجداده .. وأقذف باللفافة على رأسه ؟

ثم نظرت إلى اللفافة وأردفت حانقة :

ــ الحيوان .. حتى ذوق الهدايا لا يعرفه .. كل هذا الجلاس .. وهو يعلم أنى أعيش وحيدة .. لا عقل له مطلقاً .. ماذا يظن إنى فاعلة به .. سأفتح به دكاناً .. أم أوزعه على الجيران !؟ منتهى الغباوة .

ورفعت « هدى » اللفافة بين يديها ثم ألقت بها على المنضدة قائلة فى ضيق :

ــ احترت والله .. كان يجب ألا أكون حسنة النية .. وأن أقذف بها فى المطبخ .. ثم أخبرك عن الطارق بأى أكذوبة .. دون أن أجعلك تحس بجلاس هذا المغفل .

ولم يستطع « سامى » أن يمنع ضحكته .

وعادت « هدى » تقول فى غيظ :

ــ توبة إذا قبلت شيئاً من أحد .. سأضع « أم حبيب » على الباب الخارجى لتسأل كل داخل عما يحمله .. خشية أن يكون هدية لى .. أيرضيك هذا ؟

وجذبها « سامى » من يدها وضمها إليه قائلا :

ــ أتظنيننى سخيفاً إلى هذا الحد !؟

وقالت وهى تلصق شفتيها بشفتيه :

ــ وأكثر ...

ــ لا أظن سخافتى تبدو إلا فى حبك ..

ــ ومن أجل هذا أحب سخافتك .. ضمنى إليك .

وضمها إلى صدره ضمته العنيفة .

وهمست به :

ــ أتحبنى ؟!

وأجابها فى صوته الذائب :

ــ أحبك .. أحبك .

ورفعت « هدى » شفتيها عن شفتيه وعلت وجهها ابتسامة وتساءلت مازحة :

ــ حب ما قبل الجلاس .. أم بعد الجلاس ؟

وضحك سامى قائلا :

ــ حب قبل الجلاس .:

وعادت « هدى » تقبله قائلة :

ــ إياك أن تقول لى أحبك كما قلتها بعد الجلاس .. إنها أشبه بلطمة أو بسبة ..

لا تقل لى احبك إلا وأنت تشعر بها .

ــ أحبك .. أهكذا يعجبك ؟!

ــ أجل .

وضمها إليه ضمة أخيرة وهما يقفان بجوار الباب .. ثم مد يده وفتح الباب وانساب إلى الخارج .

واحتواه الطريق .. واتجه بالعربة إلى المكتب .

وبدا ذهنه يستعيد .. ما خلفه وراءه .. وأخذ يسترجع كل ما دار من مناقشات .. وما وقع من حوادث .

وأحس بالوساوس والشكوك تعاوده .. وتستدرجه .. وحاول أن يقاومها بمنطقه .. فلم يستطع .. زجاجات الويسكى التى تملأ البار .. والمنجة .. والبطارخ .. والشقة المفروشة فى القاهرة .

وتحسس المفتاح الذى أعطته .. لعله يقاوم به الشكوك .

ولكنها تعرف أنه لا يستطيع أن يأتى إليها فى أى وقت ، إنه مرتبط بأعمال ومواعيد .. ثم إن بيتها ليس المكان الوحيد الصالح للقاء .. إن هناك بيوتهم هم .

وأحس بالدم يغلى فى عروقه .

وعادت الشكوك تهاجمه .. من يدريه أنها ذاهبة فعلا إلى عيد ميلاد « هناء » !؟ لماذا لا تكون ذاهبة إلى « رياض عبد الدايم » نفسه !؟ بل ماذا يمنع من أن تعود لتقضى السهرة فى بيتها هى ؟

ماله هو وكل هذا !!

ما كان أغناه عن الخوض فى كل هذه الأوحال !

واستمرت الوساوس تنخر فى ذهنه .

وكان مع « هدى » يستطيع مقاومة الوساوس .. كانت أقدر على تخليصه منها .. بفرط حبها له .. وخوفها عليه .. وإصرارها على أن تدفع عنه كل ما يضايقه .

أما وحده .. فقد أحس أنه يضل مع الوساوس فى متاهات مزعجة .

٢٣

فى أى مكان ..

جلست « فايزة » أمام مكتبها وقد شرد بها الذهن وتعلقت عيناها بمدفأة الكيروسين ترقب القطرات المتساقطة من مستودعها فى رتابة كأنها دقات الساعة لا تنى ولا تتعجل .

ودق جرس التليفون فرفعت السماعة وردّت بإجابتها التقليدية على الأسئلة التى ما فتئت تتردد منذ أن استقرت على مكتبها بعد الظهر :

ــ غير موجود .

ــ وأين نجده ؟

ــ لا أعرف .

ــ ومتى سيأتى ؟

ــ فى المساء .

ــ أية ساعة ؟

ــ لا أعرف بالضبط .

وكان « سامى » بالطبع هو موضع الأسئلة .. ولم تك كاذبة حين زعمت أنها لا تعرف متى سيأتى .. فهى لم تعد تعرف له فى الأيام الأخيرة مواعيد حضور ولا انصراف .. بعد أن كانت مواعيده من فرط انتظامها ودقتها تكاد تضبط عليها الساعة .. لم تكن كاذبة حين زعمت أنها لا تعرف له موعداً .. ولكنها لم تك صادقة حين زعمت أنها لا تعرف أين ذهب .. ولكنها لا تجسر .. أن تقول .. حتى لنفسها .. كانت تكره أن تتصوّر أين ذهب .. ولم تحاول أن تترك لذهنها العنان فى تتبعه ومطاردته .

كانت تحاول جهدها ألا تجعل نفسها طرفاً فى الموضوع .. وألا تد
لمشاعرها فرصة للتدخل بالغيرة .. فقد كانت تخجل أن تفرض لنفسها حق
موهوماً .. أو تمنحها مركزاً ليس له وجود إلا فى ذهنها .

واستطاعت بالكثير من الترويض والإرادة والمقاومة ، أن تنحى
مشاعرها .. وأن توقف قلبها — بالإكراه — موقف المحايد .. ولكنها ل
تستطع أن تمنع تلك المشاعر من أن تتخذ لنفسها طريقاً جانبياً ، وأن تحوّل
غيرة المرأة على رجلها إلى خشية « العابد » على صنمه .. وخوف التابع على
سيده . وبدأت مظاهر ضيقها تتزايد كلما انعكست علاقته الجديدة
بالإهمال .. فى عمله .. والإساءة لسمعته .

ولم تكن سهرته الليلية بعد انتهاء عمله .. تفضح غيبته .. وتكشف
اختفاءه .. فلم يعتد أحد أن يسأل عنه بعد الحادية عشرة ، وكان المفروض
عليه إما أن يذهب إلى بيته .. أو يلتقى ببعض الزملاء فى مقر الحزب .

ولم يكن أحد يحس بأن تغييراً قد طرأ على حياته .. إلا « أمه » التى تعوّدت
أن تسهر فى انتظاره حتى يعود .. والتى لم تكن تفترض فى غيابه الليلى الجديد
إلا مزيداً من العمل .. ولم تملك « فايزة » إلا أن تؤكد لها افتراضها حينما
حدثتها ذات مرة عن إرهاق « سامى » لنفسه وفرط سهره فى العمل خلال
المدة الأخيرة .

كانت مواعيده الليلية فى علاقته الجديدة إذن لا تفضح غيبته أو تؤثر كثيراً
على عمله .. ولكن مواعيده بدأت تضطرب أخيراً .. بطريقة جعلت غيابه
واضحاً .. وجعلتها تتخبط فى التماس المعاذير أمام الناس .. عندما يتركها
جاهلة — أو على الأقل مفروض أن تكون جاهلة — المكان المفروض أن يكون
فيه .

وأخذت « فايزة » تفحص التجارب المتراكمة أمامها والتى ينتظرها عمال
المطبعة بعد أن يقرأها « سامى » ، ثم عادت ترقب المدفأة المعدنية اللامعة

التى أخذت تشع الدفء فى الحجرة ، وبدأت تتبع مدخنتها الأسطوانية حتى
السقف ، ثم عادت تستقر ببصرها على قطرات الكيروسين التى تقطر كدقات
الساعة .

ودق التليفون مرة أخرى .

ومدت « فايزة » يدها فى استرخاء وملل لترفع السماعة وتلقى فى فوهتها
بإجاباتها المعتادة .

ولم يكن الصوت غريباً على أذنها .. كان صوت « هشام » أخو « سامى »
والطالب بكلية الحقوق . وكانت تميزه بسهولة لفرط شبهه بصوت سامى .

وهتف بها الصوت وقد بدا القلق جلياً فى نبراته :

— آلو .. فايزة ؟

— نعم .. يا هشام .. أنا فايزة .

— مساء الخير .

— مساء النور .

— أأستطيع أن أكلم سامى ؟

— سامى غير موجود .

— أين ذهب ؟

وبدا التردد على « فايزة » .. ولم تجد من الكياسة أن تقول لأخيه إنها لا
تعرف أين ذهب .. فالمفروض أن يمنحها « سامى » من الثقة ما يجعلها تعرف
دائماً أين يذهب .

وأجابت فايزة :

— لقد كانت لديه بعض أعمال هامة خرج لإنهائها .

— ألا تعرفين أين يكون الآن ؟

— بالضبط لا أعرف .. ولكنه لا بد أن يكون إما فى مقر الحزب أو عند عبد
الوهاب بك .. فقد طلبه فى الصباح .. ويجوز أن ..

— ألا تستطيعين الاتصال به ؟

— الآن ؟.. ألا يمكنك الانتظار حتى يحضر ؟

— لا .. إن المسألة عاجلة .

— خير ؟!

— أمي متعبة .. لقد أصابتها نوبة القلب .. وهى تطلب أن تراه .. وأنا هنا وحدى لا أدرى ماذا أفعل .

وتملكها الاضطراب و لم تعرف بماذا تجيب .. فالمفروض أن مرض « أمه » يحتم عليها أن تستدعيه من أى مكان تعرف أنه موجود به .. وقد قالت هى إنه إما فى مقر الحزب أو فى بيت عبد الوهاب بك .. وليس من العسير عليها أن تحصل عليه فى أى منهما .

وعاد هشام يقطع ترددها :

— اطلبيه فى أى مكان يكون به .. وقولى له إن « أمه » مريضة .. وأنها تريد أن تراه .

وكانت تعرف مدى معزّة « أمه » عنده .. وتعرف أنه لن يتردد فى الذهاب إليها مهما كانت أهمية العمل الذى يقوم به .. ومن أجل هذا لم تستعجب لهجة الثقة التى كان يستعملها أخوه فى تأكيده بأن تطلبه فى أى مكان .

أى مكان !

هل يخطر ببال أخيه الذى يضعه من نفسه موضع الأبطال ، والذى يجعل منه مثله الأعلى .

هل يخطر ببال الصبى .. وهو يطلب منها أن تطلبه من أى مكان .. حقيقة المكان الذى يوجد فيه ؟

هل يمكن أن يتصور « هشام » .. أن المكان الذى يستقر فيه مثله الأعلى .. هو حضن غانية ؟!

هل طاف بذهنه وهو يحدثها فى لهجته الواثقة أنه يطلب منها أن تنتزع أخاه من

أحضان « هدى » فى فراشها الدافىء ؟

و لم تعرف « فايزة » كيف تجيب .

وعاد « هشام » يلح :

— ستطلبينه .. وتجعلينه يحضر ؟

— أجل .. أجل .. سأبذل كل جهدى .

وصمتت برهة ثم قالت :

— ألم تستدع الطبيب ؟

— حاولت أن أطلب الدكتور شاكر .. فلم أجده .. ورقم الدكتور رشدى مشغول دائماً .. وأنا حائر جداً .

— اسمع يا هشام .. سأحضر إليك حالا لعلى أكون أكثر مساعدة وأنا بجواركم .

أجل .. إن هذا خير ما تفعله .

فهى بالتأكيد لن تستطيع العثور على « سامى » .

إنها تعرف مكانه .. والعثور على رقم التليفون أمر غير عسير .. ولكنها لا تجرؤ على طلبه .

لا تجرؤ حتى على أن تظهر له أنها تعرف أين هو .. إنها لا تحب أن تخجله .. أو تجرح شعوره .. فهى تكره أن تبعث فى نفسه أى إحساس بالضيق منها .

تكره أن تبدد ما بقى فى نفسه نحوها من أحاسيس طيبة .. فإن كانت علاقته الجديدة قد عصفت بالنبت الذى اخضرت أوراقه يوماً ما .. فهى أحرص على أن تبقى جذوره آمنة مستقرة .. لعل أوراقها تخضر من جديد .. بعد أن تهدأ الريح وتسكن العاصفة .

وإذا كانت عاجزة عن الاتصال به .. وإذا كان حضوره متروكا للقدر — أو لهدى — يدفعان به فى أى وقت يحلو لهما .. فإن وجودها فى المكتب لن يجدى شيئاً .. وأولى بها أن تذهب لتكون بجوار « أمه » لعلها تستطيع أن تمد يد العون لأخيه .

ودقت الجرس فحضر الفراش .. وأخذت تكتب مذكرة قصيرة « لسامي »
تنبئه فيها بمرض « أمه » وبذهابها إلى بيته ، وتسأله الحضور بمجرد أن يصل إلى
المكتب .

وطوت الورقة ومدت يدها بها إلى الفراش قائلة :

ــ عندما يحضر الأستاذ سلمه هذه الورقة .

ــ أستتركين المكتب الآن ؟

ــ أجل .. سأذهب إلى بيت الأستاذ « سامي » لأن السيدة « أمه »
مريضة .. وإذا سأل أحد عني أو عنه في التليفون .. فاحصل منه على اسمه
ورقمه .. وسأتصل أنا بك كل نصف ساعة .

ــ وإلام أنتظر ؟

ــ انتظر حتى أطلب منك الانصراف .. وإذا حدث أمر هام .. فاطلبني في
بيت الأستاذ « سامي » .. مفهوم ؟

ــ أجل .

ــ ابق هنا بجوار التليفون .

وتناولت « فايزة » حقيبة يدها في عجلة وهمت بالخروج عندما سمعت وقع
أقدام تقترب من الباب .. وتملكها إحساس بانفراج الأزمة وهي تتوهم أن
« سامي » قد حضر .. ومدت يدها لتأخذ الورقة من الفرّاش ، وعندما دفع
الباب وبدا سليم بالباب وهو يبتسم محييا :

ــ مساء الخير يا فايزة ؟

ــ مساء الخير .

ــ سامي موجود ؟

ــ لا .

وتساءل « سليم » في دهشة واستنكار :

ــ لم يأت حتى الآن ؟

وهزت « فايزة » رأسها في ضيق قائلة :

ــ لا .

ــ كنت أريده في بعض الأمور الهامة .

ونظر « سليم » إلى الساعة في يده ثم هز رأسه قائلا :

ــ لا أظنه سيتأخر أكثر من ذلك .. سأنتظره في المكتب .

وقبل أن يخطو إلى داخل مكتب « سامي » استرعى انتباهه أن « فايزة » على
وشك الخروج فتوقف متسائلا :

ــ إلى أين ؟

ــ سأذهب إلى بيت الأستاذ .

ــ أما زال في البيت حتى الآن ؟

ــ لا .. سأذهب لرؤية والدته لأنها مريضة .

ــ من قال لك ؟

ــ هشام .

ــ وهو .. ألم يعرف بعد ؟

ــ لا ...

ــ ولكن .. ألم تستطيعي إبلاغه !؟ أين هو ؟

ونظرت إليه « فايزة » في ضيق وهي تحس أنه يعرف أين هو .. وهزت كتفيها
قائلة :

ــ لا أعرف .

ــ ها !!

قالها سليم وكأنما يخبرها أنه يعرف أنها تعرف ثم تساءل :

ــ إذن كيف يمكن أن نجده ؟

ــ إنه لا بد عائد بين لحظة وأخرى .. وكنت قد كتبت ورقة لإبراهيم الفراش
لكي يسلمها له .

— لا داعى للورقة .. سأبقى هنا حتى يحضر .. وسأخبره بما تريدين قوله .

— لا أريد أن أقول له أكثر من أن يحضر للبيت .. وأنى سبقته إلى هناك لمعاونة هشام .

— سأخبره بما تريدين .. ولى معه حديث آخر .. لا بد أن يقال .

ودخل « سليم » إلى مكتب « سامى » .. واتجهت « فايزة » إلى الخارج ، ليحملها التاكسى إلى بيت « سامى » .

وعبر التاكسى ميدان السبع بحرات .. ثم اتجه يميناً فى شارع بغداد ، واستقر أمام البيت .

وصعدت « فايزة » الدرج .. وقبل أن تضع أصبعها على زر الجرس فتح الباب وبدا منه كهل أشيب طويل القامة .. وبدا خلفه « هشام » وهو يودعه قائلا :

— متشكرين يا دكتور .

— العفو .. سأعود إليكم صباح الغد لأطمئن على الحالة . بلغ سلامى إلى الأستاذ « سامى » وقل له ألا ينزعج ، فالمسألة بسيطة .. وقد عملنا كل الاحتياطات اللازمة .. ونحن لا نحتاج أكثر من الراحة التامة .. لا داعى لأن تبذل السيدة أى جهد .. حتى فى الكلام .

ومدت « فايزة » يدها لتحية الطبيب .. وقال « هشام » يقدمها له :

— فايزة .. سكرتيرة سامى .

— أهلا وسهلا .. وأين سامى ؟

— كانت لديه بضعة أعمال .

— أهم من أمه ؟!

— لا .. لا .. لقد انتهى منها وهو فى الطريق إلينا .

— هذه مساوئ السياسة .. تشغل أصحابها حتى عن أعز الناس لديهم . السياسة ؟!!

ولم تستطع « فايزة » أن تمنع نفسها من الضغط بأضراسها ، فقد كانت وسيلتها الوحيدة لطحن غضبها المكبوت فى باطنها .

ليتها كانت السياسة .

ماذا يقولون لو أدركوا الحقيقة ؟

وجائز جداً أن يدركوها فى يوم ما .

وهبط الطبيب الدرج .. ودلفت « فايزة » إلى الداخل .. وبدت الصالة بأثاثها العتيق شيئاً مقبضاً .

لم يفكر « سامى » يوماً فى أن يجدد الأثاث الذى عاش فيه أبوه .. ولم يلمه أحد .. لأن البيت لم يكن له موطناً .. ولم يخطر ببال أحد أن « سامى » يمكن أن يستقر فى البيت .. أى بيت .. سوى هنيهات الطعام وساعات النوم .. لأن يومه كان مشحوناً بالعمل .. كانت يقظته كفاحاً موزعاً بين الجريدة والحزب والمجلس النيابى .. والمظاهرات ، والخطب ، والمنشورات .

ولكنه الآن .. عرف كيف يستقر فى مكان .. بلا كفاح .. ولا ضجيج .. ولا صخب .

بل فى هدوء واسترخاء .. على فراش لين .. بين ذراعين ناعمين .

ونفخت « فايزة » من أنفها نفخة سخرية ومرارة .. وشقت طريقها من الصالة إلى حجرة الأم المريضة .

ولكن قبل أن تخطو فى الداخل شعرت بيد « هشام » تجذبها .. فتوقفت وهتف بها « هشام » فى صوت يشبه الهمس :

— أريد أن أحدثك فى أمر هام .

— الآن ؟

— أجل .. قبل أن يحضر سامى .

وسار « هشام » إلى الممر المفضى إلى حجرة سامى .. ثم توقف على باب الحجرة .. ولمحت « فايزة » طرف الفراش وجزءاً من المكتب ، وتمنت لو أنم

هشام سيره فاستقر بها فى الحجرة .

وبدا وجه الصبى على الضوء الشاحب المتسلل من الصالة إلى الممر وقد كسته سيماء الحزن واليأس .. وخيل إليها أن الصبى قد أفزعته نوبة الداء التى أصابت « أمه » .. وهمت بأن تطمئنه عندما سبقها إلى الحديث قائلا :

— لقد تعاركت اليوم مع أحد الطلبة فى الكلية .

وسألته فى دهشة :

— لماذا ؟

— لأنه وصم أخى بكلام قذر .

وأحست « فايزة » كأن شيئاً بارداً قد صب على رأسها ، وسألته فى قلق :

— كلام قذر !!.. كيف ؟

— قال إنه إنسان منحل .. وإنه منافق يدعى المثالية وهو يقضى الليل مخموراً بين أحضان عشيقته .

وأحست « فايزة » بالدم يتصاعد إلى وجهها وبغير وعى هتفت :

— كذب .. وبهتان .

— أنا أيضاً قلت هذا .. لكن خيطاً من الشك ساورنى .. وأنا أسألك عنه .

وعلا صوت الأم المريضة تهتف :

— هشام .

وجذب هشام فايزة من يدها وهو يقول :

— لن تقولى لأحد ما قلته لك .

وأجابت فايزة :

— لا تخف .. ولا تجعل إيمانك به تزعزعه الأباطيل .

٢٤

نوع من الكتمان

هبط « سامى » من العربة والوساوس ما زالت تلاحقه والشكوك تطبق على ذهنه ، وعبر الباب المفضى إلى حجرة « فايزة » ليسألها عما حدث خلال غيبته ، ولكنه وجد مكتبها خالياً .. فظنها ترتب بعض الأوراق أو ترد على التليفون الخاص فى مكتبه ، فاتجه إلى باب حجرته .

ودفع الباب ليجد سليم قد استقر على المقعد الكبير بجوار المكتب وأخذ يتصفح كتاباً فى يده .

وصاح « سامى » فى شىء من الدهشة :

— سليم ؟!! أهلا .. أين فايزة ؟

ووضع « سليم » الكتاب جانباً وخلع منظاره ثم وضعه فى جيبه ومد ساقيه فى استرخاء قائلا :

— ذهبت إلى البيت .

— أبها شىء ؟

— ذهبت إلى بيتك أنت .. يا أستاذ .

— بيتى أنا ؟ ولكنى لم أكن فى البيت .

— إنها تعرف ذلك .

— لماذا ذهبت إذن ؟

— لترى والدتك .

— والدتى ؟.. ماذا بها ؟

— أصابتها نوبة .. واتصل بك هشام هنا لتذهب إليها ، فلم يستطع أحد أن

يعثر لك على أثر .

وبدا الاضطراب والضيق على وجه « سامى » ، وخطا تجاه الباب .. ثم عاد إلى التليفون .. وقد بدت عليه الحيرة وكأنه لا يدرى ماذا يفعل .. وأخذ يردد لنفسه :

— أصابتها نوبة .. لا بد أنها أجهدت نفسها فى البيت .. لا تكف عن الحركة فيه .. ولا تكف عن مناكفة الخدم ، إنها تأبى أن تعترف بالسن أو بالمرض .

ورفع سماعة التليفون ثم طلب رقم بيته .. وسمع صوت هشام يرد فى لهفة :

— سامى .. أين أنت ؟

— فى المكتب .. كيف حال أمك ؟

— إنها أفضل الآن ، طمأننا الطبيب .. و « فايزة » معنا .. لقد مرت بنا لحظات مزعجة ، ولكننا الآن على ما يرام .. ألم تحضر .. إن أمى تريد أن تراك ؟

— سآتى حالا .

ووضع « سامى » السماعة وقد بدا عليه التردد .

وتذكر قوله لعبد الوهاب بك أنه لا يستطيع السفر لأن أمه مريضة ، وأنه يخشى أن يتركها وحيدة .

وكأنما القدر الساخر أراد أن يحقق قوله .. وألا يورطه فى نصف الكذبة التى ساقها معتذراً عن السفر .

ولم يستطع أن يدفع عن نفسه ذلك الإحساس البدائى بمسئوليته عن النوبة التى أصابت أمه .

وكره نفسه ، وكره السبب الذى دفعه إلى نصف الكذبة .

ونظر إلى سليم قائلا :

— أرجوك يا سليم .. إذا لم يكن عندك ما يشغلك أن تبقى فى مكتبى وتشرف على أعمال الجريدة حتى آتى .. اطلب التجارب وألق عليها نظرة ثم مرهم بالطبع ، وسأحاول جهدى أن أعود فى أقرب وقت .. وإذا حدث شىء فاطلبنى فى التليفون .

وأجاب « سليم » وهو ما زال جالساً فى مقعده جلسته المسترخية :

— سأبقى حتى تنتهى الجريدة من الطباعة .. ليس لدىّ ما أعمله سوى أن أحدثك .. ونستطيع أن تؤجل الحديث إلى الغد .. فلا تتعجل العودة .

— متشكر . الافتتاحية كنت قد بدأت كتابتها فى الصباح .

— لا تحمل هماً . سأكتبها أنا .

وقبل أن يتجه « سامى » إلى الباب اعتدل سليم ونهض واقفاً وهو ينادى :

— سامى !!

— نعم .

— بضع كلمات قبل أن تنصرف .

— ما هى ؟

— أمسرور أنت من هذه الحال ؟

وبدا الضيق على وجه « سامى » وهو يقول :

— سنتحدث فى هذا بعد .

— أعلم هذا .. ولكننى سمعت أنك اعتذرت عن الذهاب إلى القاهرة لحضور اللجنة التحضيرية لمؤتمر التضامن . فهل هذا صحيح ؟

وزاد الضيق بسامى وقال وهو يحاول أن ينهى الحديث :

— أجل .

وأضفى « سليم » على سؤاله ما يستطيع من الدهشة والاستنكار :

— لماذا ؟

— بعدين .. سنتناقش فى هذا .

— أحقاً اعتذرت بمرض والدتك ؟

— أجل .

— ولكنها لم تكن مريضة .. بالشكل الذى يستدعى وجودك إلى جوارها .

وأجاب سامى فى حدة :

— ولكنها مرضت الآن .. لعل هذا يريحك .

— حتى مرضها الآن لا يجدى فيه بقاؤك .

— كيف ؟

— لأنها عندما احتاجت إليك لم تجدك .. ولا استطاع أحد أن يعثر عليك .

ووقف سامى مواجهاً سليم وزفر زفرة حارة وقال له فى يأس :

— لست أدرى ماذا تريد ؟

— أريد أن أوقفك عن هذا الانحدار الذى تنزلق إليه .

— أنا أعرف خطواتى جيداً .

— أنت واهم .. إنك مندفع بلا وعى ولا تقدير إلى هاوية ستحطم كيانك .

— إن من حقى أن أختار الملجأ الذى أرتاح فيه .

— ولكن ليس من حقك أن تختار البؤرة التى تتردى فيها .

— أنا لا أضر أحداً .

— إنك تقضى على نفسك وعلى إيمان الناس بك .

— ذلك شيء خاص بى لا يهم أحداً .

— ليس للرجل العام .. شيء خاص .. وكل ما تفعله يهم كل الناس .. سواء كانوا خصوماً يتربصون بك .. أم انصاراً يؤمنون بك .

وساد الصمت برهة وعاد سليم يقول فى حدة :

— لست أدرى لماذا يوقعك القدر فى هذه المخلوقة بالذات .

— ما لها هذه المخلوقة بالذات !؟ كل ما قلته عنها .. أثبت الزمن أنه هراء .. قلت لى إنها بلا قلب .. فلم أجد أرق منها شعوراً ولا أطيب قلباً .. قلت إنها نفعية

لا تعرف الحب .. فلم أجد منها طوال عشرتى لها .. إلا الحب والإخلاص .

— إخلاص !؟ أى إخلاص هذا !؟ أتسمى كل هذه العلاقات التى يتحدث عنها الناس .. إخلاصاً ؟!

— أية علاقات ؟

— علاقتها مع رياض عبد الدايم .

— لم يعد بينها وبينه أى شيء .

— بل عاد إليها بعد فترة من القطيعة ، وسيسهر عنده الليلة .

وأحس « سامى » كأنه قد تلقى لطمة عنيفة .. وازدرد ريقه .. والتقط أنفاسه قبل أن يتساءل فى صوت خافت :

— ومن أنبأك !؟

— فؤاد .. سيسهر عند رياض الليلة .. وستحيى لهم « صاحبتك » السهرة حتى الصباح ، وقد سألنى ساخراً أن أتفضل ، وإننى أستطيع أن أدعوك .. أتريد أن نذهب سوياً ؟

وأطلق سامى زفرة ضيق ثم قال فى صوت خافت :

— كفى سخرية .

— لست أدرى كيف تظنها تحيا حياتها هذه .. الشقة الفاخرة .. والعربة الأنيقة .. والثياب الرائعة .. والولائم التى لا تنقطع .. أتظن حقاً أن أجرها من المسرح يكفى كل هذا ! أم تظن الألف ليرة التى اقترضتها لتدفعها لها .. هى التى ستسد حاجتها !؟

— لقد كانت فعلا فى أزمة .

— طبعاً .. لا بد أن توهمك أنها فى أزمة .. حتى تقطع تساؤلك عن مواردها .. إن لها رصيداً فى البنك يجعلها تعيش فى رخاء حتى آخر العمر .. ألم تسمع عن الشيك الذى صرفته باسم أحد الأثرياء من منتجى السينما ؟

— شيك !؟

— أجل .. شيك بمائة ألف ليرة .

— كلام فارغ .

— بل كلام حقيقى ، لقد نشرته صحيفة المخبر .. تحت خبر أن مطربة فاتنة صرفت شيكا من بنك سورية باسم أحد منتجي السينما ، بمبلغ مائة ألف ليرة ، وقال لى مندوب الصحيفة إن المطربة هى « هدى » .

— والمنتج ؟

— قال لى اسماً . أظنه عبد الرحيم أو عبد الرحمن لا أذكر .

ومرة أخرى أحس « سامى » أنه يتلقى صفعة على الخد الآخر .. وتملكه شعورٌ بالكره لمن حوله .

ولم يملك إلا أن يردد قولة فى غير وعى :

— كلام فارغ ؟

ثم يولى « سليم » ظهره ويغادر الحجرة .

أجل .. كلام فارغ .

هذه الحياة كلها كلام فارغ .

إذا كانت « هدى » قد استطاعت أن تخدعه كل هذا الخداع .

فلا شىء فى الحياة يستحق الاعتبار .

لقد أوهمته أن علاقتها برياض قد انقطعت .. وأن ذهابها الليلة لم يكن سوى تلبية لدعوة « هناء » فى عيد ميلادها .. ولم يخطر بباله أنها ستحيى سهرة يدعو إليها رياض كل معارفه وأصحابه .

وأوهمته أيضاً أنها قد صدت عبد الرحيم صدا نهائياً .. وأنها رفضت دعوة الرجل الوقحة .. وقطعت عليه كل سبيل إليها .. ثم يسمع بعد ذلك أنها تتلقى منه مبلغ مائة ألف ليرة .. دون أن يكون بينهما أى نوع من ارتباطات العمل .

ولكن لماذا يصدق كل هذا !؟ ألا يحتمل أن يكون مجرد إشاعة كاذبة ؟! لماذا يمنحها الرجل مائة ألف ليرة ؟!

ثم ألم تخبره هى بنفسها أنها ذاهبة إلى عيد ميلاد « هناء » .. وطبيعى أنها ستغنى لها فى الاحتفال .. ودعوة رياض للناس فى الاحتفال لا يمكن أن يكون ذنبها هى .

وعادت الأفكار تتصارع فى ذهنه .. طوال الطريق إلى البيت .. حتى توقفت به العربة .. ثم اندفع يصعد درجات السلم ورأسه أشبه ببحر يهدر فى أمواج متلاطمة من الشكوك والريب .

واجتاز باب الشقة .. وأحس بأخيه « هشام » يلقاه فى لهفة .. وهو يحاول طمأنته على أمه قائلا :

— الحمد لله سليمة .. قال الدكتور أنه ليس هناك ما يدعو إلى القلق وأن كل ما يطلبه هو أن تستريح راحة تامة .

واتجه « سامى » إلى حجرة أمه .. ورأسه مثقل بكل ما يبعث على القلق والضيق .. ولقيته « أمه » بابتسامة فرحة .. وكأنما حمل إليها نصف الشفاء .

وانحنى « سامى » عليها يقبلها وهتفت به :

— لست أدرى ، لماذا أكره أن أموت وأنت بعيد عنى .

— أبعد الله عنك الشر .. لماذا تنطقين بهذه السيرة .. إنك فى خير حال .

— لو رأيتنى منذ نصف ساعة .. لما قلت هذه الكلمة .. لقد كنت والأموات سواء ، وكان كل ما أتمناه أن أراك بجانبى .

وأفسحت له مكاناً بجوارها .. وجلس « سامى » على حافة الفراش وهو يقول :

— عسى أن تكونى قد أخذت درساً هذه المرة .. وألا تعودى إلى إرهاق نفسك بالبيت والخدم .

وسمع « سامى » صوت « فايزة » تقول :

— لقد قلت لها إنى على استعداد لأنى أريحها من عناء البيت .

ولم يكن قد أحس بوجودها حتى هذه اللحظة والتفت أليها واستدرك فى دهشة :

— أنت هنا يا فايزة !؟ لقد شغلتنى أمى عنك .. فلم أسلم عليك .. إن نرهقك معنا دائماً .

وقالت « فايزة » عاتبة :

— كيف ترهقوننى .. وأنا أحس أنها أمى أنا !

وابتسمت الأم المريضة فى سعادة وأجابت :

— أنا أيضاً أحس أنك ابنتى .

والتفتت إلى « سامى » قائلة :

— إنى أحس دائماً بالطمأنينة على سامى .. مادمت معه .

وأخذت تتأمل برهة فى وجه « سامى » ثم قالت :

— يبدو عليك الهزال والشحوب .. أما لهذا العمل المرهق الذى تعمله من آخر ! إنك لا تعطى لنفسك حقها من الراحة .. ولم تعد تسمع كلامى عندما أطلبُ منك أن تريح نفسك .. لو أن لك زوجة لعرفت كيف تلزمك بالانتظام فى حياتك .. تسهر كل يوم حتى الساعة الثالثة أو الرابعة .. أية زوجة يمكن أن ترضى هذه الحياة !!

وأطلق « سامى » ضحكة قصيرة ساخرة وقال :

— ما لنا الآن وللزوجة .. ما زال الوقت مبكراً على الزواج !!

— كبرت يا سامى .. تزوجنى أبوك وهو فى الخامسة والعشرين ، وكنت أنت فى العاشرة عندما كان هو فى سنك .

— كان زمنكم .. زمناً آخر .. يتزوج الصبى قبل أن يبلغ الرشد .

— ليتنى أرى أولادك قبل أن أموت .

— عدنا إلى سيرة الموت مرة أخرى !

ونظرت الأم إلى فايزة وأخذت ترمقها بنظرة إعجاب وقالت :

— وفقك الله إلى بنت الحلال التى ترعاك وتعلمك كيف تريح نفسك .. وتصون شبابك .

وأحست « فايزة » بشىء من الحرج .. وتململ « سامى » فى موضعه ثم نهض قائلا :

— لا بد أن أعود إلى الجريدة حتى ألقى نظرة عليها قبل الطبع .

وتساءلت الأم فى ضيق :

— ألا تريح جسدك !! أترك الجريدة ليلة واحدة !

وقال « سامى » فى ضيق :

— كيف أتركها وأنا مسئول عنها ؟

ونهضت « فايزة » تصافح الأم مودعة وهو تقول :

— إنى تحت أمرك فى كل لحظة .. قولى لهشام أن يطلبنى فى أى وقت تحتاجين إلىّ .

وربتت الأم على ظهرها وهى تتمتم :

— خدى بالك من سامى .

— فى عينىّ .

— تسلم عينيك يا ابنتى .

وكره « سامى » كل هذه التوصيات من « أمه » التى تبديها كأنه طفل ما زال فى حاجة إلى رعاية .

ورعاية مَنْ ؟

« فايزة » التى يحس دائماً بأنها هى نفسها فى حاجة إلى رعاية .

واندفع « سامى » إلى الطريق .

وسارت به العربة وبجواره « فايزة » .. وفتح النافذة .. وتلقى الريح الباردة على وجهه الذى أحس به حرارة المحموم ، وملأ صدره بالهواء فى شهيق طويل ، ثم أخرجه فى زفرة حارة .

وعادت الأفكار تتصارع فى رأسه مرة أخرى .

وكلها تدور حول « هدى » .. بكل ما يحيط بها من شكوك واتهامات ..

مباشرة وغير مباشرة .. من فم « سليم » ومن نظرات « فايزة » ، ومن حديث « أمه » .. ولومها له على السهر والحياة غير المنتظمة .

كل الظروف تقف فى وجه حبه لهدى .

أتراه فعلا .. خاطىء !؟

وأى نوع من الخطايا ؟

خطيئة .. لا يمكن أن تقاوم ..

غداً سيذهب ليرتمى بين أحضانها .. ويذيب أنفاسها فى أنفاسه .. ويحس بالراحة الكبرى من عناء متاعبه وأشجانه بين ذراعيها .

أجل .. لا بد من عمل عنيف .. لاستئصالها من نفسه .. إذا فكر فعلا فى استئصالها .

وأمامه فرصة السفر إلى القاهرة .. والغيبة قد تطول .. وسيجد نفسه مرغما على البعد والقطيعة .. ويصبح استئصالها حينذاك أكثر احتمالا .

أجل .. أجل .. لماذا لا يسافر ؟

ووصل إلى الجريدة .. واندفع يباشر أعماله بذهن غائب .. ونفس ممرورة .

وفى الصباح استيقظ وهو يحس باليأس يثقل نفسه والحزن يسرى فى كيانه .

لقد عزم على أن يمنح نفسه فرصة القطيعة بهذا السفر .. وصمم أن يعجل بالسفر دون أن يراها . وأن يحدثها فى التليفون حتى لا يمنحها فرصة مقاومته .. بدموعها وحبها .

إنها على أية حال .. علاقة لا يمكن أن تستمر .

إنها علاقة لا تقوم إلا على الحب وحده .

والحب فيما يبدو له .. لا يمكن أن يكون العماد الوحيد للارتباط بين الناس فى هذه الحياة .. المليئة بالمشاكل والعقد المثقلة بالقيود والأغلال .

وكان أول ما فعله عندما استقر على مقعده فى المكتب هو أن أمسك بالسماعة وراح يدير القرص برقمها .

كان يريد أن يسمع صوتها .. لعله يخرجه من كل هذه الهموم التى أثقل نفسه بها .. وكان يرسم فى ذهنه كيف ستدور المحادثة .. كيف سيخبرها أنه سيسافر ! وكيف سترد عليه فى ذهول وفجيعة ؟! وكيف سينحبس صوتها ثم ترجوه متوسلة أن يحضر إليها !! وكيف سيترك السماعة ثم يندفع ليرتمى بين أحضانها !

بمثل هذا الترتيب رسم ذهنه المحادثة .. وحاول أن ينهر نفسه عن هذا التفكير الصبيانى .. ويؤكد لها أنه لم يطلب « هدى » إلا ليخبرها بسفره إلى القاهرة .. ويلقى عليها تحية الوداع .

وطال دق الجرس .. دون أن يجيب أحد .. وقطع « سامى » سلسلة أفكاره .. وعاد ليدير القرص مرة أخرى معتقداً أنه أخطأ الرقم .

ومع ذلك استمر الجرس يدق دون مجيب .

ومرة أخرى وضع السماعة وعاد يدير القرص بمنتهى الحذر ، وعاد الجرس يدق .. وما من مجيب .

وضع « سامى » السماعة ، وأخذت الدماء تغلى فى عروقه .

أتراها ما زالت نائمة ؟

لماذا إذاً لا ترد « أم حبيب » !

قد تكون « البريزة » منزوعه .. حتى لا يقلقها أحد .. ولكنها لا تفعل ذلك إلا وهو بين أحضانها .. حتى لا يضايقهما متطفل .

أتراها .. تفعل الآن ذلك ؟!

أتراها .. تكره أن يقطع خلوتها متطفل .. حتى ولو كان هو !؟

أم تراها لم تبت ليلتها بالدار .. وصرفت الخدم وتركت الدار خالية !

وفى حركة عصبية .. رفع السماعة وعاد يدير القرص .. واستمر الجرس يدق حتى وضع السماعة مكانها فى عنف كاد يحطم التليفون .

وتملكه اليأس .. وأحس بأنه لن يريحه إلا أن يذهب إلى البيت ليراها ..

ويكتشف الحقيقة .

وتحسس المفتاح فى جيبه .. وهمّ بالخروج عند ما دق جرس التليفون .

ومد يده فرفع السماعة فى لهفة .. و لم يسمع صوت « هدى » ، ولكنه سمع صوت « أم حبيب » ، تهتف « ألو » ..

وقبل أن تسترسل العجوز فى حديثها سألها فى لهفة :

— أين الست هدى ؟

وفوجئ بالعجوز تجيبه فى صوتها المتحشرج :

— نحن فى المستشفى .. وهى تنتظر الدخول فى غرفة العمليات .. وقد حاولت أن تحدثك فلم تكن فى مكتبك .. وطلبت منى وهى فى طريقها إلى غرفة العمليات أن أنبئك بالخبر .

ومضت برهة .. قبل أن يستطيع « سامى » أن يتمالك أنفاسه ويخرج صوته المحبوس يهتف فى ذهول :

— هدى فى المستشفى ؟! لماذا ؟

— لقد أصيبت بنوبة مرارة وهى فى بيت الست « هناء » ليلة أمس ، وحملوها من هناك إلى المستشفى وقد لحقت بها إلى هنا بعد أن أصر الأطباء على أن تجرى لها العملية .. اليوم .

وأخذ « سامى » يردد فى وجيعة .. وهو يحس بمدى ظلمه لهدى ومدى حبه لها .. وخوفه عليها :

— فى طريقها إلى غرفة العمليات !؟ أستجرى العملية الآن ؟

— أجل .

وبغير وعى وجد نفسه يقول :

— سأحضر لها حالا .

وردت العجوز قائلة :

— لا داعى لحضورك الآن .. سيكون بعض المعارف والصحفيين موجودين

وهى تريد أن تجنبك أقاويلهم .. إنها ستطلبك بمجرد أن تفيق من البنج .

ووضعت العجوز السماعة .. وانهار « سامى » على مقعده بجوار التليفون .

وأغمض عينيه ، وأرخى جسده ، كأنما قد جرى شوطاً مرهقاً .. وأحس بحنين شديد إلى « هدى » .. وكره أن يتركها وحدها فى شدتها ، وتمنى لو استطاع أن يضمها إليه .. ويتحسس شفتيها بشفتيه .. قبل أن تستغرق فى غيبوبة المخدر .

وبعد برهة قام إلى مكتبه وحاول أن يفعل شيئاً .. أن يكتب أو يقرأ .. أو يتحدث فى التليفون .. فأحس بالعجز المطلق .

لم يفلح إلا فى أن يجلس مشدود الأعصاب .. معلق النظرات بجهاز التليفون .

ونظر إلى الساعة .. وأخذ يحسب كم دقيقة تستغرق العملية .. وبدأ يرقب العقرب فى حركته البطيئة .

ودخلت عليه « فايزة » لتسأله شيئاً .. فرجاها أن تؤجل كل ما تريد إلى غد ، وطلب ألا توصله فى التليفون بأحد وألا تدخل عليه أحداً .

وخرجت « فايزة » وقد تملكها إحساس باللوعة والحزن وهى تراه فى أزمته دون أن تعرف لها سبباً .

ومضى الوقت بطيئاً ثقيلا .. وكلما دق جرس التليفون وثب إليه .. فلا يكاد يسمع صوتاً آخر حتى يصيبه الضيق وينهى المحادثة فى كلمات قلائل .

وأخيراً .. وأخيراً جداً .

وبعد أن خيل إليه أن عمليات المرضى جميعاً قد انتهت .

دق الجرس .

ومرة أخرى لم يسمع صوتها .. بل صوت « أم حبيب » وهى تقول له والدموع تخنقها :

— سيدى سامى .

— كيف حال هدى .. يا أم حبيب ؟

ـــ لقد أفاقت من البنج وهى تريدك .

ـــ حالا .. سآتى إليها .

ولم يعرف « سامى » كيف وصل إلى المستشفى .. ولكن الذى يعرفه أنه بعد بضع ثوان كان يقف بباب الحجرة وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه ، ودفع الباب فى رفق .. وحاول أن يعوّد بصره على ظلام الحجرة .. ولمح « أم حبيب » تهرول إلى الباب لتستقبله .. وكانت الحجرة خالية .. إلا من العجوز الباكية ، والجسد المسجى على الفراش . ورائحة البنج تملأ الجو .

واقترب « سامى » وهو يرتجف .. ووقف أمامها برهة وهى مغمضة العينين .. وهمس بها فى صوت ملؤه الحنين :

ـــ هدى .

وفتحت عينيها .. ومضت برهة .. ونظراتها جامدة لا تعبر عن شيء .. وأخيراً بدا بريق خافت .. ولاح على شفتيها شبح ابتسامة .

ومدت ذراعيها وهتفت :

ـــ سامى .

وانحنى عليها فى رفق وضع شفتيه على شفتيها .. وملأت خياشيمه رائحة البنج .. ولكنه لم يضق بها بل استمر ملصقاً شفتيه بشفتيها وهو يهمس :

ـــ سلامتك يا حبيبتى .. سلامتك .

وبقدر ما سمحت قواها ضمته إليها ، وهمست له :

ـــ أحبك .. لا أريد من هذه الدنيا سواك .

وسمع صوت العجوز الواقفة فى آخر الحجرة وهى تقول باكية :

ـــ لم تنطق فى هذيان المخدر بغير اسمك .. ليتك تعرف كم تحبك .. هذه المجنونة .

٢٥

سبق صحفى

وقف « سامى » بجوار « هدى » وقد أرخت يدها فى كفه واستسلمت لنوبة غيبوبة أطفأت بريق عينيها وأثقلت جفونها وأعتمت وجهها كأنها السحابة الداكنة تمر بوجه الشمس .

وانحنى « سامى » على الوجه المغفى ، وعاد يمس الفم المطبق بشفتيه فى خشية وإشفاق .

وجذبتها مسة شفتيه من أغوار الغيبوبة وبدت كأنها تقاوم أثقال المخدر لتطفو إلى وجه اليقظة .. وأخذت السحابة الداكنة تنقشع عن قسماتها .. وفتحت جفنيها المثقلين فى بطء .. وما لبثت حتى ارتسمت البسمة الخابية على شفتيها وعادت تردد بصوتها الواهن :

ـــ سامى !!

ولم يستطع « سامى » أن يقاوم رغبته الشديدة فى ضمها ، فأحاط كتفيها بذراعيه وألصق وجهها بوجهه حتى ملأت رائحة المخدر صدره .

وهمست « هدى » به وهى تحاول أن تقاوم رغبتها فى الاستسلام لضمته :

ـــ ابتعد .. حتى لا تضايقك رائحة المخدر .

وزاد « سامى » من ضمها إلى صدره :

ـــ يا حبيبتى .. إنى أحبك .. أحب فيك كل شيء .. حتى المخدر .

واتسعت الابتسامة على شفتيها .. وزاد البريق فى عينيها .. ومدت يدها فأخذت تعبث بأصابعها فى شعره كما تعوّدت أن تفعل وهى قابعة فى حجره أمام النافذة العريضة .. وقالت فى نبرات حالمة :

— لو تدرى كم كنت فى حاجة إليك وأنا فى طريقى إلى حجرة العمليات !

— لو تدرين أنت كم كنت أتعذب وأنا جالس فى حجرتى .. عاجز عن أن أراك أو أضمك أو أعينك فى محنتك .. لقد كرهت كل شىء .. كرهت كل ما يسبب حرمانى منك .. وبعدى عنك .

ونظرت إليه « هدى » وبدت كأن الغيبوبة توشك أن تعاودها . وأخذت تقاومها .. وقد تعلقت نظراتها به .. كما يتعلق الغريق بقارب النجـاة .. وهمست به :

— لم يكن يخيفنى من الموت سوى حرمانى منك .. كنت أود أن أعيش لأراك ثانية .. كنت ...

وتعثرت الكلمات على شفتيها .. ولم تستطع لهفتها على أن تـفضى بمشاعرها أن تتغلب على الضعف الذى يرخى أطرافها ويخمد وعيها .

وصمتت وهى تلهث .. وأخرجت لسانها تبلل به شفتيها ، وهتف بها سامى :

— كفى حديثاً .. لا تجهدى نفسك .

ونظرت إليه .. نظرات مرهقة .. وأشارت إليه أن يجلس .

وجذب « سامى » مقعداً وجلس بجوارها .. وقد أمسك بكفهـا .. ومضت فترة صمت .. تعلق بصر كل منهما بالآخر .. هو بنظراته الحانية اللهفى .. وهى بنظراتها المكدودة التى تخبو تارة وتبرق تارة كأنها الشمعة فى مهب النسيم توشك — لولا مقاومة الحب — أن تطفئها هبات الغيبوبة .

وسمع صرير الباب ذى المفصل الدائرى .. والتفت « سامى » ليرى الطارق .. فلمح إحدى الممرضات مقبلة على الفراش .. فأرخى يده التى تمسك يد « هدى » .. ولمحت الممرضة حركته .. وأمسكت باليـد الممدودة على الفراش تجس نبضها .. وابتسمت لهدى متسائلة :

— كيف الحال الآن ؟

وهزّت « هدى » رأسها هزة خفيفة ، وحاولت أن ترسم ابتسامة على شفتيها .. وهمست بقدر ما يسمح لها ضعفها :

— الحمد لله .

ولم يحاول « سامى » أن ينظر إلى الممرضة .. كان يحس دائماً بقلق من الناس ... ولم يعتد من قبل أن يراها إلا وهما قابعان بين جدران بيتها . وكان يتعجل فى نفسه انصراف الممرضة .

ولكن الممرضة لم تنصرف .. بل بدت كأنها تتعمد التسكع ، وأحس بأنها تنظر إليه .. ولم يستطع أن يمنع بصره من مواجهتها .

وابتسمت الممرضة ابتسامة ترحيب ومعرفة .. وقالت فى شىء من الفرحة :

— الأستاذ سامى ؟

وأحنى « سامى » رأسه محيياً وهو يحس كأن إصبعاً .. تشير إليه بالاتهام .. وقال وهو يحاول أن يرد ابتسامتها :

— أجل .

— فرصة سعيدة جداً أن ألقـاك .. إنى من أشد المعجبات بمقـالاتك وأحاديثك .

ولم يعرف « سامى » بم يجيب .

ولا استطاعت فرحته المفروضة بالمعجبين به .. والمتحمسين له .. أن تغلب ضيقه .. بأن إنساناً ما قد عرفه فى مجال مرتبط بهدى .. بكل ما يحتمل أن يتبع هذه المعرفة من أقاويل وإشاعات .

وتمتمت شفتاه بكلمة « متشكر » بطريقة جامدة لم تستطع حيرته وضيقه أن تمنحه القدرة على أن يتفوّه بخير منها .

ولكن حماس الفتاة غلب جموده .. فلم تأبه له .. واندفعت تقول :

— إنى متطوعة فى المقاومة الشعبية .. وسنصد كل معتد تحدثه نفسه بالعدوان علينا .

وأجاب سامي :

ــ لن يجسر أحد على العدوان علينا .. ما دامت فينا هذه الروح المتوثبة .. التي أراها منك .

ــ إنكم هدينا في الكفاح .

ولم يعرف « سامي » كيف يمكن أن يوقف نوبة الحماسة التي فاضت بالفتاة .. والتي تزيد من إحساسه بالحرج لحظة بعد لحظة .

ولم يملك إلا أن يصمت .. لعل الفتاة تنهي حديثها وتنصرف ، ولكن الفتاة عادت تنظر إليه بإعجاب قائلة :

ــ هل أنت صديق السيدة هدى ؟

وأحس « سامي » بمزيد من حرج من السؤال رغم البساطة التي ألقى بها .

وقال وهو يرسم ابتسامة على شفتيه :

ــ ومن منا ليس صديقاً لهدى !

ــ معك حق .. إنها حبيبتنا جميعاً .

وابتسمت « هدى » ابتسامة شاكرة .. باهتة .

وتحركت الممرّضة لتنصرف .. قائلة :

ــ إنها فرصة طيبة أن نراك خلال فترة وجود السيدة « هدى » عندنا في المستشفى .. أؤكد لك أن زميلاتي سيحسدنني على أني لقيتك .

إذن فالخبر .. لن يقف عند حد الفتاة وحدها .. بل سيتعداها إلى جميع الممرّضات .

وكانت « هدى » أدرى مخلوقات الله بما يمكن أن يجول في ذهن « سامي » .. وبالطريقة التي ينعكس بها أي حدث من الأحداث على نفسه .

وأدركت .. مدى ضيقه بمعرفة الممرضة له .. وبتأثير حديثها المعجب في نفسه .

وعذرته فيما يمكن أن يحس به من ضيق .. فقد كانت هي نفسها أشد

ضيقاً .. لأنها كانت أكثر منه حرصاً على ستر علاقتهما .. حتى لا تتعرض لمضاعفات .. قد تكون سبباً في أن تودى بها .

ونظرت إليه « هدى » وابتسمت قائلة :

ــ أظن من الخير أن تنصرف .

وأحس « سامي » فعلاً أن من الخير أن ينصرف .. وأن وجوده في مثل هذا الوقت بجوارها أمر غير مقبول .

ولكنه لم يتصوّر كيف يمكن أن يتركها وحدها وهي في مثل هذه الحالة .. لقد كان يشعر في أعماقه أن وضعه الطبيعي في مرضها هو أن يبقى بجوارها .. لا يفارقها إلا ريثما يؤدي ما يتحتم عليه تأديته من الأعمال ، ثم يعود ليجلس بجوارها ، يحدثها ويحنو عليها .

ومد يده ليمسك كفها ويضغط عليه في حنان .

وعادت هي تقول في إلحاح :

ــ قم يا سامي .. ليس من العقل أو الصواب أن يطول بقاؤك هنا .

ــ ولكني أحس أني يجب أن أستقر بجوارك .

ونظرت إليه في وله وأجابت :

ــ أعرف هذا يا حبيبي .. أعرفه جيداً .. ولكن يجب إن تنصرف .

ــ وددت لو أحضروا لي فراشاً آخر أو أريكة .. لألازمك طول مرضك .. إني أكره فراقك .. وأتوق إلى وضعك في صدري .

ــ سنفعل هذا بمجرد أن أعود إلى البيت .. عندما تضمنا حجرتي .. سنفعل كل ما تريد .. ولكن يجب أن نكون الآن على حذر .

وقبل أن يجيب .. سمع صرير الباب .. ودخلت « أم حبيب » التي تعمدت أن تغادر الحجرة بمجرد أن استقر سامي بجوار هدى .

وأقبلت « أم حبيب » تتهادى بخطواتها الثقيلة .. ومدت يدها ببطاقة إلى « هدى » قائلة :

— الرجل الثقيل .. الذى يعمل فى « الجر نال » .. حضر ومعه مصوّر وقال إنه يريد أن يصورك على فراش المرض .

وتناول سامى البطاقة وقرأ الاسم الذى بها :

— عبد الجواد حمدان .. جريدة الخبر .

وهتفت « هدى » بقدر ما يسمح لها ضعفها :

— يا لطيف !!

وعاد « سامى » يتساءل فى دهشة :

— تقولين إنه حضر ومعه مصوّر ؟!

— أجل . وعندما قلت له إنها ما زالت مستغرقة فى المخدر ابتسم فى فر وقال : بديع .. ستكون الصور سبقا صحفيا .. هذه أول مرة تصوّر فيها مطر وهى مستغرقة فى المخدر .

وهزت « هدى » رأسها فى دهشة وتساءلت :

— وماذا قلت له ؟

وهزت « أم حبيب » رأسها فى أسف وأجابت :

— كدت أطبق فى زمارة رقبته .. وأنا أجده لا يرى فيك — وأنت ملقاة على فراش المرض — إلا سبقاً صحفياً .

وضحك « سامى » قائلا :

— ولماذا لم تفعلى ؟

— والله لولا خوفى على السيدة من ألسنتهم .. لفعلتها .

وعادت « أم حبيب » تسير متثاقلة نحو الباب وهى تكمل حديثها بكلمات غير مفهومة .. كانت خلاصتها سباباً فى الصحفى الذى لم ير فى سيدتها سوى صيد لجريدته .

وأخذ « سامى » يقلب البطاقة فى يده وهو ينظر إلى « هدى » .

ورفع حاجبه قائلا فى شىء من السخرية والفكاهة :

— إذن لقد أتى السيد عبد الجواد .. ليصوّرك على فراش المرض .. كنوع من السبق الصحفى ؟

و لم تستطع « هدى » أن تمنع نفسها من الضحك .. وسرعان ما وضعت يدها على مكان الجرح وهى تحس بوخزة سببها الضحك .

وقال « سامى » وهو يضع شفتيه فى كفها :

— أتعبتك الضحكة يا حبيبتى .. لا داعى لأن ترهقى نفسك بالضحك أو الحديث .

ولكن الابتسامة عادت ترتسم على شفتى « هدى » وقال « سامى » :

— لم يعرف هذا الغبى أى سبق صحفى كان يمكن أن يحصل عليه .. لو أنه دخل الحجرة .

وهزت « هدى » رأسها وهى تقول :

— ربنا ستر .

— البركة فى أم حبيب .. أحياناً تتصرف كأنها أحد العباقرة .. وأحياناً أحس أن الله وضع لها فى رأسها بدل العقل حذاء قديماً .

وألقى « سامى » بالبطاقة على « الكومودينو » بجوار الفراش .

وقالت « هدى » فى صوتها الخافت :

— أظن هذا إنذاراً كافياً لك بالانصراف ؟!

وتنهد « سامى » و لم يجب .. واستمرت « هدى » تقول :

— اللهم إلا إذا كنت تصر على أن تهيىء لهم سبقاً صحفياً .

— كيف تكون زيارتى لك إذن ؟

— أظن أنسب الأوقات هو الصباح المبكر قبل أن تذهب إلى الجريدة .. أو بالليل بعد أن تنتهى منها .. لا أظن زائراً عاقلا سيحضر إلىّ قبل هذا الوقت .. أو يبقى بعد هذا الوقت .

— وباق النهار ؟

— أغلب ظنى أن الحجرة ستكون مزدحمة بالمعارف والصحفيين .

— لا أتصور كيف أتركك وأنت فى هذه الحالة !

— يجب أن تحتمل .. إنه أسبوع أو عشرة أيام .. ويمر على خير .

— إن شاء الله سيمر على خير .

— ربنا يستر .

ونهض سامى وانحنى عليها فى رفق وضمها إليه .. وأحس بشفتيها ترتجفان تحت شفتيه وسمعها تهمس فى لهجتها الضعيفة الخافتة :

— أحبك .

وأحس بدموعها تنزلق ساخنة على خديها وتمس صفحة وجهه ، وعاد يضمها إليه فى خوف كأنه يخشى عليها أن تتفتت بين ذراعيه وهمس فيها :

— يا حبيبتى يا سيدة الدنيا .. يا أعز إنسانة .

وسمع صرير الباب ، فانسحب من بين ذراعيها .

وأغمضت هى عينيها وهمست كأنما تحدث نفسها :

— مع السلامة .

ودخلت « أم حبيب » قائلة :

— أرى بعض الناس مقبلين فى نهاية الممر .. وأخشى أن يكون بينهم بعض الصحفيين الذين يريدون الحصول على سبق صحفى .

وأحس « سامى » بما تقصد وأجابها :

— سأنصرف حالا يا أم حبيب .. وأرجو أن تأخذى بالك من « هدى » .

— فى عينىّ يا سيدى .. إنها أعز من ابنتى .

ونهض « سامى » واقفاً ثم غادر الحجرة بعد أن شدّ على يد « هدى » قائلا :

— سأحضر بالليل بعد انتهاء العمل .

وسار فى الممر متجهاً إلى الدرج ، ولكنه لم يكد يصل إلى نهاية الممر وينعطف يساراً ليهبط الدرج حتى سمع صوتاً يهتف به :

— الأستاذ سامى !؟ صباح الخير .

واستطاع « سامى » بفطرته أن يميزه قبل أن يعرفه بنفسه قائلا :

— أنا عبد المعطى حمدان مندوب جريدة الخبر .

— أهلا وسهلا .

— خير إن شاء الله .. ماذا تفعل هنا ؟!

وحاول « سامى » أن يتمالك نفسه ولا يثور لصفاقة الرجل فقال له :

— كنت أزور أحد المعارف .

— إن شاء الله تكون حالته طيبة ؟!

— الحمد لله .

— وما هى الأخبار .. أحقيقة أن هناك تحرّشات على الحدود ؟!

— لم أسمع بهذا .

— والأسطول الأمريكى يقال إنه قد اقترب كثيراً من الساحل ؟

— جائز .

— سمعنا أنك ستسافر إلى القاهرة من أجل اللجنة التحضيرية للمؤتمر الأسيوى الإفريقى ؟

— محتمل .

وحاول « سامى » أن يكوّن فى إجابته موقفاً .. لأى احتمال لإطالة الحديث .. وقبل أن يتحرك ليهبط الدرج عاد الصحفى يسأله :

— كنت أحاول أن أزور « هدى نور الدين » المطربة .. إنها هنا تجرى عملية مرارة .

وقبل أن يسترسل الرجل فى حديثه قاطعه سامى قائلا :

— عن إذنك .. لأن لدىّ موعداً .. السلام عليكم .

ثم اندفع يهبط الدرج .. وهو يحس باضطراب فى ذهنه .. وأشباح الزوار والأطباء تمر به متلاحقة وهم يصعدون الدرج .

أتراها كانت حماقة منه أن يزور هدى فى هذه الساعة ؟

حماقة أو غير حماقة .

هل كان يستطيع أن يفعل .. غير ما فعل ؟

إنه لا يذكر كيف وصل .. ولا كيف فكر فى المجىء .

لقد اندفع كالقذيفة بمجرد أن قالت له « أم حبيب » إنها أفاقت من المخدر وإنها تهتف باسمه .

هل كان يملك إلا أن يلبى نداءها ؟!

وانتزعه من شروده صوت يهتف به :

ـــ أهلا أستاذ سامى .

ورفع بصره ليجده أحد الأطباء .. فرد عليه التحية وهو يحث الخطا إلى الخارج .

لماذا يعرفه كل هؤلاء الناس !؟ ألا يستطيع أن يتسلل فى سكون دون أن يصطدم بمن يعرفه فى كل مكان !

ولكن ماذا يخشى منهم !؟ هل زيارة مستشفى جريمة تستحق كل هذا الخوف ؟

أهو الوحيد الذى يدخل المستشفى زائراً ؟

ولكنه الوحيد الذى زار « هدى » ؟!

ومن يعرف أنه زارها ؟. بل من يعرف أنها موجودة ؟. من يعرف ...؟! هذا الصحفى مثلا .. سيجعل الناس كلهم يعرفون غداً .. أن هدى فى المستشفى .

وليس يستبعد عليه أن ينشر أيضاً أنه لقيه هناك .

وعلى الناس أن يستنتجوا بعد ذلك ما يشاءون .

كان يجب أن يكون أكثر حذراً من هذا .

أجل .. كان يجب .. وفارق كبير بين ما يجب .. وما يستطاع .

٢٦

شروع فى هروب

مرت فترة المستشفى بسامى وهو يسترق الخطا كل يوم ليقبع بجوار « هدى » وهى راقدة فى فراشها .. إما فى الصباح الباكر وخدم المستشفى لم ينتهوا بعد من نظافته .. أو بالليل بعد أن يخرج آخر زائر ويغفى المرضى فى أسرتهم .. ويسود السكون حجرات المستشفى ، واستطاعت هذه الطريقة فى الزيارة أن تحميه من تطلع المتطفلين .. وقفشات الصحفيين من زوّار « هدى » .

وسارت « هدى » سريعاً نحو الشفاء .. وجلس « سامى » بجوارها يتحسس شعرها .. فى صباح يوم الخروج .. وكانت « هدى » قد مشطت شعرها وعقصته فى مؤخرة رأسها وربطته بشريط أحمر .. وبدا وجهها أبيض نظيفاً حلواً .. كوجه الأطفال .

وكانت تبدو عليها السعادة وهى تمسك بيده وتتحسس عروقها .. وتمس بشفتيها أطراف أصابعه .

ونظرت إلى عينيه وهى تبتسم ابتسامة كشفت عن أسنانها المنظومة البيضاء ، وسألته قائلة وهى لا تستطيع أن تخفى فرحة الأطفال من نبراتها :

ـــ ستأتى إلىّ الليلة ؟

ـــ إذا لم يكن لديك مانع .

وعادت تسترسل فى قولها كأنها لم تسمع ردّه :

ـــ وسنجلس على مقعدنا سوياً .. ونتطلع إلى الجبل من خلال أوراق الشجر !؟

— بل سترقدين فى فراشك .

— لقد أمرنى الأطباء بالمسير .. إنى أريد أن أنطلق وإياك إلى الحياة الواسعة الجميلة .. أتذكر عند ما قلت لى ذات مرة إنك تحلم بأن نقضى سوياً بضعة أسابيع فى جبال سويسرا ؟

— ورددت علىّ أنت ، بأن رفعت يدك إلى السماء وقلت : « يارب .. والله راضية ببضعة أيام حتى فى بلودان » .

— أجل .. إنها أمنيتى الدائمة .. أتتصور أنه من السهل علىّ أن أدعك كل ليلة تنتزع من بين أحضانى وأنت مستغرق فى النوم على ذراعى .. كم تمنيت لو قضيت الليل كله بين ذراعى مسترخياً .. لا تنظر إلى عقارب الساعة .. كأنها السيوف التى تقطع فى سيرها شريان حياتى .. ومتعتى .

— عدنا إلى التبرّم .. ألا تذكرين قولك عند ما يضيق بك الحال .. إنك عندما تفكرين فى احتمال فرقتنا تحمدين الله على الدقائق التى نقضيها سوياً !

وتنهدت « هدى » وأجابت :

— أجل .. إنى أحمد الله .. دائماً ، على مجرد إحساسى بأنك موجود بجوارى .. ولكنى أحس بلهفة على استرخاءة بين أحضانك لا تقطعها علينا عقارب الساعة ، استرخاءة ننسى فيها كل ما حولنا .

— أنا أيضاً أحس بنفس اللهفة .. إنى لا أكره شيئاً كلحظة وداعنا وراء الباب .. وأتمنى لو استطعت أن أسخر منها كما تسخر منى .. وأن أبقى معك حتى تحل لحظة الوداع ثم أسير معك إلى الباب .. وبدل أن أودعك ، أحملك بين يدىّ لأعود بك ثانية إلى الفراش ، ونقلب الساعة على وجهها ، ونستغرق فى النوم حتى الصباح .

وصمت « سامى » ولم تجب « هدى » .. وشردت نظراتها كأنها قد استغرقت فى حلم .. وفجأة أطبقت بكفيها على يده وسألته :

— ألا تستطيع أن تأخذ إجازة بضعة أيام ؟

— لم ؟!

— لقد فكرت فى أن أقضى دور النقاهة بعيداً عن دمشق .. فلماذا لا نكون معاً ؟

وهز رأسه وهو يحس بأن الفكرة غير معقولة وسألها فى غير اهتمام :

— نكون معاً ؟! أين ؟

— فى أى مكان .

— مثل ؟!

— بيروت مثلا .

— أتظنين أننا نستطيع أن ننزل سوياً فى أى فندق فى بيروت دون أن يعرفنا الناس ؟ أتتصورين أنك أنت بالذات يمكن أن تحلى فى أى مكان دون أن يتجمهر حولك الناس ، اللهم إلا إذا كنا ننزل الفندق متنكرين .. أنا مثلا أرسل لحيتى ، وألبس « طرطوراً » ؟

وقاطعته « هدى » قائلة :

— أنا لا أمزح .. إنى أتكلم جادة .

— كيف تتكلمين جادة .. أى فندق هذا الذى يمكن أن نغامر بالنزول فيه ؟

— ولماذا تصر على الفندق ؟

— لم أتصور أنك تريدين أن ننزل معاً على قارعة الطريق .

— لا داعى للمزاح .

— أين سننزل إذن ؟

— فى بيت أحد المعارف .

وصاح « سامى » فى دهشة :

— أحد المعارف ؟! من هذا الذى يقبل أن ينزلنا فى بيته ؟!

— علية صديقتى .: لديها بيت فى صوفر فى الجبل .

وبدا التفكير على وجه « سامى » . وأحست « هدى » لأول مرة منذ أن

بدأت الحديث ، أنه يأخذ عرضها مأخذ الجد .

ورفع رأسه وتساءل قائلا :

— ومن يقطن فى البيت ؟

— لا أحد .. إنه مغلق .

— وجيرانه ؟

— ليس له جيران .. إنه فى أول الطريق قبل البلدة ذاتها ، على منحدر متفرع من الطريق الأصلى .

— وكيف نعيش فيه ؟

— ماذا تعنى كيف نعيش فيه !! سنعيش كما يعيش الناس .

— أقصد كيف نعيش فى بيت مهجور !؟

— من قال لك إنه مهجور .. إنها تتركه بأثاثه وثلاجته .. وكل ما به كما هو حتى الصيف .

وأطلق « سامى » تنهيدة طويلة من أنفه قائلا :

— مسألة تستحق التفكير .

— إنها ستكون فرصة العمر .

— المفروض أن أسافر إلى القاهرة فى أى وقت خلال الأسبوع القادم .

— لقد قلت لى إنك ستعتذر .

— قلت إنى سأحاول الاعتذار .

— ستسافر معى .. وتضعهم أمام الأمر الواقع .

وهز « سامى » رأسه قائلا :

— تصوّرى لو عرف أحد أننى أعتذر عن السفر إلى مؤتمر التضامن لكى أقضى معك فترة النقاهة فى صوفر !

— ومن ذا الذى سيخبرهم بذلك ؟

— الحظ السئ وألسنة السوء .

— لا داعى لأن تفترض أن حظنا سيئ ، ولن تكون هناك فرصة لألسنة السوء .. لأنه لن يعرف أحد بأننا ذهبنا معاً .

— إن مجرد اختفائنا معاً سيثير الكلام .

— كلام مَنْ ؟

— كلام أصحابك .

— مثل مَنْ ؟

— رياض عبد الدايم مثلا .

— إنى حرة فى تصرفاتى .

— إننا لا نناقش فى مسألة حريتكِ .. إننا نناقش معرفة الناس باختفائنا .

— هب أنه عرف أنى اختفيت كما تقول .. ما الذى يربط مسألة اختفائى بك ؟

— لأنى سأختفى أنا أيضاً .

— ولكنه لن يحس باختفائك .

— سيحس به أصدقائى .. وأنت تعرفين كيف تهوى الألسنة تناقل مثل هذه الأمور .

ونفخت « هدى » نفخة يأس وبدا على وجهها الضيق وقالت :

— حسن .. لا داعى للكلام فى هذا الموضوع .

— أغضبت ؟

— ولماذا أغضب ؟

— لأنى أحاول أن أحذّرك .

وهزت كتفيها قائلة :

— لست أدرى لماذا أكون أنا المندفعة دائماً وأنت المحذّر ، إنك تشعرنى دائماً بأنى وحدى التى أحب .

وتلفت « سامى » نحو الباب ، ثم انحنى عليها وضمها إلى صدره قائلا :

— أنت تعرفين كم أحبك .. وكم أتمنى أن أقضى العمر بين أحضانك .

— إذن سنسافر سوياً ؟

ومرة أخرى بدا عليه التفكير .. ثم قال :

— متى تريدين السفر ؟

— غداً .

— ولكنك لا تحتملينه !!

— سنسير بالعربة الهوينى .

— وغيار الجرح !؟

— لم يعد الجرح فى حاجة إلى غيار .

— والطبيب !؟

— الطبيب !؟ ماذا تقصد ؟!

— ألن يكون فى حاجة إلى فحصك ؟!

— سيفحصنى قبل أن أعود إلى البيت .. لا تحاول أن تعقدها .. أرجوك .

وصمت سامى برهة ثم قال :

— سنذهب بشرط .. أن يسمح الطبيب .

ومدت « هدى » ذراعيها تضمه فى فرح قائلة :

— انتهينا .. إن الطبيب سيسمح .

— لا تحاولى أن تكذبى .

— لن أكذب .. ولكنى سأقنعه بأن يسمح .. إنى أشعر بأنى قد استرددت صحتى .. وأنا أسير فى الحجرة منذ بضعة أيام .

— حسن .. سأذهب الآن .. وسآتى إليك ليلا .

— اجتهد أن تأتى مبكراً .

— وزوّارك ؟

— زوّارى ! .. ألا تتوقعين زوّاراً فى أول يوم تعودين فيه إلى البيت ؟

— سأغلق الباب وأرفع السماعة .. ولا أستقبل أحداً .. ولا أكلم أحداً .. أيرضيك هذا ؟

— سأكون فى مكتبى من السادسة .. وسأحضر إليك فى أى وقت تطلبينني .

ومدت « هدى » ذراعيها وعادت تضمه فى فرحة قائلة :

— أحبك .. أحبك .. إنى أحس كأنى فى حلم ، لا أتصور أنى سألقاك فى حجرتى الليلة وأننا سنجلس سوياً ، ولا أتصوّر أننا سنذهب غداً لنستقر وسط الثلوج على سفح الجبل .. بعيدين عن الناس .. بلا عقارب ساعة تستحثنا على الفرقة .. ولا لحظة وداع تدفعنا إلى الباب .. تصوّر أن هذا يمكن أن يحدث !

ولم يجبها سامى .

إذ لم يخطر بباله قط .. أن هذا فعلا يمكن أن يحدث .. لقد كان شيئاً فوق تصوّره .. وأبعد من مدى أحلامه .

وفى الساعة السادسة كان يستقر على مكتبه كما وعدها .. وأقبلت عليه « فايزة » تحييه وتسأله :

— هل أحضر إليك التجارب الآن .. أم بعد الاجتماع ؟

وزوى ما بين حاجبيه فى دهشة .. وسألها :

— اجتماع ؟.. أى اجتماع ؟!

— الاجتماع مع وفد العمال .

وبدأ ينقر بأصابعه على المكتب فى حيرة .

وعادت « فايزة » تذكره :

— لقد اتفقت معهم على الاجتماع فى الساعة السابعة .

وأطرق « سامى » مفكراً .. ووقفت « فايزة » تنتظر الجواب .. وبعد برهة رفع رأسه قائلا وقد بدا عليه القلق :

— أخشى ألا أستطيع حضور هذا الاجتماع

— ولكن ..

— لكن ماذا ؟

— لقد كان المفروض أن تتحدث إليهم .

— أجل .. كان مفروضاً .. ولكن يمكن لأى واحد غيرى من الحزب أن يتحدث .. قولى لسليم أن يعتذر عنى ويتحدث إليهم .

— ولكنهم كانوا يريدونك أنت ؟

— أجل .. وأنا أيضاً كنت أريد أن أحدثهم .. ولكن الفرصة لم تذهب .. سأحدد لهم موعداً آخر .. إلى ...

وقبل أن يتم حديثه دق جرس التليفون ولم تقف « فايزة » لتسمع بقية الحديث .. فقد كانت تستطيع أن تدرك شخصية المتحدث بإحساس من قلبها ، لا سيما بعد أن اعتذر عن حضور الاجتماع .

وخرجت « فايزة » .. ورفع « سامى » السماعة ليسمع صوت « هدى » تسأله :

— أتستطيع أن تأتى الآن ؟

— أجل .

— إنى فى انتظارك .. استعمل المفتاح عند حضورك .. لأنى صرفت الخدم حتى نكون وحدنا .

ووضع سامى السماعة .. ثم غادر المكتب ، وبعد دقائق كان يدفع المفتاح فى باب الشقة ، ويدخل مجتازاً الممر الطويل إلى حجرة النوم .

ووقف أمام الفراش الذى رقدت عليه « هدى » ، ورفعت « هدى » إليه عينيها ثم مدت إليه ذراعيها .. فانحنى عليها وضمها إليه وضمته « هدى » وكأنها عطشى تتلمس قطرات الماء .. وهمست قائلة :

— لقد جعلتنى أحب هذا البيت .. لأنى أحس أنه بيتنا المشترك . لم أكد أدخل حتى أحسست كأنى أراك فى كل مكان ، وجعلت أطوف به وبى شوق

الغريب إلى وطنه .. وأقبلت على الشرفة أتحسس الأصص التى سقيتها ، والركن الذى قبعنا فيه نرقب النجوم سوياً .. كل شىء فى الدار أحسستُ أن له صلة بك من قريب أو بعيد .. المقعد الذى جلست عليه لتأكل معى أول مرة .. وباب الشرفة الذى نظرت منه إلى بردى .. وأوراق الشجرة التى تحب أن تحملق من خلالها إلى أضواء الجبل ، وأقبلت على الفراش أتحسس مكانك فيه .. وتشممت موضع أنفاسك وكأنى به ما زال دافئاً كما تركته .. وفتحت الدولاب لأمسك بالمشجب الذى تعوّدت أن أعلق عليه حلتك .. ما أجمل أن أعود لأراك فى كل ما حولى .. حتى الزجاج الذى كنت تقف خلفه لتدفع فيه من أنفاسك ضباباً تكتب عليه بطرف أصبعك « أحبك » وتفسح المكان لى لأرد عليك بأصبعى « أعبدك » . .

ومدت يدها فأخذت تتحسس وجهه فى رفق .. مست شفتيه وأنفه وعينيه ، كأنها مثال يريد أن يختبر مقاييس نموذجه ، وعادت تهمس :

— علمتنى أن أخشى الموت .. منحت الحياة طعماً .. جعلتنى أتوق إلى التمسك بها .

وكان « سامى » يرقبها فى صمت ، وكلما استرسلت فى الحديث أحس بها تندفع فى أعماقه .

كيف خيل إليه أنه يستطيع فراقها ؟

إنها أجمل ما فى دنياه .. إنها تمثل أطيب ساعات عمره .. كيف يحتمل بُعدها أو هجرها ؟!

إذا كان عمله .. ومبادئه .. حق الناس عليه .. فإنها هى بحبها .. وكل ما تمنحه إياه من إحساس بالراحة والاستقرار ، حقه على نفسه .

ولكى يوفى الناس حقهم .. يجب أن يوفى نفسه حقها .

وانحنى عليها فأسند رأسه على صدرها .. وهمس بها كأنما يرد على وساوسه الطويلة التى ألحت عليه فى أمسه :

— لن أتركك أبداً .

وضمته إليها وهى ترد على همساته :

— وسأبقى معك حتى آخر العمر .

ودق جرس التليفون فمدت يدها ورفعت « البريزة » وقذفت بها بعيداً وهى تقول :

— دعونى أستريح .. إنى بخير ما دمت معه ..

٢٧

كان حلماً ..

أصبح الصبح دون أن تشرق له شمس أو يبين له شعاع ، وتقلب « سامى » فى فراشه ونظر إلى الساعة فى قلق وهو يجد ضوء النهار يبدو من خلال الفتحات الضيقة لشيش النافذة .

وكانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف .. والبيت قد ساده السكون .. واستغرق أهله فى سبات الفجر فلم تعد تسمع بين جدرانه إلا أنفاساً تتردد فى خفوت أو حشرجة .

وجذب « سامى » المنشفة واتجه إلى الحمام ، وأحس بلسعة البرد تثلج أطرافه وهو يبعد عن نطاق الدفء ، الذى أشعته مدفأة الحطب بين أرجاء الدار .

ولم يكن بالصنبور ماء ساخن .. ولا كان هناك وقت لتسخين ماء للحلاقة .. فأقبل « سامى » وأخذ يغمس الفرشاة فى الماء البارد والصابون ثم يمرر بها على صفحة وجهه وهو ينظر فى المرآة المستطيلة وقد شرد ذهنه فيما هو أبعد من تقاطيع وجهه .

ووضع الموسى فى ماكينة الحلاقة وبدأ يشد شفتيه .. ويحرك لسانه داخل شدقه حتى يسطح جلد ذقنه ويجعله فى أنسب الأوضاع لمجرى الموسى .

ولم تستغرق تلك الجهود اللا إرادية شيئاً من تفكيره .. كانت يده تجرى بالموسى على ذقنه ، وذهنه يعدو فى طريق بيروت وراء المغامرة التى يوشك أن يقدم عليها ..

مغامرة ؟!!

ولمَ لا !؟ وماذا تكون المغامرة إن لم تكنها .. رحلته هذه ؟

وسط كل هذه الأحداث التى يمر بها البلد .. والأنواء التى تتقاذف مصيره .. ووسط كل الصراع الذى يدور بين الساسة والأحزاب والانتهازيين من مختلف المذاهب والتيارات .

وسط المعركة الدائرة التى سيتقرر فيها مصير البلد .. يختطف امرأة من فراش المرض وجرحها لم يجف بعد .. ليعدو بها هارباً من العمل والمسئولية والصراع .. مثيراً حوله زوبعة من الريب والشائعات .. تبدد إيمان الشباب بمبادئه .. ويعطى لخصومه سلاحاً ماضياً للتشهير به والتشكيك فيه .. وتلويث كل ما يدعو إليه وما يؤمن به .

وألقى « سامى » الماكينة على حرف الحوض .. وأطلق زفرة حارة ، وألقى نظرة على وجهه فى المرآة ، وقد تناثرت بقايا الصابون على ذقنه .

مغامر .. أحمق ؟!

كيف يجرؤ على أن يرافقها فى عربته طول الطريق من دمشق إلى بيروت ؟

ولكن الوقت مبكر .. والطريق لا شك لم يزدحم بعد .. وحركة المرور قد خفت بعد تساقط الثلوج .. ومن غير المحتمل أن يصادفه إنسان يعرفه على الطريق فى هذا الوقت من النهار وفى هذا الموسم من السنة .

وفى نهاية الطريق سيستقر فى البيت المنعزل على سفح الجبل ليسترخى هنيهة بعد طول عناء وجهد وإرهاق .

أليس من حقه .. أن يمنح نفسه عطلة بضعة أيام .. خلال هذه السنين الطويلة من العمل الشاق المضنى المتواصل !؟

فى هذا الوقت .. وفى هذه الظروف ؟

ولِمَ لا ؟.. إن الموقف على فرط ما يبدو من خطورته .. ثابت متجمد .. لقد وصل إلى أقصاه .. بكل تلك المظاهر الحادة الثائرة .. وهو يمثل أحد وجوه سياسة حافة الهاوية .. التى تدفع بالعالم إلى الحافة ثم توقفه عندها .. متوتر النفس مشدود الأعصاب .. والقوى المتصارعة يعض بعضها أطراف البعض منتظراً أن يقول الآخر « آه » .. قبل أن ينطق بها هو .

على الحدود الشمالية دمى الأتراك تحركها أصابع الأمريكان .. كنوع من « طرقعة » الكرابيج .. وفى البحر يستعرض الأسطول عضلاته .. كلاعب السيرك .. محاولة منه لإبعاد الأنف السوفييتى المدسوس بالقروض .. والكف الممدود بالمساعدات .. والشيوعيون يتواثبون فى « الزفة » كصبية الفرح مهللين فرحين .. مؤكدين أنهم أصحاب الفرح .

وبعد !!

لا شىء أكثر من هذا .

إنه يدرك بإحساس السياسى .. أن واحدا من الطرفين لن يغامر بأكثر من هذا .. ليدفع بالعالم المشدود على الحافة .. إلى الهاوية .

ولكن ثمة شىء لا بد أن يفعل من داخل البلد .. ليقيه كل هذه التيارات العاتية .. ويجعله أقدر على الوقوف على ساقيه .

وهذا الشىء الذى يجب أن يفعل واضح لكل مخلص مؤمن .. هو ضم الجبهة إلى الجبهة .. وصلب العود بالعود .. وشد الذراع فى الذراع لكل من ضمتهم وحدة المصائب والأمانى والأهداف .

وهو يؤمن بهذا الشىء من أعماقه .. وبكل ما يملك من حس وإدراك .. وهو يسعى إلى تحقيقه بكل ما يملك من جهد .

ما باله إذن يفر من المعركة ؟

هل راحة بضعة أيام تعتبر فراراً من المعركة ؟

إن للجندى حق إجازة الميدان .. فلماذا لا يكون له هذا الحق ؟

لقد كان دائماً يعطى من نفسه كل شىء .. كل جهد وكل تفكير .. ما حاول أبداً أن يسأل لنفسه حقاً .

أكثير عليها أن يمنحها بضعة أيام راحة .. عندما يحس بالحاجة إليها .. وعندما

يجد من يوفر لها هذه الراحة !؟

خلال تلك السنين الطويلة .. لم يطلب الراحة .. لأنه لم يجد من يستطيع أن يمنحه إياها .. ولا حاول أن يمنح نفسه الأشياء اليسيرة التى تريح الناس لأنه لم يحس حاجة إليها .

لم يشرب كأساً .. ولا جلس على مائدة لعب .. ولا عبّ فى صدره نفساً من الدخان .

حتى زهر الطاولة .. وحجارة الشطرنج .. لم يحاول أن يجعل منها متنفساً له .. لأنه لم يشعر قط بأنه فى حاجة إلى متنفس .. ولأنه لم يحس أن كل تلك الأشياء التى تريح الناس يمكن أن تريحه .

عمل .. عمل .. عمل .

تلك هى الساقية التى كان يدور فيها معصوب العينين طوال تلك السنين الماضية .. بلا مستقر .

حتى وجد المستقر فجأة .

وأحس باللهفة على الراحة .. والحنين إلى المستقر .

أحرام عليه أن يخلد إليه .. يوماً .. أو بعض يوم ؟

وأمسك بالمنشفة يجفف وجهه وذراعيه وقدميه .

وأثناء عبوره القاعة متجهاً إلى حجرته .. سمع صوت أمه تهتف :

ــ مَنْ !؟

ــ أنا سامى .

ــ سامى !.. ماذا بك ؟

ــ لا شىء .

ــ ما الذى أيقظك مبكراً ؟!

ــ مسافر إلى بيروت .

ــ فى مثل هذه الساعة ؟

ــ أجل .. أريد أن ألحق بعض مواعيد هناك .

ــ حرام عليك صحتك .. ألا تعطى بدنك بعض الراحة !؟ إنك لم تنم إلا بعد منتصف الليل .. كم الساعة الآن ؟

ــ السابعة إلا ربعاً .

وكان « سامى » قد اتجه إلى حجرة الأم .. ووقف أمام فراشها ، وقد وضع المنشفة على كتفه .. وبسطت الأم كفيها كأنها تشكو إلى الله ، وقالت فى لهجة إشفاق :

ــ أهذا يرضى ربنا !؟ اذهب يا بنى واسترح فى فراشك قليلا .

ــ ليس هناك وقت .

ــ متى ستعود ؟

ــ بعد بضعة أيام .

ــ طبعاً سترهق نفسك بالسهر .. ولن تجد من يطعمك .

وضحك سامى :

ــ أنا لم أعد بعد صغيراً .. والطعام ليس مشكلة .

ــ كل شىء بالنسبة لك بعيداً عن مكتبك مشكلة .. ألا تذكر كم مرة نسيت أن تتناول الغداء ؟

ــ ولكنى كنت أعوّضها فى العشاء .

ــ إنك تهمل نفسك .. وقد هزل جسدك .. وأصبحت لا تملأ ملابسك .

ــ منذ أن ولدت وأنا أسمع منك هذا القول .. ومع ذلك ما زلت حياً .. حافظى أنت على صحتك ولا ترهقى نفسك .. ودعى أمور البيت إلى « مجيدة » .. إنها كبرت ، وهى تعمل عندنا منذ أن كانت فى العاشرة .. ولو كانت « حماراً » لعرف طريقه دون حاجة إلى من يقوده .

— إنها فعلا « حمارة » .. ولكنها تحتاج دائماً إلى من يقودها .. لو لم أراقبها .. لما فعلت شيئاً فى البيت .. ولبقيت فى فراشها حتى الظهيرة .. إنها طبعاً لم تستيقظ حتى الآن !

— لا حاجة بها إلى الاستيقاظ .. إنى سأرتب حقيبتى وأرتدى ملابسى ثم أنزل بعد بضع دقائق .

— والإفطار ؟

— لا داعى له .. سأتناوله فى الطريق .

— دعها تعد لك فنجان الشاى .

— حاضر .. استريحى أنت .

— كنت أريد منك أن تحضر معك أشياء من سوق الطويلة .

وبدا التردد على وجه « سامى » ثم قال :

— سوق الطويلة .. ولكن .. أعنى أنى لا أفهم فى مسائل الشراء .

— لا حاجة بك إلى أن تفهم .. ستمر على محل « عجايبى » فى أول السوق وهم سيعطونك ما أريد .

وكان « سامى » يعلم أنه لن ينزل إلى بيروت ، وأن المفروض أن يبقى طوال المدة فى صوفر ، وهمّ بأن يعتذر ، ولكنه لم يجد ما يبرر عذره دون أن يثير الشكوك فى رحلته ، فأجاب وهو يغادر الحجرة :

— إذا وجدت وقتاً فسأذهب إليهم .

— لن تعدم نصف ساعة تذهب خلالها إليهم .

— إن شاء الله .

واتجه « سامى » إلى حجرته .. وصلى ركعتى الصبح ، ثم وضع بعض غيارات فى الحقيبة مع ماكينة الحلاقة .. ثم ارتدى ملابسه بسرعة .. ونظر إلى الساعة فوجدها قد بلغت السابعة إلا خمس دقائق .. وكان قد اتفق مع « هدى »

على أن يبدآ رحلتهما فى السابعة . فاتجه إلى حجرة أمه كى يودعها ، ولكنه وجد جميع من فى الدار قد استيقظوا .

كان « هشام » أخوه قد استيقظ .. وفى طريقه إلى الحمام لمح « سامى » مرتدياً ملابسه .. فنظر إليه فى دهشة متسائلا :

— إلى أين ؟

— بيروت .

— أحدث شيء ؟

— مثل ؟

— أعنى شيئاً هاماً يستدعى سفرك ؟

ولم يعرف « سامى » بم يجيب .. إن « هشام » يعتبره دائماً مخلوقاً هاماً .. لا يفعل إلا أشياء هامة .

وأجاب « سامى » وهو يحاول أن يوقف سيل الأسئلة التى يوشك « هشام » أن يلقى بها عليه :

— هناك بعض أعمال لا بد من إنجازها فى بيروت .

— والحالة هنا ؟

— ما لها ؟

— ظننت .. أعنى .. أنه بدا لى أن الموقف يحتاج إلى وجودك هنا .. إن البلد فى حالة « غليان » .

— لن أغيب طويلا .

— لقد كنا ننوى أن ننظم اجتماعاً فى الجامعة وندعوك إليه .

— إن شاء الله عندما أعود .

— أشياء كثيرة يرغب الطلبة فى استيضاحها .. وبعض الخونة يحاولون تشويه الحقائق .

— عندما أعود .. سنجلس سوياً ونتبادل الآراء .

— على أية حال .. إننا نعرف كيف نؤدبهم .. إننا أقوى منهم كثيراً .. وهم يحاولون التشكيك فى دعوة القومية العربية .. ويقولون إنها ستار لتحطيم الديمقراطية .. و ...

— سنتحدث فى هذا كله بعد عودتى .

— إذا استمروا فى وقاحتهم .. فسنضربهم جيداً .

— لا داعى للعراك .. إننا فى حاجة إلى وحدة صفوفنا قبل كل شىء .

— ولكن ...

وربت « سامى » ظهره ونحاه عن طريقه .. واتجه إلى الباب الخارجى فى شىء من العجلة .. وقبل أن يصل إليه اعترضه جسد « مجيدة » ، وهى تفرك عينيها ، وقد تسللت من المطبخ على ضجيج المناقشة .. وعلا صوت « الأم » من حجرة النوم تصيح :

— مجيدة .. اعملى الشاى .

وهتف « سامى » فى ضيق :

— ليس هناك وقت للشاى .

ثم وقف بباب حجرة « الأم » يعلنها بذهابه ويلقى عليها تحية الوداع :

— أنا ذاهب .

— هل أخذت المعطف ؟

— أجل .

— خذ بالك من نفسك .. لا تسرع فى الطريق .. مع السلامة .

— الله يسلمك .

وهبط « سامى » السلم مندفعاً وأخرج العربة من الجراج .

وكان الطريق خالياً .. إلا من بعض الشرطة وجنود الجيش وباعة الصباح .. وموجات الضباب تدفعها الريح .. والمصابيح ولافتات النيون .. التى لم تطفأ بعد .. تبدو باهتة خابية .. كعين الساهر يثقلها النعاس .. وأشجار الطريق قد جرّدتها الريح من كساء الربيع الأخضر .. ووقفت عارية . كأنها تستجدى من الشتاء كساءه الثلجى الأبيض ، الذى أخذ يزحف على قمم الجبال المحيطة وسفوحها .

ووقف « سامى » بعربته فى الشارع الجانبى لبيت « هدى » فى مكان يمكن أن تراه فيه من إحدى الشرفات .. وكان قد اتفق معها على أن ينتظر بالعربة حتى تهبط إليه .

و لم تمض بضع دقائق حتى بدت « هدى » فى معطف فضفاض عريض الياقة مسحوب الكتفين ، وقد لفت رأسها بمنديل عقدته حول عنقها ، وغطت عينيها بمنظارها الأسود الشبيه بجناحى الفراشة .. وفى قدميها حذاء خفيف واطئ ، وأقبلت تسير الهوينى تجاه العربة .

وأحس « سامى » كأن دهراً قد مرّ به وهو ينتظر بجوار البيت ، وخيل إليه أن كل سكان دمشق قد استيقظوا فى تلك اللحظة وغادروا بيوتهم وأتوا ليشاهدوه وهو يقف لينتظر « هدى » حتى تقترب من العربة ، ثم يمد ذراعه ليفتح لها الباب ويدخلها إلى العربة .

واستقرت « هدى » على المقعد بجواره ، وأحس بأنفاسها تتلاحق وسمعها تهمس به فى صوت خفيض :

— صباح الخير .

— صباح الخير .. هل أتعبك النزول ؟

— لا .

— أنستريح برهة ؟

— لا .. لا .. سر بنا .

ثم تمتمت كأنها تعتذر عن خطأ :

ــ لقد ضايقتك بإحضارك إلى هنا لاصطحابى .. كان يجب أن نلتقى بعيداً .

و لم يجب « سامى » .. فقد تملكه إحساس الطير الحبيس يوشك أن ينطلق من باب القفص .

وأدار العربة دون أن ينبس بكلمة .. و لم تحاول « هدى » أن تطلب منه رداً .. فقد أحست بما تملكه من توتر وارتباك .

وانطلقت العربة فى الطريق العريض بجوار بردى .

وعادت « هدى » تنظر إلى جانب وجهه ، وقد بدا متجهم الملامح مشدود القسمات .

واسترخت فى مقعدها وهى ما زالت تنظر إلى وجهه ، وتملكها إحساس عجيب بالسعادة والراحة .. لقد تحقق حلمها الذى طالما طاف بذهنها فى كل غفوة وصحوة .

لقد أحست بأنه ملكها بلا شريك ولا منازع .. و لم تعد عقارب الساعة تنذرها باختطافه فى كل دقة وفى كل حركة .

ستغرب عليهما الشمس .. فلا يهددها الليل بفقده .. وستشرق ثانية وهو ما يزال بين أحضانها .

ستشرق .. وتغرب .. وتشرق .. وتغرب .. وهو ملء يديها .. وساعة الفراق لا تكاد تحين .. فهى بعيدة .. بعيدة .

وأطلقت تنهيدة راحة واتسعت الابتسامة على شفتيها .. ثم همست وعيناها ما زالتا معلقتين بجانب وجهه :

ــ هل تنوى أن تقطع الطريق كله دون أن تحدثنى أو أن تنظر إلىّ ؟

والتفت إليها ، و لم تلبث ابتسامتها أن سرت إليه .. ففكت عقدة وجهه وأجاب :

ــ كان بى إحساس السارق .. يعدو بغنيمته .. لا أريد أن أتلفت حولى خشية أن يشير إلىّ الناس .. قف أيها السارق .

وضحكت « هدى » وأجابت :

ــ قبلنى أيها السارق .. وكفى ذعراً .

وأدار جانب وجهه وقد انتهز خلو الطريق .

ومدت شفتيها فمست شفتيه وهمست قائلة :

ــ لا أكاد أصدق كل ما أنا فيه .. لقد كان دائماً مجرد حلم .

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)